المرأة في البلاط الأموي في الأندلس
(١٣٨هـ/٧٥٥م - ٤٢٢هـ/١٠٣٠م)
دراسة في سيرتها ودورها السياسي والاجتماعي والثقافي

د. يوسف بن أحمد حوالة
قسم العلوم الاجتماعية - كلية التربية
جامعة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة
المملكة العربية السعودية

المؤلف:

د. يوسف بن أحمد حوالة

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة أم القرى – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٦م.
- أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم العلوم الاجتماعية بكلية التربية فرع جامعة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة. (تخصص عام: تاريخ إسلامي – تخصص دقيق: تاريخ المغرب والأندلس).
- عميد كلية التربية سابقاً، ورئيس قسم العلوم الاجتماعية حالياً.
- عضو الجمعية التاريخية السعودية، وعضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

الإنتاج العلمي:

الأبحاث:

- ابن حوقل ورحلاته للجناح العربي من الدولة الإسلامية، العدد ١٤٢، رمضان ١٤١٢هـ، دورية رسائل جغرافية صادرة عن قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية. الكويت.
- أبو دنف: مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي. رحالة من طراز خاص، العدد الثاني. السنة الثانية عشرة – محرم – صفر – ربيع الأول، مجلة الدارة بالرياض، السعودية.
- قراءة في نص/ محاولة للفهم – دراسة تحليلية للأيام الأخيرة من عهد المنصور ابن أبي عامر العامري الأندلسي، العدد الحادي عشر، يوليو ١٩٩٣م، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة. مصر.
- وصية المنصور بن أبي عامر العامري الأندلسي – دراسة تحليلية، العدد السابع سنة ١٤١٤هـ، مجلة العلوم التربوية، كلية التربية، جامعة الملك عبدالعزيز، المدينة المنورة، السعودية.
- وصية معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد – دراسة نقدية وتحليلية، العدد الرابع، المجلد الأول، مارس ١٩٩٦م، مجلة المؤرخ العربي الصادرة عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة. مصر.
- إفريقيا الإقليم – رحلة في الرسم والاسم، العدد ٢١٩، ربيع الآخر ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دورية رسائل جغرافية صادرة عن قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية الكويت.

المحتــوى

الملخص

تتناول هذه الدراسة بالبحث سيرة نساء البلاط الأموي ونفوذهن على الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية خلال الفترة الممتدة من سنة ١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م؛ أي خلال عصري الإمارة والخلافة الأموية بالأندلس.

ولكي يصل الباحث إلى تقديم دراسة علمية جادة ذات فائدة كان عليه أن يتتبَّع سيرة المرأة في البلاط الأموي في قربها - أو بعدها - من قلب الأمير أو الخليفة، بحسب مكانها في البلاط سواء أكانت: زوجةً حرةً أم أمةً أم ولد أم بنتاً أم أختاً أم جارية متعة أم جارية خدمة. وإن ظل للأمة أم الولد - وقد توسَّع أولئك الأمراء والخلفاء في اتخاذهن زوجات لهم؛ بما شكَّله ذلك من ظاهرة تاريخية - الحظوة والإدلال في قلب سيدها الأمير أو الخليفة، وهي التي أنجبت لهم الأمراء العظام، منهم الأمير الحاكم، ومنهم الخليفة إلى درجة أن تلك الأَمَةَ طبعت البلاط الأموي وقتذاك بطابعها وميسمها.

كما كان على الباحث أن يتتبَّع مسيرة المرأة في البلاط الأموي ذات النفوذ والسلطان - أيّاً كان وضعها - في التعاطي مع الشأن السياسي إيجاباً وسلباً، وكذا في الشأنين الاجتماعي والثقافي إيجاباً وسلباً أيضاً. وفي كل ذلك سجلت هذه المرأة حضوراً لافتاً، رصده الباحث - اعتماداً على مصادره - وانتهى فيه ومعه إلى نتائج مهمة معتمداً منهج البحث التاريخي بوصفه منهجاً وصفياً يقوم على الاستقراء والمقابلة والتحليل والاستنباط أو الاستنتاج (التعليل) وفق مساقي: التاريخ النقدي والتاريخ الاستردادي.

المقدمة

توطئة:

ما إن قامت الدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م حتى حل منطق الدولة محل منطق العشيرة، وشهدت الأندلس استقراراً واضحاً امتد لمدة قرن من الزمن تقريباً في ظل عصر الإمارة الأموية الأول، وهو عهد القوة، ثم تلا هذا العهد، عهد أخذت فيه القوة المركزية في الانحسار والتراجع، حتى بلغ الأمر حداً كادت فيه الدولة الأموية أن تسقط إبان الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. ولو لم يقيض الله للأندلس الأمير عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد، الذي عينه جده الأمير عبدالله ولياً لعهده لكانت الدولة الأموية قد سقطت فعلياً. إذ استطاع هذا الأمير – بتوفيق الله له، ثم للعديد من المعطيات الداخلية والخارجية، علاوة على ما توافر له من صفات وخِلال – أن يعيد للدولة الأموية وحدتها وهيبتها وقوتها المركزية، ثم لا يكتفي بذلك، وإنما يحول نظام الحكم من إمارة إلى خلافة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م، لتنطلق الدولة الأموية نحو آفاق رحبة سياسية وحضارية شهدت فيها الأندلس انبساط سلطة الأمويين ردحاً طويلاً من الزمن في ظل نظام الخلافة العتيد، وإن كان قد دب فيه داء الضعف بعد ذلك، حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الأموية والخلافة معاً سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م.

أهمية الدراسة:

إن المستقرئ المتخصص في تاريخ الأندلس يجذب اهتمامه الدور الكبير الذي مارسته المرأة في البلاط الأموي في المحددات الزمنية المشار إليها في عنوان الدراسة؛ ذلك الدور الذي تعاظم فطال المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية. وفي الحق فبقدر ما كان لبعض ربات البلاط الأموي من دور إيجابي في معطيات الحياة الأندلسية خلال عهد الدولة الأموية، كان لهن بالمقابل دور سلبي خطير؛ انعكست آثاره على الحياة الأندلسية – كذلك – وكان في جملة الأسباب التي أدت إلى سقوط

الدولة – والخلافة نهائياً – وحسبنا أن نشير إلى سيدتين من سيدات البلاط الأموي أسهم طموحهما السياسي في زعزعة الاستقرار السياسي للدولة الأموية، هما السيدة طروب زوجة الأمير عبدالرحمن الأوسط بن الحكم، والسيدة صبح زوجة الخليفة الحكم المستنصر بالله.

على أن المرأة في البلاط الأموي – فيما عدا تدخلها في الشأن السياسي وما جرَّ إليه ذلك من مشكلات وخطوب – سعت إلى تأكيد حضورها الإيجابي على صعيدي الحياة الاجتماعية والثقافية. وفي الحق فإنها لم تقصر في هذين الجانبين.

أدبيات الدراسة:

لا يذكر الباحث من خلال الاستقراء الذي أجراه، مما اطلع عليه في المصادر والمظان الأندلسية أن هذا الموضوع بعينه قد دارت حوله دراسة علمية خاصة. نعم كان الموضوع مجالاً للإشارة والتقصي بصور متناثرة ومتفرقة في المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ الأندلس. وعلى سبيل المثال تناول مصطفى الشكعة في كتابه الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه – دور المرأة الأندلسية في الجانب الثقافي تناولاً جيداً، أفدت من بعض ما جاء فيه. بيد أن هذا المؤلَّف يأتي في إطار عموميات الحديث عن دور المرأة ولا سيما في الجانب الثقافي، ولم يتطرق إلى الدور الاجتماعي والسياسي لهذه المرأة، كما أن الدور الثقافي للأميرة الأموية الذي وقف عنده مصطفى الشكعة كان متعلقاً بالأميرة ولادة بنت المستكفي وحدها، ولم يتطرق لغيرها من الأميرات. والأمر نفسه يمكن قوله عن كتاب الشعر النسوي في الأندلس لمحمد المنتصر الريسوني، وتناولت الموضوع في عمومياته الباحثة راوية عبدالحميد حسانين شافع في رسالتها للماجستير (غير منشورة) وعنوانها: دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي من الفتح العربي للأندلس.. حتى سقوط الخلافة الأموية (٩٢-٤٢٢هـ) (٧١١-١٠٣١م)، ومن المعلوم أن الباحثة راوية حسانين تركز في بحثها على استجلاء دور المرأة في المجتمع الأندلسي بكافة شرائحه في النواحي الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية، بينما تركز دراستنا على تتبع نسوة البلاط

الأموي بتقصي أسمائهن وجنسياتهن وأعدادهن ووضعهن في البلاط الأموي وعلاقتهن بالأمراء والخلفاء الأمويين، ثم سيرهن الخاصة، مع تتبع أدوارهن على الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية. كما أن راوية حسانين تركز في دراستها في المجال الاجتماعي مثلاً على الطبقية الاجتماعية والعادات والتقاليد، بينما تهتم دراستنا على الصعيد الاجتماعي بالأعمال الخيرية لنساء البلاط الأموي. وتطرق أحمد مختار العبادي في كتابه: تاريخ المغرب والأندلس إلى بعض أدوار المرأة الأندلسية بصفة العموم بإيجاز. وثمة مؤلف يحاكي موضوعه موضوع دراسة الباحث، هو كتاب: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية في العراق ومصر لوفاء محمد علي. بيد أن هذا الكتاب تحدث عن ذوات النفوذ السياسي في الخلافتين: العباسية ببغداد والفاطمية بمصر.

ولما لم يكن هناك دراسة تفرد سيرة النسوة ودورهن في البلاط الأموي بالأندلس إبان دولتهم في عصري الإمارة والخلافة، فقد توجه عزم الباحث إلى عقد دراسة عن المرأة في البلاط الأموي ١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م، تستهدف الحديث عن سيرتها ودورها السياسي والاجتماعي والثقافي خلال عهد الدولة الأموية بالأندلس.

محتوى الدراسة:

جاء بناء محتوى الدراسة منسجماً مع عنوان الدراسة – فيما يتراءى لي – فالدراسة تتكون من مقدمة وتمهيد وأربعة فصول، وتتندرج تحت كل فصل مباحث أربعة، ثم الخاتمة، فقائمة المصادر والمراجع، وأخيراً فهرس الموضوعات. أما التمهيد فيتكون من فقرتين: نبذة تاريخية عن أمراء الدولة الأموية وخلفائها – ربات السيرة والنفوذ في البلاط الأموي. وأما الفصل الأول فقد عنونته بعنوان: سيرة المرأة في البلاط الأموي، وأدرجت تحت المباحث الأربعة التالية: الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم – حرائر الأمراء والخلفاء – بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم – جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم. ولقد رأيت متعيناً عليّ لكي أعالج بالدراسة بواعث النفوذ النسوي وآثاره في بلاطات الأمويين على الصعد السياسية

والاجتماعية والثقافية أن أتناول أولاً السيرة الذاتية – من خلال ما هو متوافر بين أيدينا – عن المرأة في البلاط الأموي قبل أن أتحدث عن دورها الإيجابي أو السلبي على الصعد المذكورة آنفاً، وبذلك يكون حديث الفصل الثاني: مظاهر النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي بمباحثه الأربعة: دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأخواتهم – دور حرائر الأمراء والخلفاء – دور بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم – دور جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم، حديثاً مؤطراً موضوعياً ومنهجياً. والأمر نفسه يقال عن الفصل الثالث/ مظاهر النفوذ الاجتماعي للمرأة في البلاط الأموي بمباحثه الأربعة التي تدور حول تبيان دور المرأة في البلاط الأموي – أياً كان وضعها داخل الأسرة الأموية والبلاط – على ذلك الصعيد. وكذا يمكننا القول عن الفصل الرابع والأخير الذي جاء عنوانه هكذا: مظاهر النفوذ الثقافي للمرأة في البلاط الأموي بمباحثه الأربعة – كذلك – التي تقف مع امرأة البلاط الأموي: أمةً وحرةً وبنتاً وأختاً وجارية خدمة وجارية متعة – في حضورها الفاعل على الصعيد الثقافي. وختمت الدراسة بخاتمة رصدت فيها النتائج التي تبدت لي.

منهج الدراسة:

اعتمدت منهج البحث التاريخي الذي هو منهج وصفي قائم على: الاستقراء، والمقابلة، والمقارنة، والتحليل، والاستنباط أو الاستنتاج (التعليل) وفق مساقي: التاريخ النقدي والتاريخ الاستردادي.

مصادر الدراسة ومراجعها:

طبعي أن أستقرئ أمهات المصادر الأندلسية كموسوعة ابن حيان القرطبي الخالدة: المقتبس في أنباء أهل الأندلس، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، والحلة السيراء لابن الأبار القضاعي، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي، ثم الموسوعة التاريخية والأدبية الخالدة – أيضاً – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري. فلقد رافقتني هذه المصادر – بصورة أوسع، وغيرها بصورة أقل – في ثنايا الدراسة. وأما المراجع فقد رافقتني موسوعة

محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس بأقسامها المختلفة التي تتحدث عن الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، كما رافقتني مؤلفات أحمد مختار العبادي، ومنها كتابه في تاريخ المغرب والأندلس، ومؤلفات السيد عبدالعزيز سالم، ومنها كتابه قرطبة حاضرة الخلافة، ومؤلَّف أحمد إبراهيم الشعراوي: الأمويون أمراء الأندلس الأول، ومؤلَّف عمر رضا كحالة: أعلام النساء، ومؤلفات أحمد خليل جمعة: نساء من التاريخ – نساء من الأندلس – نساء في قصور الأمراء. كما عدت إلى مراجع أخرى مهمة في تاريخ الأندلس وحضارتها. كما أنني استقرأت عدداً من البحوث العلمية التي احتوتها دوريات علمية محكمة، وكذا عدداً من المعاجم والموسوعات. وكل المصادر والمراجع التي أشرت إليها هنا انتقاءً أو التي لم يسعني الإشارة إليها قد أفدت منها في دراستي هذه.

والله أسأل التوفيق، ومنه وحده أستمد العون والتأييد...

التمهيد

- نبذة تاريخية عن أمراء الدولة الأموية وخلفائها (١٣٨/٤٢٢ هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٠م)

- ربات السيرة والنفوذ في البلاط الأموي

نبذة تاريخية
عن أمراء الدولة الأموية وخلفائها
١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٥-١٠٣٠م

قامت الدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م بعدما أفلح الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، أحد أبناء البيت الأموي الذين سقطت دولتهم المشرقية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م على أيدي العباسيين خصومهم السياسيين في الفرار إلى بلاد المغرب، ومنها إلى الأندلس حيث أسس دولته الأموية وبويع له أميراً عليها. وسنة ١٣٨هـ/٧٥٥م تعد بهذا نقطة تحول في تاريخ الأندلس؛ انتهى فيها عصر الولاة، ثاني العصور التاريخية للمسلمين في الأندلس بعد عصر الفتح ليبدأ معها وبها عصر جديد مختلف في تركيبته السياسية هو عصر الدولة الأموية الأندلسية التي نجح هذا الأمير في بعثها بالأندلس، مستقلاً بها استقلالاً تاماً عن الدولة العباسية، محولاً نظام الحكم فيها من نظام يتعاقب فيه ولاة على حكم الأندلس إلى نظام حكم أُسَرِيّ وراثي محصور في الأمير عبدالرحمن وذريته؛ استمر قائماً من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٢٢هـ[١] ويقسم المؤرخون المحدثون[٢] عصر الدولة الأموية في الأندلس إلى عصرين هما:

- عصر الإمارة وقد امتد من سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م إلى سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م.
- عصر الخلافة وقد امتد من سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م إلى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م.

عصر الإمارة: ١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م:

تعاقب على حكم الأندلس في هذا العصر ٨ أمراء، أولهم الأمير المؤسس عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان الذي استقر في التاريخ على أنه عبدالرحمن الداخل؛ لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء بني أمية وحكمها، وعلى

أنه كذلك عبدالرحمن الأول؛ لأنه أول ثلاثة أمراء أمويين يحملون اسم عبدالرحمن[٣]. ولقد ظل الأمير عبدالرحمن الداخل يحكم الأندلس من سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م حتى توفي سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م[٤].

والأمير الثاني في سلسلة أمراء عصر الإمارة الأموية هو هشام بن عبدالرحمن الذي يلقب بـ: الرضا، لعدله وفضله واستقامته وثناء المؤرخين عليه[٥]. غير أن فترة حكمه لم تطل كثيراً، إذ توفي سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م، ولما تتجاوز سنوات حكمه ٨ سنوات[٦] وعلى الفور خلفه في الإمارة وبعهد منه ابنه الأمير الحكم بن هشام، وهو الأمير الثالث في سلسلة أمراء عصر الإمارة، وقد عرف بالحكم الربضي لاقتران اسمه بحادثة داخلية واجهها الأمير بكل قوة وشدة[٧]. وظل الأمير الحكم بن هشام يحكم الأندلس منذ عام ١٨٠هـ/٧٩٦م حتى ٢٠٦هـ/٨٢١م[٨].

وتنتقل الإمارة إلى الأمير عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، وهو الأمير الرابع، وقد أطلق عليه المؤرخون المحدثون لقب: الأوسط والثاني[٩]، وامتدت إمارته من سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م حتى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م[١٠]. وما أن توفي الأمير عبدالرحمن الثاني (الأوسط) حتى خلفه على الفور ابنه الأمير محمد، وهو الأمير الخامس في تسلسل الأمراء الأمويين في عصر الإمارة. ولقد ظل يحكم الإمارة الأموية منذ سنة ٢٣٨هـ حتى سنة ٢٧٣هـ حيث توفي في هذه السنة. وعلى الفور خلفه ابنه وولي عهده الأمير المنذر، وهو الأمير السادس، لكن إمارته لم تزد عن عامين فحسب، إذ توفي سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م. ويعد عهده أقصر عهود أمراء عصر الإمارة الأموية على الإطلاق.

وعند وفاة الأمير المنذر بن محمد ارتقى سدة الإمارة أخوه الأمير عبدالله، وهو الأمير السادس في تسلسل أمراء عصر الإمارة، والذي تُشَكِّلُ إمارته حالة غير مسبوقة في نظام الحكم؛ انتقل فيها الحكم من الأخ إلى أخيه لا من الأب إلى ابنه كما كان سائداً منذ قيام الدولة، وقد ظل الأمير عبدالله بن محمد في الحكم منذ سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م إلى حين وفاته سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م[١١].

وبوفاة الأمير عبدالله سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، يرتقي سدة الإمارة حفيده الأمير عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد، الذي يعد ثامن أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة. وكما شكَّل تولي جده الأمير عبدالله الحُكم حالة غير مسبوقة في تاريخ الدولة الأموية، فقد شكل ارتقاء الأمير عبدالرحمن بن محمد – كذلك – حالة غير مسبوقة، عندما خلف الأمير المتوفى حفيده وليس أحد أبنائه أو أحد إخوته ثقة فيه من جهة، ورغبة من الجد من جهة أخرى التكفير عمَّا أقدم عليه من قتل ابنه وولي عهده الأمير محمد، والد عبدالرحمن هذا في حادثة تاريخية ذكرتها كتب التاريخ(١٢). وينظر للأمير عبدالرحمن بن محمد على أنه آخر أمراء عصر الإمارة وأول خلفاء عصر الخلافة.

عصر الخلافة: ٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣٠م:

مثلما كانت سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م نقطة تحول تاريخية في تاريخ الأندلس فإن سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م شكَّلت منعطفاً تاريخياً كبيراً، تحولت فيه الدولة الأموية في ظل حكم الأمير عبدالرحمن بن محمد إلى خلافة(١٣)، وغدا صاحبها يطلق عليه لقب خليفة، وأمير المؤمنين(١٤). ولقد لُقِّبَ عبدالرحمن بـ: الناصر لدين الله، كما عرف بـ: عبدالرحمن الثالث. ولقد ظل الأمير فالخليفة عبدالرحمن الناصر يحكم الأندلس مدة خمسين عاماً؛ منها ١٦ عاماً أميراً و٣٤ عاماً خليفة حتى توفي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م(١٥).

وبوفاة الخليفة عبدالرحمن الناصر ارتقى سدة الخلافة وبعهد منه ابنه وولي عهده الأمير الحكم، الذي تلقب بالمستنصر بالله، وظل يحكم الأندلس مدة ١٦ عاماً حتى توفي سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م(١٦). على أن الخليفة الحكم المستنصر بالله الذي لم يكن له من الولد سوى ابن واحد وهو الأمير هشام، غلبته عاطفة الأبوة، وتأثير زوجته والدة الأمير هشام، وتزيين البطانة المحيطة به عن أن يفكر بنظرة ثاقبة في مسألة الخلافة من بعده، فكان أن عهد لابنه هشام بالخلافة ولم يزل طفلاً، حتى إذا أدركت المنية الأب سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م حسبما ألمحنا قبل قليل؛ نودي على الفور بابنه القاصر هشام خليفة، ولما يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وقد تلقب بالمؤيد بالله.

وبتولي هشام الخلافة سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م دخلت الخلافة الأموية – والأندلس معها – طوراً جديداً في تاريخها السياسي؛ كانت أبرز ملامحه: تولي صبي صغير قاصر الحكم، وبدء سيطرة المتنفذين في الدولة على مقدرات الأمور، ويمثلهم عدد من الحجاب والوزراء والقادة، ثم والدة الخليفة حسبما سنفصل ذلك في موضعه بعد إن شاء الله. غير أن هذه القوى المحيطة بالخليفة القاصر ما لبثت أن انحسر نفوذها – عدا أم الخليفة – وهيمنت على مقاليد الأمور شخصية سياسية طموحة؛ هي شخصية محمد بن أبي عامر الذي نجح في تأسيس دولة عامرية – نسبة إليه – في قلب الدولة والخلافة الأموية، كان خلالها هو الحاكم الفعلي، ولم يبق للخليفة سوى الاسم، وتلقي بلقب ملكي هو المنصور. ولقد ظل هذا الوضع قائماً حتى بعد وفاة المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م حيث خلفه في حجابة الخليفة المقهور المغلوب على أمره هشام، ابنه عبدالملك بن المنصور الذي غدا حاكم الأندلس الفعلي، وظل كذلك حتى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، وهي السنة التي توفي فيها.

وعلى الأثر رفع الخليفة هشام، الابن الآخر للمنصور بن أبي عامر إلى سدة الحكم الفعلي، ويدعى عبدالرحمن، فعهد إليه بالحجابة وتدبير شؤون الدولة. غير أن عبدالرحمن بن المنصور لم يكن رجل المرحلة، فقد تكشف عن شخصية هشة لا تملك صفات رجل الدولة علاوة على سوء سيرته الشخصية. وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي حمل عبدالرحمن هذا الخليفة على أن يعهد إليه بولاية العهد من بعده؛ فقد أجج هذا حقد نفوس أبناء البيت الأموي عليه. ولقد تسارعت الأحداث إثر هذا، وانتهت بمقتل عبدالرحمن بن المنصور في سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م نفسها(١٧) وعزل الخليفة هشام المؤيد بالله، وتولى الخلافة أحفاد الخليفة عبدالرحمن الناصر، وهو: محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، الذي تلقب بـ: المهدي بالله.

وبتولي محمد بن هشام بن عبدالجبار الخلافة، وخلع الخليفة الشرعي هشام المؤيد بالله قهراً دخلت الدولة الأموية طوراً سياسياً جديداً بالغ الخطورة، أطلق عليه المؤرخون المحدثون: عصر الفتنة الكبرى(١٨). وهو العصر الذي امتد من سنة

٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٨-١٠٣٠م، تمثلت ملامحه العامة في القضاء على البيت العامري ونفوذه كلية، ووقوع الاصطدام داخل البيت الأموي الحاكم، واضطرام نار الفتنة، والحرب الأهلية بين عناصر المجتمع الأندلسي من عرب وبربر ومولدين وخدام القصر، وتسلل أسرة تنتسب إلى الخليفة علي بن أبي طالب إلى سدة الخلافة الأموية، ونجاحها في تولي الخلافة لحين من الزمن.

ويهمنا هنا تعرف الخلفاء الأمويين الذين تعاقبوا على الحكم في هذا العصر. فأول خلفاء عصر الفتنة هو كما قلنا الخليفة المهدي بالله الذي تولى الخلافة سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ثم فقدها بعد ذلك لفترة وجيزة من الزمن، ثم عاد فاستعادها، ولكنه ما لبث أن فقدها ثانية حيث عاد الخليفة الشرعي هشام للخلافة وقتل المهدي سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م غير أن الخليفة هشاماً لم يهنأ بالخلافة، إذ انتزعها منه أحد أبناء عمومته، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، وتولى الخلافة مكانه سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م، وتلقب بالمستعين بالله، وظل كذلك حتى سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م عندما نازعه الخلافة أحد العلويين، وهو علي بن حمود بن علي، ويعود في نسبه إلى إدريس الأول بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولقد نجح علي ابن حمود في التخلص قتلاً من الخليفة المستعين بالله وتولي الخلافة بدلاً عنه. ومنذ سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م خلصت الخلافة لأفراد البيت العلوي هذا دون الأمويين، وظلت فيهم حتى سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م.

على أن الخلافة الأموية ما لبثت أن عادت إلى الأندلس، فنودي بأحد أحفاد الخليفة عبدالرحمن الناصر خليفة، وهو عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر في سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م وتلقب بالمستظهر بالله، وهو الخليفة الثالث في سلسلة خلفاء عصر الفتنة. غير أنه ما لبث أن قُتل على يدي أحد أبناء عمومته الذي ثار عليه، وهو محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن عبدالرحمن الناصر، وتولى الخلافة بدلاً عنه، وتلقب بالمستكفي بالله، وهو رابع خلفاء عصر الفتنة. على أن المستكفي لم يكن رجل المرحلة بحال من الأحوال. وقد أجمع المؤرخون

على أنه لم يل الخلافة أحط منه ولا أنقص. ولقد دفع هذا الأمر أهل قرطبة إلى إعادة الخلافة للبيت العلوي، فخاطبوا أحدهم وهو يحيى بن علي بن حمود، فتحرك نحوهم. وأدى تحركه نحو قرطبة إلى فزع الخليفة المستكفي بالله، فخرج من قرطبة وما لبث أن قُتل غيلة سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م بعد فترة حكم ناهزت العامين. ولم تكن عودة الأمير للبيت العلوي بأحسن حالاً، فقد اضطربت الأحوال في الأندلس كلية، فتنادى سادة قرطبة ووجهاؤها إلى إعادة الأمر للأمويين ثانية، وبالفعل بايعوا سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م أحد أحفاد الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي كان بعيداً عن العاصمة، وهو هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر. الذي تأخر حضوره إلى قرطبة حتى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، ثم دخلها وتولى الخلافة وتلقب بـ: المعتد بالله. بيد أنه لم يكن رجل المرحلة هو الآخر، فقد تكشف عن شخصية عابثة لاهية ساقطة، أحاط نفسه ببطانة سيئة؛ الأمر الذي دفع سادة قرطبة إلى اليأس من أبناء البيت الأموي جملة فقرروا إنهاء حكمهم فعلياً وإسقاطهم تماماً، وتنادوا إلى عزل الخليفة هشام المعتد بالله في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م، وسقطت بذلك الدولة الأموية تماماً[١٩] وقام في الأندلس عصر جديد، هو عصر ملوك الطوائف الثاني[٢٠].

رباط السيرة والنفوذ في البلاط الأموي

انطلقت الإمارة الأموية التي أقامها الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام في الأندلس سنة ١٣٨هـ من منطلق منطق العشيرة إلى منطلق الدولة كما سلف القول. ومن ثَمَّ كان لا بد لها أن تجاري بلاطات الحكم السابقة لها والمعاصرة في الدولة الإسلامية في طبيعة تركيبتها[٢١] - ولكن مع الفارق بالطبع - كما أن قيامها في الأندلس والحرص على إظهار الاستقلالية كان لا بد أن يفرض عليها ابتكار رسوم ونظم خاصة بها، وهو ما حدث بالفعل، وبجانب هذا كان لا بد للبلاط الأموي أن يظهر مظاهر الملك وفخامة السلطان، وفي مقدمة ذلك حشد البلاط بالنساء أو الحريم[٢٢] وكذا الخدم من الجنسين والحشم[٢٣] علاوة على الحرس الخاص.

والمستطلع لسيرة المرأة في البلاط الأموي ومن ثم أدوارها في المحدد التاريخي الذي تخيرناه إطاراً زمنياً للدراسة أو البحث، الممتد من سنة ١٣٨-٤٢٢هـ، يلحظ أن تلك السيرة ومن ثمة تلك الأدوار قد اضطلعت به فئات خمس كن وراء تلك السيرة والآثار المترتبة على ذلك في الصعد المستهدفة بالدراسة، أي الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية. والفئات الخمس هي:

- الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم[٢٤].
- حرائر الأمراء والخلفاء[٢٥].
- بنات (كرائم) الأمراء والخلفاء[٢٦].
- أخوات الأمراء والخلفاء.

وقد فضلنا دمجهما معاً في الدراسة في نسق واحد.

- جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم[٢٧].

الهوامش

(١) عن قيام الدولة الأموية في الأندلس، وأسباب اكتفاء الأمير عبدالرحمن الداخل وأعقابه بلقب الإمارة دون الخلافة، انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، العصر الأول، القسم الأول، ص١٤٠-٢٠٦، وانظر كذلك إبراهيم ياس خضير الدوري: عبدالرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، منشورات دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م، الفصول الأربعة من الرسالة مع الخاتمة من ص٣٠-٣٥ حيث استوعب هذان الكتابان كل ما كتب عن عبدالرحمن الداخل، وتأسيسه لدولته التي تناولها المؤرخون القدامى والمحدثون بما فيهم المستشرقون.

(٢) انظر على سبيل المثال أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٦م، الفصل الرابع، ص٩٩-١٧٦ حيث الإشارة إلى عصر الإمارة، الفصل الخامس، ص١٧٧-٢٧٤ حيث الإشارة إلى عصر الخلافة - عبدالرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م، منشورات دار القلم ودار المنارة، دمشق، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الفصل الثالث، ص٢١٣-٢٩٤، حيث الحديث عن عصر الإمارة، الفصل الرابع، ص٢٩٥-٣٢٠ حيث الحديث عن عصر الخلافة.

(٣) انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، ص١٩٦-١٩٨ حيث الإشارة إلى أسباب تلقيبه باللقبين معاً: الأول باعتباره أول ثلاثة أمراء أمويين في الأندلس يحملون اسم عبدالرحمن، والداخل لكونه أول من دخل الأندلس من بني أمية وحكمها. وانظر فيما بعد مبحث الإماء أمهات الأمراء والخلفاء الأمويين والإشارة إلى وجود خليفتين أمويين حملا - كذلك - اسم عبدالرحمن.

(٤) ابن عذاري (ت٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ٤ أجزاء، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق ومراجعة، ج.س. كولان وليفي بروفنسال، وحقق

الجزء الرابع إحسان عباس، منشورات مكتبة الثقافة، بيروت، (د.ت)، الجزء الثاني، ص٤٧.

(٥) عن تلقيب الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل بـ: الرضا راجع أحمد إبراهيم الشعراوي: الأمويون أمراء الأندلس الأول، منشورات دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٩م، ص١٣٩-٢٠٩.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثاني، ص٦١.

(٧) هي حادثة الربض، وهو أحد أحياء مدينة قرطبة. انظر للمزيد عن أخبار هذه الحادثة ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٥٥-٧١ - المقري (ت١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، منشورات دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ٨ أجزاء، الجزء الأول، ص٣٣٨-٣٣٩.

(٨) ابن عذاري: المصدر نفسه أعلاه والجزء الثاني، ص٦٨.

(٩) انظر أحمد إبراهيم الشعراوي: الأمويون أمراء الأندلس الأول، ص٢٧٣-٢٧٧.

(١٠) ابن عذاري: المصدر السابق والجزء الثاني، ص٨١.

(١١) ينظر عدد من المؤرخين المحدثين إلى فترة حكم الأمراء: محمد، المنذر، عبدالله، على أنها الفترة التي شهدت انحسار النفوذ الأموي جراء الثورات الداخلية التي عصفت بالأندلس؛ تفككت فيها وحدة الأندلس المركزية ولا سيما في عهدي الأميرين: المنذر وعبدالله، إلى الدرجة التي لم يبق للإمارة الأموية سوى العاصمة قرطبة وأحوازها، كما ينظر لهذه الفترة على أنها الفترة التي شهدت قيام عصر الطوائف الأول عندما استأثرت طوائف الأندلس من عرب وبربر ومولدين بحكم النواحي التي يسكنونها منفصلين عن الإمارة، مكونين ممالك هي ممالك الطوائف الأولى. عن تقويم هؤلاء الأمراء الثلاثة المتأخرين، ولمعرفة المزيد عن عصر الطوائف الأول، راجع أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٦٧-١٧٥ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، ص٢٨٨-٣٣٤ - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة

بقرطبة، منشورات مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٢٤٣ وما بعدها. وعن وفيات الأمراء الثلاثة المتأخرين: محمد، المنذر، عبدالله، راجع ابن عذاري: نفسه، ص٩٤، ١١٤، ١٢١.

(١٢) انظر تحديداً ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٥٠. ويشكك عدد من الباحثين في رواية محاولة الأمير محمد الانشقاق على أبيه والانضمام لأعدائه، انظر مثلاً عبدالمجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس – التاريخ السياسي، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣١٦.

(١٣) عن أسباب تحويل نظام الحكم من إمارة إلى خلافة، راجع أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات مكتبة محمد بسيوني، الإسكندرية، ط١، ١٩٦٨م، ص٤٤–٦٠ حيث الدراسة الجادة المرتكزة على النقولات المختلفة من المؤرخين القدامى وحيث التحليل التاريخي الدقيق.

(١٤) انظر مثلاً: ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٥٦ حيث تنصيص ابن عذاري على لقب أمير المؤمنين في تقديم عبدالرحمن الناصر لنا بخلاف ما كان ينتهجه من قبل في حق أجداد الناصر من الأمير المؤسس عبدالرحمن إلى الأمير عبدالله جد الناصر في الصفحات ١٢٠ وما قبلها.

(١٥) عن عهد الناصر الذي يعد العهد الذهبي للدولة الأموية في الأندلس، انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول، القسم الثاني، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٣٧٢–٣٨٢ حيث أربى فيه على الغاية، وانظر عن وفاة الناصر، ابن عذاري: نفسه، ص١٥٦.

(١٦) ابن عذاري: نفسه والجزء الثاني، ص٢٣٣. وعن عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي يعد استمراراً لعهد أبيه في ملامحه العامة، راجع محمد عبدالله عنان الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص٣٨٣–٤٠٥ حيث أربى فيه على الغاية أيضاً.

(١٧) عن الدولة العامرية التي قامت في قلب الدولة والخلافة الأموية، راجع محمد

عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس – الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية (الأموية بالطبع) منشورات مطبعة مصر/ شركة مساهمة مصرية، ط١، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص٢٥-١٢٨.

(١٨) ممن سماه بذلك: محمد عبدالله عنان: الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، ص١٤٤ وما بعدها – عبدالمجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس – التاريخ السياسي، ص٤٩٩ وما بعدها.

(١٩) عن خلفاء عصر الفتنة الكبرى ثم سقوط الخلافة الأموية تماماً، راجع: محمد عبدالله عنان: الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، الكتاب الرابع، ص١٤٥-١٧٩ – عبدالمجيد نعنعي: المرجع السابق، ص٤٩٩-٥٣١ ففيهما تحقيق تاريخي دقيق للغاية عن هذا الموضوع.

(٢٠) عن عصر ملوك الطوائف الثاني، انظر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٧٣-٢٨٤، وانظر: محمد عبدالله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، العصر الثاني عن كتاب دولة الإسلام في الأندلس، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م حيث استوفى الحديث عن هذا العصر بما يربو عن الغاية اعتماداً على أقوال المؤرخين القدامى عرباً وأجانب.

(٢١) عن قيام الدول وتركيباتها انظر ابن خلدون (ت٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون المسمى بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل ذكار، ٨ أجزاء، الجزء الأول (المقدمة)، ص١٧٥-٢٣٠.

(٢٢) انظر: عن تعريف الحريم بعد، الفصل الثاني.

(٢٣) الحشم: حشم الرجل: خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه؛ من عبيد أو أهل أو جيرة، والجمع: أحشام. إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبدالقادر ومحمد علي النجار: المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بعناية دار إحياء التراث العربي، وأشرف على طبعه عبدالسلام هارون، مطبعة المكتبة العلمية، طهران، جزءان (د.ت).

(٢٤) انظر عن تعريف الإماء، بعد، الفصل الأول.

(٢٥) انظر عن تعريف الحرائر، بعد، الفصل الأول.

(٢٦) انظر عن تعريف الكرائم، بعد، الفصل الثالث.

(٢٧) انظر عن تعريف جواري المتعة (السراري) وجواري الخدمة (القهرمانات والوصيفات) بعد، الفصل الأول.

الفصل الأول

سيرة المرأة في البلاط الأموي

- المبحث الأول – الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم.
- المبحث الثاني – حرائر الأمراء والخلفاء.
- المبحث الثالث – بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم.
- المبحث الرابع – جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

الفصل الأول
سيرة المرأة في البلاط الأموي

المبحث الأول
الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم

لعل من المناسب قبل الحديث عن أعلام أمهات الأمراء والخلفاء الأمويين وأولادهم أن نجذب الأنظار إلى المعنى اللغوي لكلمة الأمة أم الولد. فالأمة والجمع إماء: المرأة المملوكة خلاف الحرة، وقد يقال في الجمع: آم بجانب إماء[١] أما المعنى الشرعي والاصطلاحي لكلمة الأمة أم الولد، فإنها هي التي ولدت من سيدها في مُلْكه، وتعتق بذلك لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه: «أيُّما رجل وَلَدَتْ أَمَتُهُ مِنْهُ فَهِيَ مُعْتَقَةٌ عَن دُبُرٍ مِنْهُ»[٢] والعرب لم تكن ترغب في أمهات الأولاد، وكانوا يسمون بـ الهُجناء ومفردها هجين؛ أي ذلك الذي أبوه عربي وأمه أعجمية[٣].

وإذا أوضحنا المعنيين: اللغوي والشرعي لأم الولد. فإن الحريَّ بنا أن نبدأ حديث الإماء أبناء أمهات الأمراء والخلفاء الأمويين وأولادهم اللاتي قدَّمتهن لنا المصادر بوصفهن أعلاماً لسيدات القصور الأموية، بالوقوف عند الظاهرة التي طبعت الوضع الأسري لهؤلاء الأمراء والخلفاء، لا بل ومعظم أفراد البيت الأموي الأندلسي الحاكم. أعني ظاهرة كون أمهاتهم أمهات ولد، وكذا زوجاتهم. وفي الحق فإن هذه الظاهرة لم يعرفها البلاط الأموي بالمشرق. فلقد كانت بنو أمية لا تستخلق بني الإماء[٤] وقد اختلف في سبب ذلك، فقيل إما: للاستهانة بهم، وقيل: بل لما وقر في نفوس الأوائل من خلفاء بني أمية من أن زوال ملكهم يذهب على يد ابن أم ولد. ومن هنا فلم يل الخلافة الأموية المشرقية في عصريها السفياني والمرواني من كانت أمه أم ولد سوى اثنين فقط، هما يزيد بن الوليد بن عبدالملك، ومروان بن محمد بن مروان الذي سقطت الخلافة الأموية في عهده كما هو معروف. ولقد كان مسلمة بن عبد الملك

ابن مروان وأمه أم ولد، أصلح ما يكون علماً وشجاعة وإقداماً وسماحةً وسخاءً في أولاد عبدالملك[٥] ومع ذلك فقد تركوه ربما لسبب من السببين أو بهما معاً[٦].

نعم فقد تنكَّب الأمويون في الأندلس سير أسلافهم في المشرق، ربما لأنهم تقووا بمؤسّس دولتهم الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام الذي كانت أمه جارية بربرية تدعى راح أو رداح[٧]، أو لربما لأن ما كان أسلافهم يتوجسون منه خيفةً قد حدث فعلاً لدولتهم المشرقية، وقد يضاف إلى هذا أن الذهنية العربية باتت تتقبل وضعية أمهات الأولاد، وإن ليس بإطلاق، فلقد كان لكثير من الصحابة أمهات أولاد، ثم لا ننسى ما أشارت إليه المصادر من أن هناك أعلاماً من رؤساء التابعين كانت أمهاتهم أمهات أولاد، وقد شرع الناس يرغبون في أمهات الأولاد عندما ولد ثلاثة من أعلام التابعين بل من رؤوسهم، وهم: علي بن الحسين بن أبي طالب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وكلهم أمهاتهم أمهات أولاد[٨] ولعله مما يتعلق بهذا الموضوع أن معظم خلفاء بني العباس في دولتهم بالعراق أي من عام ١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٤٩-١٢٥٨م كانت أمهاتهم أمهات ولد[٩].

وإذا وطَّأنا لحديث أمهات أمراء وبني أمية وخلفائهم في الأندلس وأولادهم، بهذه التوطئة فإننا نقول ومع معرفتنا بأن أم الأمير الأموي الأول المؤسس للدولة الأموية الأندلسية الفتية، كانت أم ولد حسبما ذكرنا آنفاً، فإننا نعرف أيضاً أن زوجته أم ابنه الذي خلفه في الإمارة، أي الأمير هشام بن عبدالرحمن، أم ولد أيضاً تدعى: حُلل[١٠] وقيل جمال[١١] وقيل حوراء[١٢].

أما بقية أولاد[١٣] الأمير عبدالرحمن الداخل، وقد أتيح لنا معرفة عددهم، إذ بلغوا: (٢٠؛ الذكور منهم: ١١، والإناث: ٩)[١٤] أقول أما بقية أولاد الأمير[١٥] عبدالرحمن هؤلاء، فإننا لم نتعرف أسماء أمهاتهم. ويتراءى لنا أن أمهاتهم أمهات ولد، إذ لم ترشدنا المصادر بما يفيد بوجود عقيلة حرة للأمير عبدالرحمن عدا أم ابنه البكر سليمان، كما أن المصادر التي حدَّثتنا عن حلل جارية الداخل وأم ابنه الأمير

هشام لم تذكر لنا هل كان لها أبناء وبنات من الأمير عبدالرحمن غير ابنها الأمير هشام.

وعندما نتحدث عن الأمير الثاني الأمير هشام بن عبدالرحمن، نجد أن عدد أولاده: (١١؛ ٥ أبناء و٦بنات)[١٦] ولا ندري ما إذا كانت حرته القرشية الأموية الأميرة كنزة بنت عبدالملك بن مروان التي ستلمح إليها في مبحث حرائر الأمراء والخلفاء، هي أم لواحد أو أكثر من هؤلاء الأولاد أم أنها لم تنجب منه؟ لا ندري ولكن الذي ندريه يقيناً أن أم ابنه وولي عهده الأمير الحكم أم ولد تدعى: زُخرف[١٧]، ثم وعندما نتحدث عن الأمير الثالث؛ الأمير الحكم بن هشام نجد نفس الظاهرة، وهي أن أولاده الذين بلغ عددهم (٤٠؛ منهم ١٩ ابناً، و٢١ بنتاً)[١٨] أمهاتهم كلهن إماء أمهات أولاد. على أن المصادر وقد أرشدتنا إلى عدد أولاد الأمير الأموي الثالث الحكم الذكور والإناث، لم ترشدنا إلى أسماء أمهات أولاده هؤلاء، اللهم إلَّا والدة ابنه وولي عهده الأمير عبدالرحمن، التي تدعى: حلاوة[١٩] ثم جاريته عجب، وإن كنا لا نعرف اسم أو أسماء أولادها منه[٢٠].

ويقودنا السياق التاريخي نحو الأمير الأموي الرابع؛ الأمير عبدالرحمن بن محمد، المعروف بـ: الأوسط والثاني، فنعرف أن هذا الأمير الذي كان أكثر أمراء بني أمية وخلفائهم في الأندلس أولاداً على الإطلاق لم تكن له عقيلة حُرَّة البتة، وإنما كانت نساؤه جميعهن أمهات أولاد. وقبل أن نعرض إلى أعلام نساء بلاطه، تنبغي الإشارة إلى أن المؤرخين وإن اتفقوا على أن الأمير عبدالرحمن كان أكثر الأمراء والخلفاء الأمويين أولاداً إلَّا أنهم اختلفوا في عددهم. فهذا ابن حزم يقول في كتابه: نقط العروس في تواريخ الخلفاء[٢١] إنهم بلغوا (٢٠٠ ولد، منهم ١٥ ابناً و٥٠ بنتاً)[٢٢] أما في كتابه الآخر: جمهرة أنساب العرب[٢٣] فقد قال: إنهم بلغوا (١٠٠ ولد: منهم ٥٠ ابناً و٥٠ بنتاً) وقد سرد في كتابه هذا من بقي من أعقاب أولاد الأمير عبدالرحمن الذكور حتى وقته هو، أو بمعنى أدق حتى وقت تأليفه لكتاب الجمهرة.

أما شيخ مؤرخي الأندلس على الإطلاق: ابن حيان القرطبي[٢٤] فيقول إن

أولاد الأمير عبدالرحمن بلغوا (٨٣ ولداً، الذكور منهم ٤٠، والإناث ٤٣)[٢٥] وأما ابن عذاري[٢٦] فيقول إن عددهم (٨٧ ولداً، الذكور منهم ٤٥، والإناث ٤٣).

إن كثرة أولاد الأمير عبدالرحمن الأوسط أو الثاني تشير إلى كثرة إمائه، محظياته أمهات أولاده من جهة، وترسيخاً – من جهة أخرى – للظاهرة التي تصادفنا، ونحن نستقرئ سير أعلام ربّات البلاط الأموي في الأندلس في الفترة الزمنية موضوع البحث، وهي أنهن في معظمهن إماء أمهات أولاد.

احتفت المصادر بذكر أعلام ربّات بلاط الأمير عبدالرحمن الأوسط اللائي في البدء ذكرت لنا أم ابنه الأمير محمد الذي خلفه في الإمارة. فلقد قدَّمتها لنا المصادر على أنها أم ولد تدعى: تهتز[٢٧] وقيل بل: بُهير[٢٨] وقد ماتت في حياة زوجها الأمير عبدالرحمن، وخلفت ابنها الطفل الوحيد الأمير محمداً، فرعته زوجة للأمير عبدالرحمن هي الشفاء. ورصدت المصادر لنا – أيضاً – ذكر زوجة حظية ثانية لا بل أبرز حظياته وآثرهن عنده طروب، وهي أم ولد. ولقد دلَّتنا المصادر على أنها عرفت بأم الأمير عبدالله[٢٩] ولا ندري هل أنجبت من الأمير عبدالرحمن غيره من البنين والبنات أم لا؟ ثم هذه زوجة ثالثة، هي حظية كذلك عنده، أَمَتُه الشفاء وقد أنجبت له ابنها الأمير المطرف[٣٠] ولا ندري – كذلك – هل أنجبت غيره من البنين والبنات أم لا؟ ولقد دلَّتنا المصادر على أن الأمير قد أعتقها ثم تزوجها[٣١] وثمَّة زوجة رابعة هي: فجر[٣٢] وتسميها مصادر أخرى: فخر[٣٣] ولقد ذكر ابن الأبار القضاعي في كتابه التكملة لكتاب الصلة[٣٤] أنها أم ولد وهي أم الأمير أبي الوليد: بشر بن عبدالرحمن ابن الحكم وكان أديباً شاعراً.

ثم هذه زوجة خامسة تدعى: مؤمرة، وهي أم ولده الأمير المنذر[٣٥] ثم أخيراً هذه زوجة سادسة تدعى: اعتزاز، وهي أم ولده الأمير المغيرة[٣٦] وهكذا نرى – في ختام حديثنا عن الأمير عبدالرحمن الأوسط – أن المذكورات المنجبات من أمهات أولاد الأمير عبدالرحمن الكثر جداً لا يتجاوزن ست إماء فحسب، وحرمتنا المصادر من تعرف بقيتهن؛ إذ يستحيل – بداهة – أن يكنَّ – أعني هؤلاء الإماء الست –

أمهات جميع أولاد الأمير عبدالرحمن الذكور والإناث. ومن يدري فلربما أشار التراث الأندلسي لهن، ولكنه ضاع في جملة ما ضاع من هذا التراث ولم يكشف عنه حتى الآن؟

أما الأمير الخامس في سلسلة أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة، فنذكر ابتداء الأمير محمد بن عبدالرحمن الذي كانت عنده عقيلة حرة، هي ابنة عمه لحًّا الأميرة أم سلمة بنت محمد بن الحكم. ولا ندري هل أنجبت من زوجها الأمير محمد أم لا؟ مع ما تثيره كُنيتها من إشكالية.

وإذا ما تركنا هذا فإن المصادر سخت علينا بذكر والدتي ابنيه اللذين خلفاه في الإمارة على التعاقب، أعني الأمير المنذر بن محمد، والأمير عبدالله بن محمد. فأم الأمير المنذر أم ولد تدعى: أثل(٣٧) وأما أم الأمير عبدالله فهي – كذلك – أم ولد تدعى: عشار، ولقد ذكر الحميدي أن عشاراً هذه طال عمرها إلى أن ماتت في إمارة ابنها الأمير عبدالله وقبل وفاته المعروفة تاريخياً لنا (أي سنة ٣٠٠هـ) بسنة وشهر(٣٨) ولقد قدَّمتها لنا مصادر أخرى غير الحميدي بأسماء مختلفة، فالضبي يقول في بُغية ملتمسه(٣٩) هي: أشار. وواضح هنا أن الاسم محرف عن عشار، وابن عذاري(٤٠) يقدِّمها لنا تحت اسم: بهار وإن كان قد أردف فقال: قيل: عشار.

والأمير محمد بن عبدالرحمن وإن لم يكن له من الأولاد مثلما كان لأبيه الأمير عبدالرحمن، إلَّا أنه لم يكن قليل الأولاد، فقد أرشدنا ابن عذاري(٤١) إلى عددهم فقال: إن عدد أولاده (٥٤؛ منهم ٣٣ ابناً، و٢١ بنتاً) واكتفى ابن حزم(٤٢) بالإشارة إلى الذكور منهم، وقال إنهم بلغوا: نيِّفاً وثلاثين(٤٣). ومرة أخرى نؤكد أن المصادر سخت علينا بذكر عدد من زوجات الأمير محمد الإماء أمهات الأولاد – وفي هذا ما يُكرِّس الظاهرة التي ذكرناها واستوقفتنا، وهي أن معظم الأمويين في الأندلس: أمراء وخلفاء وغيرهم كانت أمهاتهم أمهات ولد – أقول سخت علينا المصادر بذكر عدد من زوجات الأمير محمد بجانب أثل وعشار أمّي الأميرين المنذر وعبدالله. فهذه أمة ثالثة كانت حظية عند سيدها الأمير محمد بن عبدالرحمن تدعى: غزلان، وهي أم بَنِيهِ: عثمان

والقاسم والمطرف[٤٤] وهذه أم ولد رابعة هي: فينان وكانت هي الأخرى حظية جداً عنده، وهي أم ولده الأمير الأصبغ[٤٥] يبقى أن نقول في ختام حديثنا عن الأمير محمد بن عبدالرحمن إن ذكر أمهات أولاده الأربع إضافة إلى عقيلته القرشية الأموية ابنة عمه لم يرو غليلنا لمعرفة أعلام نسائه، وما نبتغيه بالإضافة إلى ذلك من معرفة أدوارهن على كافة الصعد التي عُنينا بها، أي الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية.

وننتقل إلى الأمير السادس في سلسلة أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة، أعني الأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمن، فنجد أن المصادر تذكر لنا أن الأمير المنذر بن محمد كان له من الأولاد: (١٣ ولداً؛ منهم: ٥ أبناء و٨ بنات)[٤٦]. غير أن المصادر مع تنصيصها لعدد أولاد الأمير الثلاثة عشر لم ترشدنا إلى اسم زوجة أو زوجات الأمير اللائي – في واقع الظاهرة التي ذكرناها – نكاد نقطع أنهن كن أمهات ولد.

وأما الأمير السابع في سلسلة أمراء الدولة الأموية الأمير عبدالله بن محمد، فقد عرفنا ابن عذاري بوالدة ابنه الأكبر: محمد – والد عبدالرحمن الناصر – الذي قتل على يدي أبيه كما سلف القول في التمهيد – إذ قال: هي أم ولد تدعى: در[٤٧] كما تسميها المصادر العربية، أو ونقة بنت فرتون بن غرسية البشكنشية كما جاء في المصادر الأسبانية[٤٨].

وكما عرَّفنا ابن عذاري بـ: أم الأمير محمد بن عبدالله، الابن الأكبر للأمير الأموي السابع الأمير عبدالله بن محمد، وأنها أم ولد تدعى در، فقد عرفنا بأسماء الإماء أمهات بقية أولاده – في حالة تكريسية لظاهرة اتخاذ الأمراء والخلفاء الجواري الإماء أمهات لأولادهم – بل وعرَّفنا بأسماء أولاد الأمير عبدالله تفصيلاً، وهو تفصيل انفرد به ابن عذاري وحده.

أما عدد أولاده جملةً فهم (٢٤؛ منهم: ١١ ابناً و١٣ بنتاً)[٤٩] وإذا ما تركنا حديث أسماء البنات لموضعه في المبحث المتصل به فإننا معنيون هنا بسرد أسماء

إماء الأمير أمهات أولاده بالتفصيل الذي أورده ابن عذاري. هذه أم ولد ثانية – بجانب در المذكورة آنفاً – تدعى: تمام، وهي والدة ابنه الأمير أحمد. وهذه أم ولد ثالثة تدعى: غزلان، وهي والدة الأميرين: المطرف وسليمان. وهذه أم ولد رابعة تدعى: شأن، وهي أم الأمير عبدالرحمن. وهذه أم ولد خامسة تدعى غزلان – غير تلك المار ذكرها آنفاً – وهي والدة الأميرين عبدالرحمن وعبدالملك وعدد من البنات. وهذه أم ولد سابعة تدعى: هشيمة، ويبدو أنها لم تنجب من الأمير عبدالله سوى ابنة وحيدة هي الأميرة: قُرَيش. وهناك أم ولد ثامنة تدعى: فَتْيان، ويبدو أيضاً أنها لم تنجب من الأمير عبدالله سوى ابنة وحيدة هي الأميرة أسماء. وهذه أم ولد تاسعة تدعى: مَلَك، ويبدو أنها هي أيضاً لم تنجب من الأمير سوى ابنة وحيدة هي الأميرة حكيمة. وهذه أم ولد تدعى در، لا ندري هل نقول إنها عاشرة أم لا؟ ذلك أن ابن عذاري يقول عن در هذه إنها أم الأميرة البهاء بنت عبدالله. ولا ندري هل هي بهذا شقيقة الأمير محمد بن عبدالله – والد الخليفة عبدالرحمن الناصر؛ أمهما در والتي تسميها المصادر الغربية بـ: وقنة كما سلف القول أم لا؟ ولعلنا – في غياب المعلومة الدقيقة نقول: إننا نميل للقول إنها شقيقة للأمير محمد لا لموضوع وحدة الاسم لأميهما معاً – أعني الأمير محمداً والأميرة البهاء فحسب – ولكن لأن ابن عذاري نص في بداية حديثه على معلومة هي في غاية من الأهمية، وهي أنه فرق بين من وُلِدَ للأمير عبدالله قبل أن يلي الإمارة، ومن وُلِدَ له بعد أن تولى الإمارة، فأشار إلى أن الأمير محمداً والأميرة البهاء ولدا للأمير عبدالله قبل توليه الإمارة. ومن هنا قلنا إننا نميل إلى أن والدتهما هي در، جدة الخليفة الناصر لأبيه.

وأما أمهات أولاد الأمير عبدالله بعد توليه الإمارة سنة ٢٧٥هـ ف: مستظرف، وهي أم ابنه الأمير العاصي، ثم أم ولد ثانية تدعى: خَدِيع وهي أم ابنه الأمير عبدالرحمن. ثم أم ولد ثالثة تدعى: مَلَحة، وهي أم الأميرين: محمد الأصغر وأحمد الأصغر – لِما مَرَّ بنا بالفعل من وجود أميرين بهذين الاسمين – ثم هذه أم ولد رابعة تدعى هي الأخرى: ملحة، وهي أم الأميرتين: رقية وزينب. ثم هذه أم ولد خامسة

تدعى: ماجن، وهي أم الأميرة فاطمة – وهي للمناسبة غير الأميرة فاطمة التي سبق لابن عذاري الإشارة إليها بقوله إنها أسن ولد الأمير عبدالله بن محمد – وأخيراً هذه أم ولد تدعى در – أيضاً – ولا ندري هل نقول إنها أم ولد سادسة، أم أنها – أعني در – التي ختم ابن عذاري بها حديث الإماء أمهات أولاد الأمير عبدالله، هي ذاتها أم الأمير البكر محمد والد خليفتنا عبدالرحمن الناصر والأميرة البهاء؟. على كل حال فأم الولد هذه: در، ذكر ابن عذاري أنها أم الأميرة فاطمة. ووضعنا ابن عذاري بذلك في ذات الإشكالية، فهل الأميرة فاطمة – وهي الثالثة في بناته التي تحمل اسم فاطمة – هي شقيقة كل من الأمير محمد والأميرة البهاء أم لا؟ وثمَّةَ ملاحظة تستوقفنا هنا، ولعلها تثير إشكالية أخرى هنا – وهي وجود أكثر من أمير أو أميرة يحملون الاسم نفسه كما مر بنا قبل قليل، ولا نجد تفسيراً لهذا إلا باحتمالين لا ثالث لهما: أولهما أن الآباء يكررون الاسم ذاته في أولادهم إذا مات أحدهم، وهذا شيء شائع ذائع، والاحتمال الثاني أن العرف الاجتماعي السائد في الدولة الإسلامية وقتذاك كان يسمح بذلك ويفرق بينهما في الكنى والألقاب، وهذا شائع أيضاً[٥٠].

ونطوي حديث أعلام سيدات البلاط الأموي من الإماء أمهات أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة وأولادهم بالوقوف عند أعلام سيدات البلاط الأموي في عصر الخلافة من الإماء أمهات الخلفاء وأولادهم. على أن الحديث عن هذا المبحث لا يستقيم له معنى ولا يطَّرد له قياس إلا بالتذكير بما سبق أن قلناه من قبل وهو أن النظرة التي ننظر بها إلى عبدالرحمن الناصر أو الثالث[٥١] هي أنه أول الخلفاء الأمويين، وهذا لا يتعارض مع كونه في الحقيقة آخر أمراء عصر الإمارة، وهو الأمير الثامن فيهم. ولمَّا كان خليفتنا عبدالرحمن هو ابن الأمير محمد، الابن الأكبر للأمير عبدالله بن محمد الذي قتله أبوه كما ذكرنا من قبل، فإن السياق يفرض علينا الحديث عن والدة الخليفة عبدالرحمن الناصر، فهي – تكريساً للظاهرة التي استوقفتنا سالفة الذكر – أم ولد تدعى: مُزنة حسبما تسميها بذلك المصادر الإسلامية[٥٢] وأما اسمها في المدونات الأسبانية المعاصرة آنذاك، فهو: ماريا Mariya[٥٣].

أما زوجات الخليفة عبدالرحمن الناصر، فإنه فيما عدا ابنة عمه الأميرة فاطمة بنت المنذر بن محمد بن عبدالرحمن؛ أم ابنه الأمير المنذر، فقد كن جميعاً إماء أمهات أولاد. في البدء ها نحن أولاً نجد ابن حيان يذكر لنا في مقتبسه أن أم ولده وولي عهده الأمير الحكم الذي سيتولى الخلافة ويلقب بالمستنصر فيما بعد، هي أم ولد تدعى: مرجان(٥٤) وقد حظيت عنده بمكانة عالية جداً حتى غدت تعرف بـ: السيدة الكبرى، دون زوجاته وحظياته كلهن. وقد أنجبت مرجان – كذلك لسيدها الناصر – أبناء وبنات هم: عبيد الله وعبدالعزيز وهند وولادة(٥٥).

ولنصخ إلى ابن حيان – وعنه ينقل الناقلون – يحدد لنا ملامح المكانة الكبيرة التي بلغتها عند سيدها ومولاها الخليفة الناصر لدين الله بعد أن أزاحت بكيدها ودهائها ضرتها الحرة القرشية الأميرة فاطمة بنت المنذر ابنة عم الخليفة وحظيته الأثيرة عن طريقها(٥٦) فخلص لها قلب الأمير.

حدد لنا ابن حيان(٥٧) ملامح تلك المكانة لمرجانة التي عمت فطمت وذاعت فشاعت فقال:

- (فهي الزائدة الحظوة على جماعة نساء الناصر لدين الله).
- (وهي أم أكرم ولده الذكور؛ الحكم ولي عهده، وشقيقيه: عبيدالله وعبدالعزيز).
- (وهي الفائزة منه – تأسيساً على الفقرة أعلاه – بثلث العدة المتكاملة من بنيه(٥٨) المتميزة بولادة الحكم بِكرِه والحاظي بولاية عهده ووراثة سلطانه من بعده).
- (وهي التي رقَّاها مولاها الناصر لدين الله بمتانة أسبابها ومَزية رجحانها فوق مرتبتهن جميعهن – أي نسائه – وسماها السيدة الكبرى دونهن).
- (وهي التي تفردت بالأَثَرة والقيادة – بعد إقصاء الخليفة الناصر عقيلته القرشية الأموية).
- (وهي التي ظلت باقية الأَثَرة شامخة الغُرَّة منفردة بأيسر السيادة حتى وافتها المنية في حيازة زوجها الخليفة).
- (وهي التي كانت من السّريات المفضلات، لفضل أدب كان لها ورشاقة حركة

يستحسنها مولاها الناصر لدين الله منها، فلا يزال كذلك يستدنيها كثيراً، ويعجب بخدمتها، ويكثر تقريبها، وتعجبه لباقتها، وقد كانت أوتيت من اللبَابة[٥٩] والفطانة واللطف وحلاوة الخليقة أفضل ما أوتيته أنثى).

- (وهي – تبعاً لذلك ونتيجة له – المستهدفة من صواحبها[٦٠] يستحسدنها ذلك وينافسنها فيه؛ فتتقوى باستعمال ذلك[٦١] وتترقى وتزداد به عند الناصر لدين الله حظوةً إلى أن عزلتهن جميعاً، واعتلت على عظيمتهن الحرة القرشية[٦٢] فنالت ذروة السيادة، وتفردت بأثرة الخليفة مولاها).
- (وهي التي اتخذها الخليفة – بعد أن أزورَّ بوجهه عن ابنة عمه – سيدة نسائه وكبرى حظاياه وقيِّمة قصره، وألقى إليها بمقاليده، ووثق بها في سره وجهره).
- (وهي التي أخذت منزلتها عنده تتزايد حتى ملكت زمام قياده).
- (وهي التي كانت كرائمه[٦٣] وحظاياه لا يصلن إلى مطالبهن ورغباتهن منه إلا بشفاعة مرجانة لهن إليه وتوسلهن بها لديه، للطف منزلتها وغلبتها على قلبه).
- (وهي التي كان الخليفة إذا وعك أو طرقه التياث[٦٤] لا يقيم إلا عندها ولا يمرِّضه غيرها، ولا يسكن إلا إلى علاجها، ولا يصيب الراحة إلا بمداواتها ورفقها).

كل ذلك تأتَّى لهذه الجارية بمكيدة دبرتها لضرتها الحرة القرشية الأموية الأميرة فاطمة بنت المنذر. على أن حق الإنصاف لهذه السيدة – أعني مرجانة – يقتضي القول إنها لم تستغل هذه المكانة القصية في ممارسة دور أو أدوار سياسية في بلاط زوجها الناصر لدين الله وتمثَّل دورها – وهو مبعث سعد وتوفيق لها – في فضل ظهرت انعكاساته خيراً وبركةً، وهو ما سنقف عنده في موضعه بعد – إن شاء الله – في حديث مظاهر النفوذ الاجتماعي لجواري أو إماء الأمراء والخلفاء.

ونجد ثانياً – في سياق الزوجات أمهات الأولاد – ذكراً لزوجة هي أم ولد تدعى مشتاق، وهي أم أصغر أبنائه الأمير: المغيرة، وكانت ذات حظوة عنده، كما كان لابنها الأمير المغيرة حظوة كبيرة أيضاً عند أبيه[٦٥].

ويقول ابن حيان[٦٦] إن الحظوة التي نالتها مشتاق حظيت بها بعد وفاة

مرجانة والدة ابنه الحكم المار ذكرها آنفاً. وقد غلبت مشتاق على أمر الخليفة آخر عمره غلبةً كبيرة.

ونترك حديث زوجة الخليفة عبدالرحمن، الجارية الزهراء وكانت أثيرةً حظيةً عنده[٦٧] نتركه لموضعه بعد؛ لأننا لم نجد نصاً صريحاً على أنها أنجبت من الخليفة عبدالرحمن، وهي بهذا – في نظرنا وبحسب تبويبنا – من جواري المتعة لا من الجواري أمهات الأولاد. والأمر نفسه يقال عن الجارية التي كانت حظية عند الناصر – ولم يتسن لنا معرفة اسمها – وفقدت من بعد مكانتها عنده[٦٨] إذ لم نجد نصاً صريحاً على أنها أنجبت منه، وهو الخبر الذي سنقف عنده – إن شاء الله – في مبحث جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

على أننا ونحن الذين نملك معلومة واضحة عن عدد أولاد الخليفة عبدالرحمن الناصر، وهي أنهم بلغوا: (١٧ ولداً؛ منهم: ١٢ ابناً و٥ بنات) لا نعرف أمهات بقية أولاده الآخرين من البنين والبنات. فإذا تركنا الأمراء: (الحكم وعبيدالله وعبدالعزيز والأميرات: هند وولادة وهم جميعاً أولاد حظية الناصر: مرجانة، حسبما مر سابقاً) وإذا تركنا الأمير المنذر ووالدته الأميرة فاطمة بنت المنذر بن محمد، والأمير المغيرة ووالدته مشتاق كما مر من قبل أيضاً، لا نجد ذكراً لأمهات بقية أولاد الناصر السبعة الآخرين (الأصبغ وعبدالجبار وعبدالملك وسليمان وعبدالله)[٦٩] ومروان[٧٠] وهشام[٧١] ثم الأميرات (سنية وسلمة)[٧٢] والأميرة (عائشة)[٧٣] لكننا على يقين أنهن إماء أمهات أولاد لم تفصح المصادر التي بين أيدينا عن ذكر أسمائهن ومكانتهن لدى سيدهن الخليفة عبدالرحمن الناصر.

وإذا كان للخليفة الأموي الأول عبدالرحمن الناصر هؤلاء الزوجات اللائي ذكرناهن، فإن ابنه الخليفة الثاني: الحكم المستنصر لم يكن له سوى امرأة واحدة، هي جاريته وأم ولده: صُبح المعروفة بـ: صُبح البشكنشية[٧٤] نسبة إلى إقليم الباسك أو البشكنش كما تطلق عليه المصادر الإسلامية[٧٥]، وصبح هذه التي سنقف عندها من بعد وقفة طويلة كانت حظية جداً عند زوجها وسيدها الخليفة الحكم المستنصر.

ولقد أنجبت له ابنين أولهما: عبدالرحمن، وقد مات طفلاً، وثانيهما هشام(٧٦) الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ وتلقَّب بـ: المؤيد بالله. ولقد دفع شغف الخليفة الحكم بجاريته هذه إلى أن أطلق عليها اسم أو لقب جعفر(٧٧) ولا ندري ما دلالة ذلك عنده، إذ لم ترشدنا المصادر إلى السبب في إطلاق هذا الاسم أو اللقب عليها؟ هذا مع علمنا ومعرفتنا بالمعنى اللغوي لكلمة جعفر. فكلمة جعفر تعني في اللغة : النهر عامة وقيل النهر الملآن – وقيل النهر الكبير الواسع، وقيل بل النهر الصغير فوق الجدول(٧٨) ولا ندري هل ثمة كناية ها هنا أرادها الخليفة الحكم المستنصر المثقف ثقافة عالية؟(٧٩) وهل يريد الخليفة الحكم أن يقول إن أَمَته الأثيرة لديه أم ابنيه: عبدالرحمن وهشام: صُبح البشكنشية هذه التي كانت ذات جمال رائع، كانت تتدفَّق شباباً تدفق النهر الملآن أو النهر الكبير الواسع ماءً عذباً قراحاً متدفقاً؟.

وأما الخليفة الأموي الثالث: هشام المؤيد بالله الذي تولى الخلافة سنة ٣٦٦هـ، وهو ابن إحدى عشرة سنة كما سلف القول في موضعه من البحث، وظل مسلوب الإرادة والسلطة طيلة مدة خلافته المضطربة المائجة كما سلف القول في موضعه من الدراسة، فقد كان رجلاً صرورة(٨٠) أي أنه لم يتزوج قط، وقد انقرض ولا عقب له ولا لأبيه، وهي عبارة ابن حزم في جمهرته للأنساب بنصها وفصِّها(٨١).

وتحل الفتنة بالأندلس فتدخل بها ومعها معتركاً صعباً للغاية، بدأت فيه مؤشرات انحلال الخلافة وتردي الأوضاع على كافة الصعد تظهر وتتسارع، ويتولى الخلافة المتأرجحة عدد من أحفاد الخليفة العظيم عبدالرحمن الناصر حسبما ذكرنا من قبل في التمهيد. ويهمنا هنا أن نشير إلى استمرارية الظاهرة التي رصدناها من قبل، المتمثلة في أن أمهات أمراء بني أمية وأمهات خلفائهم في دولتهم بالأندلس وأولادهم، كنَّ إماء أمهات أولاد. نعم ثمة استمرارية لتلك الظاهرة التي رصدناها. وعلى كل حال فإذا ذهبنا نقلِّب صفحات المصادر بحثاً عن أعلام سيدات القصور الأموية في البلاط الأموي بالأندلس من الزوجات إبان تلك الفترة التي انتهت بسقوط

الدولة والخلافة الأموية معاً سنة ٤٢٢هـ في ظل الظاهرة نفسها يمكننا القول ابتداء إن كل أمهات خلفاء الفتنة، وهو المصطلح السياسي الذي استقر للدلالة على الخلفاء الأمويين الذين تولوا الخلافة في تلك المرحلة السياسية الصعبة، وكانوا بتكويناتهم وخلفياتهم السياسية والإدارية سبباً رئيساً فيها حسبما أشرنا في التمهيد، كانت أمهاتهم أمهات أولاد. نقف مع أول خليفة من خلفاء عصر الفتنة الخليفة محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، الذي خلع ابن عم أبيه الخليفة هشام المؤيد بالله، وتلقَّب بالمهدي، فنجد أن أمه أم ولد تدعى: مُزنة ولُقِّبَت بـ كبارة، وتعرف بالعرجاء لعرج كان بها(٨٢) ومع أننا عرفنا اسم والدة الخليفة المهدي، إلا أننا لم نفلح في تعرف اسم زوجة أو زوجات هذا الخليفة، مع أن ابن حزم(٨٣) يذكر لنا أنه كان له ابنة وابن قُتل – أي الابن – من غير عقب.

ثم هذا الخليفة الثاني من خلفاء عصر الفتنة الخليفة: سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر، وقد تلقب بـ: المستعين بالله، أمه أم ولد تدعى: ظبية(٨٤).

على أننا – مع الخليفة المستعين بالله – قد حظينا بمعرفة اسم زوجة له – ولا ندري لعلها تكون الوحيدة – وتدعى: مُشْنف(٨٥) ويسميها ابن الأبار في الحلة السِّيراء: شنف(٨٦) وقد أنجبت من الخليفة المستعين ابنة تدعى: حبيبة، وتكنى بـ: أم الحكم، وهي التي خطبها من بعد الخليفة الأموي الثالث من خلفاء الفتنة الخليفة عبدالرحمن المستظهر، ولا تتعارض الإشارة إلى معرفتنا بوجود ابنة للخليفة المستعين مع ما ذكره ابن حزم في جمهرته للأنساب(٨٧) من أن الخليفة المستعين بالله قد انقرض عقبه. فالمقصود هنا – فيما يبدو لنا – هو أن عقبه الذكور قد انقرض بمقتل ابنه محمد الذي عرَّفنا به ابن حزم في جمهرته – أيضاً(٨٨) – وإن لم يسم لنا أمّه، وبالتالي لا ندري هل هي مشنف والدة أخته حبيبة أم لا؟ – أقول نعم لا تعارض بين الخبرين.

وأما الخليفة الأموي الثالث من خلفاء الفتنة، وهو عبدالرحمن بن هشام بن

عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، وقد تلقَّب بـ: المستظهر كما سلف القول، فنجد أن أم ولد تدعى غاية(٨٩) ومع أننا نعلم أن الخليفة المستظهر قد خطب ابنة عمه: حبيبة بنت الخليفة المستعين بالله(٩٠) إلا أننا لا ندري هل تمَّ زواجه بها أم أن الأحداث المتسارعة لم تمهله كما يتضح من تتبُّع الأحداث، فلقد قُتل ولم يُمض في الخلافة سوى أقل من شهرين، قُتل وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ولم يعقب(٩١).

وأما رابع خلفاء الفتنة الأمويين، وهو محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن عبدالرحمن الناصر، وقد تلقَّب بـ: المستكفي بالله، فنجد أن أمه أم ولد تدعى: حوراء(٩٢) ولعل من محاسن الأخبار أننا مع الخليفة المستكفي بالله نجد ذكراً لزوجة له تدعى بنت سكرى المورورية(٩٣) ولقد قدَّمها لنا ابن عذاري تحت اسم المروزية(٩٤) وفيما يتعلق بوجود عقب له، فإن معظم المصادر تؤكد لنا انتساب الأديبة الأندلسية المشهورة ولادة إليه(٩٥) وسنقف عند حديثنا عن بنات أمراء بني أمية وخلفائهم وأخواتهم وقفة متأنية حول ما ذكر من تشكيك في انتساب ولادة إليه من جهة، وعدم وجود عقب له من جهة أخرى.

أما آخر خلفاء الفتنة، وهو الخليفة الخامس في سلسلة هؤلاء الخلفاء، أعني الخليفة هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر، وقد تلقَّب بـ: المعتد بالله، فأمه أم ولد تدعى: عاتب(٩٦) ولا نعرف ما إذا كان ثمة زوجة أو زوجات له أم لا؟، وكل الذي نعرفه أنه مات ولم يعقب(٩٧).

هل كان لأمراء بني أمية وخلفائهم سرار(٩٨) غير أمهات الأولاد؟

ونحن نختم حديث أعلام سيدات البلاط الأموي من الزوجات في الفترة الزمنية المحددة في بحثنا، مع ما استوقفنا من أن معظمهن إماء أمهات أولاد، لا يمكن لنا أن نغفل الحديث عن جانب أُسري آخر لأمراء بني أمية وخلفائهم في الأندلس. ذلك هو أننا مع معرفتنا بأسماء كثيرات من سيدات البلاط الأموي من حرائر وإماء أمهات أولاد لا نشك أبداً في أن ثمة جواري متعة(٩٩) (سراري) كان يجيش بهن بلاط الأمراء والخلفاء. فإذا كانت الشريعة قد أباحت التسري ووطء الإماء لقول الحق عز

وجل ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾(١٠٠) وإذا كان المناخ العام السائد في الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً آنذاك يتعامل مع التسري بملك اليمين بوصفه أمراً مباحاً، ومن ثمَّ غدا أمراً شائعاً مألوفاً في الوسط الاجتماعي الإسلامي، فكيف به في البلاطات الملكية التي تتوافر فيها كل موجبات التمتع بالسراري: الثراء، والسلطان، وتقبل الوسط النسائي في البلاط الأموي لذلك باعتباره جزءاً من الوسط النسائي للمجتمعات الإسلامية(١٠١).

إذن فنحن لا نشك أبداً في وجود أعداد ضخمة من السريات اللائي لا أولاد لهن في قصور أمراء بني أمية وخلفائهم غير الإماء أمهات الأولاد اللائي أشارت إليهن المصادر حسبما أوردنا من قبل. ولعل حالة تلك الجارية التي ذكرناها ونحن نتحدث عن جواري الخليفة عبدالرحمن الناصر واحدة من الحالات التي تؤكد على وجود سريات للأمراء والخلفاء لم يكن لهن أولاد. نعم نحن نبني موقفنا هذا على الظن وعلى أن مقتضيات الأوضاع في المجتمع الإسلامي وقتذاك تسوِّغ الخروج بذلك الظن. نعم نبنيه على الظن، أما المصادر فلم ترشدنا في حقيقة الأمر لذلك. ولا يعني هذا أن ذلك لم يكن حادثاً واقعاً في البلاط الأموي، أي أن كون المصادر لم ترشدنا إلى وجود السريات في البلاط الأموي لا يعني عدم وجود ذلك بالفعل. فكم من أمور وقضايا غابت عنا، ثم إن المصادر إذا كانت قد شحَّت علينا بعدم ذكر أمهات أولاد العديد من الأمراء والخلفاء الأمويين الذين عرفوا بكثرة الأولاد – من غير اللائي ذكرناهنَّ – فإن من الطبيعي أن نتوقع حدوث هذا هنا في موضوع السريات المتخذات أصلاً للمتعة. ونعود فنؤكد هنا أن الأمير عبدالرحمن الأوسط التي اشتهر بالميل إلى النساء كان له ١٥٠ ولداً في حد الرواية الأعلى أو ١٠٠ في حدها الأدنى، ومع ذلك لم يتسن لنا سوى معرفة بضع نسوة له. واحتشاد قصور الحكام في مشرق الدولة الإسلامية ومغربها بالإماء والسريات أمر يعبر عن طبيعة العصر، بل يمكن القول إنه ليست قصور الحكام هي التي عرفت ذلك فقط وإنما قصور كبار المسؤولين

ببلاطاتهم، بل لعل المقتدرين في المجتمع الإسلامي بعامة كانوا يفعلون ذلك ما دام الشرع يجيزه من جهة، ووجود المقدرة المالية من جهة أخرى[١٠٢] ومن هنا فلا يمكن لنا أن نستغرب وجود الإماء والسريات في قصور أمراء بني أمية وخلفائهم في الأندلس، ولا سيما أن بعضهم اشتهر بولعه بالنساء كالأمير عبدالرحمن الأوسط حسبما ذكرنا وابنه الأمير محمد إلى حد ما.

هل شكَّل كون أمهات الأمراء والخلفاء الأمويين من عنصر واحد ظاهرة؟

أما الإجابة فنعم. فلقد جاء حديثنا عن أعلام سيدات القصور الأموية من الإماء أمهات الأمراء والخلفاء اللائي شكلن بوضعيتهن الشرعية والاجتماعية ظاهرة رصدناها ووقفنا عندها، مذكِّرين أن أمهات كل الأمراء والخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم في عصري الإمارة والخلافة في الدولة الأموية بالأندلس إنما هنَّ أمهات أولاد، وكذا معظم أولادهن. أقول جاء حديثنا سابق الذكر ليؤكد ذلك. وبجانب هذه الظاهرة، ثمة ظاهرة ثانية وتتمثل في أن جميع أمهات الأمراء والخلفاء أولئك، وكذا أمهات معظم أولادهم، هن إماء أسبانيات، ولا نستثني منهن سوى الأمير الأول المؤسس الذي كانت أمه جارية بربرية من قبيلة نفزة[١٠٣] تدعى (راح) كما سلف أن ذكرنا في صدر هذا المبحث الأول من الفصل الأول. فالحقيقة أن الأمراء والخلفاء الأمويين بالأندلس تخيَّروا جواريهم اللائي اتخذوهم جواري لذة ومتعة من أقاليم أسبانية ك: البشنكنش أو الباسك[١٠٤] أو جليقية[١٠٥] وهذا في الأغلب، وقد يتعدى ذلك إلى خارج أسبانيا كإقليم غاليسيا في فرنسا[١٠٦] ولا ندري ما سبب هذا الحرص، هل هو بسبب ميل ذاتي لما عرف عن الجواري الأسبانيات والأوروبيات عموماً من صفات جسمانية تجذب الأنظار لهن كبياض البشرة وشقرة الشعر وتلوُّن العيون؟ ربما يكون هذا ميلاً شخصياً، ولربما يكون الأمر ذا بعد سياسي القصد منه تكريس معاني التسامح التي تميَّز بها المجتمع الأندلسي بخاصة الذي تشكله عناصر إثنية «عرقية» مختلفة، ومع ذلك كان مجتمعاً متجانساً من الناحية الاجتماعية، ثم لا ننسى ازدهار سوق الرقيق في الأندلس بما يجيش به من جوارٍ كُنَّ يجلبن من كافة

أنحاء أسبانيا وغربي أوروبا. وأخيراً ثمة دور مهم في هذا الصدد للغزوات التي كان يقوم بها أمراء بني أمية وخلفاؤهم لا بل وقوادهم نحو الممالك الأسبانية النصرانية، وما كانت تفرزه تلك الغزوات من حمل السبايا الأسبانيات وبيعهن في سوق الرقيق حتى لقد ذكرت مصادرنا الإسلامية أن هذا السوق قد عرف تكاثر الجواري الفرنجيات والصقلبيات(١٠٧) كثرة واضحة في عهد المنصور بن أبي عامر، حتى رخصت فيه أسعارهن رخصا يتيح للفرد العادي أن يشتري في حدود إمكاناته المالية ما يريد من أولئك الجواري(١٠٨) ولقد استوقف المستشرقين ميل الأمراء والخلفاء الأمويين للجواري الأوروبيات بما هن عليه من الصفات الجسمانية التي حبّبتهن لهم، وذهبوا في تفسيرات هذا الأمر مذاهب شتى لا يعنينا الوقوف عندها هنا(١٠٩).

وكما استوقف المستشرقين ميلُ أمراء بني أمية وخلفائهم في الأندلس إلى الجواري الأوروبيات واتخاذهن أمهات أولاد لهم، فقد استوقفهم واستوقف الباحثين العرب المحدثين(١١٠) حرص هؤلاء الأمراء والخلفاء على إطلاق أسماء عربية ذات معانٍ لغوية عذبة لجواريهن. وقد مر بنا ذكر العديد من الجواري أولئك اللائي حملن هذه الأسماء العربية، مثل: (حُلل، جمال، حوراء، زُخرف، حلاوة، عجب، طروب، فجر، غزلان، فُلة، مدثرة، أثل، فينان، دُر، ملك، فتيان، مُزنة، مرجانة، الزهراء، مُشتاق، صُبح، مُشنف، غاية، عاتب... إلخ). ولقد مر بنا من قبل أن هذه الأسماء هي غير أسماء الجواري الأسبانيات هؤلاء الأصلية التي عرفن بها في المدونات الأسبانية والغربية عموماً. وفي ذات السياق نذكر بما قلناه من قبل عن در جدة الخليفة عبدالرحمن الناصر لأبيه، وأن اسمها في المدونات تلك: ونقة، وكذا مزنة والدة الخليفة عبدالرحمن الناصر نفسه التي عرفت في تلك المصادر بـ: ماريا. وترى باحثة عربية محدثة(١١١) أن أولئك الجواري الأسبانيات أمهات الأولاد قد اتخذن الأسماء العربية تلك من تلقاء أنفسهن. ولعلنا لا نميل إلى ذلك. فسادتهن في ظني هم الذين يطلقون تلك الأسماء على جواريهم، وكذا الألقاب التي يضفونها عليهن. وقد مرَّ بنا من قبل تلقيب الخليفة الحكم المستنصر لجاريته: صُبح بـ: جعفر، الاسم الذي يعني النهر.

وما ذاك إلا للثقافة العالية التي كان عليها الأمراء والخلفاء والتي يشيعونها في قصورهم حتى في الجانب الأُسري هذا.

وقد شكَّلت الظاهرة الثانية هذه، أي كون كل أمهات أمراء بني أمية وخلفائهم إماء أسبانيات أو فرنجيات ما عدا أم الأمير المؤسس، التي هي جارية بربرية، أقول شكلت هذه الظاهرة ظاهرة ثالثة، وهي اكتساب الأكثرية الساحقة من هؤلاء الأمراء والخلفاء الحكام – وهو مدار الحديث ومناطه – لبضع صفات أمهاتهم الجسمانية نزوعاً إلى العرق الآري[١١٢]، وقد نصَّ ابن حزم الأديب المؤرخ الفقيه إلى هذا في كتابه: طوق الحمامة، فقال – وقد استوقفته هذه الظاهرة –: (وأما جماعة خلفاء بني مروان – رحمهم الله – ولا سيما ولد الناصر – يعني الخليفة عبدالرحمن الناصر، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة، ولا يختلف في ذلك منهم مختلف، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر نزاعاً إلى أمهاتهم، حتى لقد صار فيهم ذلك خلقة)[١١٣].

المبحث الثاني
حرائر الأمراء والخلفاء

عرفنا من قبل في حديثنا عن أعلام أمهات الأمراء والخلفاء الأمويين وأولادهم أن أكثريتهن الساحقة كن إماء أمهات أولاد. وهذا يعني أن ثمة ندرة في وجود حرائر[١١٤] في القصور الأموية، لميل الأمراء والخلفاء إلى اتخاذ الإماء والسراري زوجات لهم، وهو الأمر الذي شكل ظاهرة طبعت الوضع الأسري لهؤلاء الأمراء والخلفاء، عرفناها وحللناها من قبل. ولعل من المناسب قبل التحدث عن أعلام حرائر الأمراء والخلفاء الأمويين وسيرهن أن نقف عند ثلاث نقاط تبدَّت لنا وفرضهن السياق الموضوعي:

- **النقطة الأولى:** مناقشة وضع المرأة الحرة في المجتمع الأندلسي مقارنة بـ: الأَمَة أو الجارية.
- **النقطة الثانية:** مناقشة مسألة امتلاء قصور الأمراء والخلفاء بالخدم من الجنسين.
- **النقطة الثالثة:** توافر بواعث النفوذ النسوي في البلاط الأموي، وما يلحق به – تأسيساً على ذلك – من توافر مناخ المكائد والدسائس بين المتنفذات في القصور الأموية، ويستوي في ذلك: الحرائر والإماء؛ نزوعاً إلى اشتمال (الجبلة النسوية الضعيفة على الرمي بالكيد والمكر) حسبما ذاع وشاع من (مغالاة وجور وتحيف وتعصب على المرأة)[١١٥].

ولنبدأ الحديث عن **النقطة الأولى** بالقول: إنه ومع قلة وجود معلومات مؤكدة لدينا عن وجود حرائر كن في عصمة الأمراء والخلفاء الأمويين لا يمكننا أن نهمل الجو العام الذي كان سائداً في المجتمع الأندلسي في نظرته للحرة. وفي الحق إننا إذا كنا لا نذهب إلى تأييد مبالغات بعض من الباحثين المحدثين من عرب وأجانب في تصوير حياة الحرة في المجتمع الأندلسي، وإظهارها بمظهر تبدو فيه مقيدة الحرية، سلبية الإرادة، إلا أننا في المقابل لا نستبعد أنها كانت محكومة بحكم طبيعتها بالتزام سلوك مُحافظي – أمام حالات التحرر، وربما التفلت – التي كانت تحياها الأمة أو الجارية. نعم لم يعرف البلاط الأموي في الأندلس كثرة وجود الحرائر، ولكننا نرى أن

ما كان معروفاً في المجتمع الأندلسي من نظرة للحرة لا يمكن لنا أن نغفله هنا؛ حيث العنوان العام هو: حياة محافظة تتمسك فيها الحرة بأهداف القيم والتقاليد، وتبتعد عن تبذلات التفلت والتحرر في القول والعمل(١١٦).

النقطة الثانية: أن الدولة الأموية الأندلسية وقد استغلظ عودها على كرِّ الأيام والسنين واستبحر عمرانها، واستعظمت بحبوحتها الاقتصادية في عهود أمراء هذه الدولة وخلفائها(١١٧)، ورغب أمراؤها وخلفاؤها في التَّأسي ببلاط خصومهم العباسيين في المشرق، كان من الطبيعي أن تظهر آثار ذلك – على الأقل فيما يتصل بموضوع بحثنا – في حشد أعداد جمَّة من الخدم والحشم من الجنسين في ذلك البلاط. إزاء هذا لا يعد أمراً مستغرباً أن يكون في قصر الخليفة الأموي الأول مثلاً أكثر من (١٠٠٠٠) غلام وجارية من مختلف الجنسيات، عدد النساء منهم ٦٧٠٠ امرأة(١١٨).

تأسيساً على هذا يمكننا إذن أن نوطِّن النفس على وجود مظاهر أو آثار **للنقطة الثالثة** التي تداخلنا بها قبيل الحديث عن أعلام حرائر الأمراء والخلفاء وسيرهن، أعني حتمية حدوث صراع بين المتنفذات في البلاط الأموي من الحرائر والجواري.

والآن وبعد أن مهدنا لحديث حرائر الأمراء والخلفاء الأمويين بالتمهيد السابق، يقتضي السياق الحديث عن أعلام الحرائر أولئك. بالطبع نقف ابتداء عند أول أمير من أمراء دولة بني أمية في الأندلس؛ الأمير المؤسس عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك بن مروان. مقلبين صفحات المصادر بحثاً عن حرائر كُنَّ في عصمته، وهو هدف أول من أهداف بحثنا، ثم لنبحث عن آثار نفود لهن على الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية كهدف ثان نُعنَى به لاحقاً. نقلب صفحات المصادر بحثاً عن ذكر سيرة حرائر كُنَّ في عصمة الأمير الأول الأموي عبدالرحمن الداخل إبان إمارته الممتدة من سنوات ١٣٨–١٧٢هـ، فلا نجد ما يسعفنا بذلك. نعم نستدرك فنقول إن المصادر أشارت إلى حرَّة كانت في عصمة الأمير عبدالرحمن الداخل قبل أن يدخل الأندلس، هي أم ابنه الأكبر: سليمان المكنَّى بـ: أبي أيوب التي اكتفت المصادر

عينها بالقول إنها لخمية[١١٩] من ولد حاطب بن أبي بلتعة[١٢٠] ولم تسمِّها لنا[١٢١]. والمصادر إذ تسرد لنا هذا، فإنها تسكت عن أخبار هذه الحرة؛ فلا نعلم هل ماتت قبل أن يدخل زوجها عبدالرحمن الأندلس أم أنه طلقها؟ لا نعلم ولكن الذي نحن على ثقة منه أنه لم يكن لها ذكر في حياته في المشرق، فضلاً عن دور ما لها في إمارته الأندلسية. وثمَّة خبر يرويه صاحب أخبار مجموعة مفاده أن عبدالرحمن بن معاوية لمَّا حاصرته قوات العباسيين فهرب منهم[١٢٢]؛ أوصى أن يُتبع بولده أبي أيوب[١٢٣] وهو سليمان ابن هذه الحُرَّة، ممَّا يعني أنه لم يكن يربطه بهذه السيدة رابطة زوجية وقتها، فلربما ماتت كما قلنا قبل قليل أو ربما طلَّقها وإلا فالمعقول أن يوصي الأمير عبدالرحمن بأن تُلحق به كما أوصى بشأن ابنه سليمان، وكما أوصى بشأن أختيه: أم الأصبغ وأمة الرحمن كما قال صاحب الأخبار المجموعة أيضاً[١٢٤] وهو ما سنقف عنده في موضعه بعد إن شاء الله.

يبقى أن نشير في سياق حديثنا عن الأمير عبدالرحمن الداخل إلى قضيتين تتصلان به: القضية الأولى تتمثَّل في أن آخر والٍ للأندلس قبل مجيئه سنة ١٣٨هـ: يوسف بن عبدالرحمن الفهري سعى في إطار احتواء حركة عبدالرحمن الذي دخل الأندلس وشرع أشياعه يعملون على توطئة الأمر له، إلى أن يعرض على عبدالرحمن أن يصهر إليه، أي يزوجه ابنته مقابل أن يتخلى عن الدعوة لنفسه، وأرفق عرضه بهدية مادية وعينية إلا أن عبدالرحمن قَبِلَ الهدية واعتذر عن التزوُّج من ابنة يوسف الفهري، ومضى في سبيل تحقيق مشروعه الهادف إلى إحياء الدولة الأموية في الأندلس[١٢٥].

والقضية الثانية تتمثَّل في أنه لا عبرة ولا التفاتة إلى ما ورد في كتاب صقرقريش لكرم ملحم كرم، عندما مزج المؤلف القصة بالتاريخ في روايته هذه التي يقول فيها: إن عبدالرحمن الداخل لمَّا دخل الأندلس كانت معه ابنة عمه زينب بنت سليمان بن هشام بن عبدالملك بن مروان، وأنه قد تزوجها في الأندلس في إطار سردية أدبية شائقة ماتعة كان للخيال الأدبي بعد واسع فيها. نقول: لا عبرة ولا التفاتة لما

جاء في هذه الرواية الأدبية. وإلا فإننا لم نجد في المصادر المشرقية – بل ولا المصادر المغربية والأندلسية – ما يؤكد هذه المعلومة. ولقد عدتُ إلى ترجمة سليمان بن هشام في كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم فلم أجد ذكراً لزينب هذه، كما عدت إلى المصادر نفسها فلم أجد ذكراً لميمونة بنت عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس التي كانت – بحسب الرواية – هي وزينب تتنازعان أيهما تظفر بعبدالرحمن. ونميل إلى ما يشبه التوكيد أن شخصية زينب لا بل وشخصية ميمونة الهاشمية كانتا شخصيتين وهميتين اخترعهما كرم ملحم كرم لغرض الجانب الروائي في قصته، وهذا موضوع آخر لا صلة لنا به[١٢٦].

وإذ ينتهي حديث حرائر الأمير عبدالرحمن الداخل بالتأكيد على أننا لم نظفر سوى بذكر حرة واحدة له، نجد الأمرنفسه يتكرر فيما يخص ابنه هشاماً إذ أوردت لنا المصادر ذكراً لعقيلة حُرَّة قرشية أموية كانت في عصمته، هي الأميرة كنزة بنت الأمير عبدالملك بن عمر بن مروان بن الحكم الذي جاء إلى الأندلس بعد أن نجح الأمير عبدالرحمن الداخل في تأسيس الدولة الأموية بها، ولقد أبدى الأمير عبدالملك بن عمر ابن مروان وأبناؤه للأمير عبدالرحمن الداخل كل ضروب الإخلاص والتفاني والحب. وبادله الأمير الداخل حباً بحب، وأسبغ عليه وعلى أبنائه مكانة ونفوذاً كبيرين علاوة على الإصهار إليه بتزويج ابنه الأمير هشام من كنزة بنت عبدالملك هذا[١٢٧] أما الأمير الثالث، أعني الأمير الحكم بن هشام فإننا لم نجد ذكراً لعقيلة حرة كانت في عصمته، والأمر نفسه يقال عن الأمير الرابع عبدالرحمن بن الحكم. أما الأمير الخامس محمد بن عبدالرحمن فقد أرشدنا ابن حزم الأندلسي مؤرخ الأندلس الكبير صاحب كتاب: جمهرة أنساب العرب، إلى أن الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم تزوج من ابنة عمه «لحا» وتدعى أم سلمة، ولا ندري هل تزوج الأمير محمد بن عبدالرحمن من ابنة عمه أم سلمة بنت محمد بن الحكم قبل أن يلي الإمارة أم بعد أن وليها؟ لا ندري ولكننا ندين لابن حزم الذي دلنا على هذا الخبر[١٢٨] ونعود إلى ذكر تسلسل أمراء بني أمية في الأندلس في عصر الإمارة الأموية فلا نجد ذكراً لحرائر كنّ بعصمة الأميرين: المنذر بن محمد وهو الأمير السادس، وعبدالله بن محمد وهو الأمير السابع.

أما عن حرائر الخلفاء الأمويين فإن الظاهرة التي استوقفتنا في عصر الإمارة المتمثلة في أننا لم نجد ذكراً لحرائر أمراء ذلك العصر حاشا الحرة اللخمية أم الأمير سليمان بن عبدالرحمن الداخل؛ الابن الأكبر للأمير عبدالرحمن، ثم الحرة القرشية الأموية كنزة بنت عبدالملك بن مروان زوج الأمير هشام، وكذا الحرة القرشية الأموية أم سلمة بنت محمد بن الحكم زوج الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم، تتكرر هنا، فلا نجد ذكراً لحرائر كنّ بعصمة خلفاء الدولة الأموية في عصر الخلافة حاشا حرة واحدة في الذؤابة من الشرف والمحتد؛ كانت عقيلة لأول خلفاء بني أمية وأعظمهم طرا كما سنفصل القول فيه.

وعلى أية حال، يقتضي الأمر التذكير بما سبق أن قلناه في التمهيد؛ أي النبذة التاريخية عن أمراء الدولة الأموية وخلفائها، وكيفية اعتلاء الأمير عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن على عرش جده أميراً في عام ٣٠٠هـ، وكيف قام بعد ذلك في سنة ٣١٦هـ تحديداً بالتسمي بالخلافة، وتحولت الإمارة الأموية من ثمَّ إلى خلافة؛ الأمر الذي يقتضي النظر إلى عهده وسنوات حكمه من حيث صرمه لأكثر من ثلثي سني حكمه الممتدة من سنة ٣٠٠–٣٥٠هـ فيما لم تزد فترة حكمه أميراً عن ١٦ عاماً على أنه خليفة. نقول هذا لكي لا تكون معالجتنا لموضوع البحث: عنواناً ومباحث ونقاط متفرعة عن المباحث الرئيسة، معالجة موضوعية محكومة بهذا التحليل، ومن ثمَّ ينظر إلى عبدالرحمن الثالث – كما أسلفت – بوصفه أول الخلفاء الأمويين، ويندرج الحديث في كل ثنايا البحث وفق هذا التحليل.

ذكرنا قبل قليل أن ثمة عقيلة حُرَّة للخليفة عبدالرحمن الناصر هي في الذؤابة من الشرف والمحتد، فلقد دلَّتنا المصادر أن عبدالرحمن الناصر كانت في عصمته الأميرة فاطمة بنت المنذر بن محمد بن عبدالرحمن(١٢٩) وهي بهذا ابنة عم أبيه، وكانت أثيرة حظية عنده حتى حدث حادث أفقدها دالَّتها عنده، وهي بهذا ابنة عم أبيه، وكانت أثيرة حظية عنده حتى حدث حادث أفقدها دالَّتها عنده، وسنتحدث عن هذا في موضعه بعد إن شاء الله. ولقد قدَّمتها لنا المصادر على أنها السيدة ابنة

عمه[١٣٠] وكذا السيدة الحُرَّة ابنة عمه[١٣١] وقد أنجبت الأميرة فاطمة بنت المنذر ولداً ذكراً من الخليفة عبدالرحمن؛ هو الأمير المنذر، ويعرف بـ: ابن القرشية[١٣٢].

وفيما عدا الخليفة عبدالرحمن الناصر لا نجد في تقليبنا للمصادر التي تحدثت عن خلفاء الدولة الأموية بالأندلس ما يفيدنا عن وجود حرائر كنَّ في عصمتهم. وإذا ما تركنا الحرة اللخمية زوجة الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل، والأميرة كنزة بنت عبدالملك المرواني زوجة الأمير هشام الرضا بن عبدالرحمن، والأميرة أم سلمة بنت محمد بن الحكم زوجة الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم، حيث لا نملك معلومات عن سيرهن، فإن للأميرة فاطمة بنت المنذر حديثاً عندنا يأتي متوافقاً مع معطيات النقطة الثالثة التي تداخلنا بها في التوطئة لحديث حرائر الأمراء والخلفاء هذا.

في البدء يعود الفضل لابن حيان[١٣٣] الذي حدَّد لنا في كتابه المهم جداً: المقتبس – وعنه ينقل الناقلون – ملامح السيرة والمكانة التي كانت لهذه العقيلة الحرة في قلب زوجها الخليفة عبدالرحمن الناصر ودولته، ثم ما لبثت أن ذبلت وبادت وانضوت تماماً. لنقف مع ابن حيان وهو يقول: إنها هي:

- (الفَذَّة في نسائه – السيدة الشريفة/ السيدة الكريمة).
- (المجتباة – لقرابتها – الممتَّعة بالحظوة عنده والكَلف بها).
- (المعجبة بنفسها والمزدهية بشرفها).
- الواثقة بابن عمها – أي الخليفة الناصر – المتعاظمة بأبيها).
- (السرية[١٣٤] في النساء).
- (المُدلَّة في نسائه، وهو الذي تزوجها بقصر الخلافة[١٣٥]).
- (المنعَّمة بعطف عمها الأمير عبدالله بن محمد الذي كفلها بعد وفاة أخيه الأمير المنذر، وأسكنها معه، وأحسن إليها).
- (المحظية عنده – أي الخليفة الناصر – الذي نكحها بعد أن صار الأمر إليه، وأولدها ابنه أبا الحكم المنذر المعروف بـ: ابن القرشية هو ونسله).
- (الكريمة في عقائل بني أمية وأسراهم).

بيد أننا ومع هذه المكانة للأميرة فاطمة بنت المنذر في فؤاد زوجها الأمير فالخليفة عبدالرحمن الناصر، لا نلبث أن نراها ضحية للنقطة الثالثة التي سطرناها من قبل عن توافر مناخ المكائد والدسائس بين المتنفذات في القصور الأموية، وهو أمر صدقته الأيام وكرَّسته الأحداث، والحق أن القصور الأموية بالأندلس ليست بدعاً في ذلك، وإنما كان ذلك واقعاً قائماً في قصور الخلافة في المشرق، وتعرفه قصور الحكام عادة[١٣٦]، فطبيعة وجود ذلك الحشد من النساء، وطبيعة تكوين المرأة في الاستحواذ على قلب رجلها الحاكم، وعوامل الغيرة المتأصلة في نفس المرأة، كلها تؤكد حتمية وجود ذلك المناخ.

وها نحن أولاء الآن أمام حالة واقعية. فهذه الأميرة فاطمة بنت المنذر، وهي من هي حظوةً وغلبةً وتمكناً من قلب زوجها الخليفة كما قلنا من قبل، تفقد هذا كله جراء دسيسة حاكتها لها ضُرَّة من ضرائرها هي السيدة مرجان أو مرجانة والدة الأمير الحكم بن عبدالرحمن الناصر أكبر أولاد الخليفة المرشح للخلافة من بعده. وكم هو رائع مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان[١٣٧] وهو يسرد لنا بأسلوب شائق تفاصيل المكيدة التي حاكتها الجارية مرجانة لضرتها الأميرة فاطمة عندما ابتاعت منها ليلتها التي خصَّصها لها الخليفة بطلب منه بمبلغ من المال. وحدث ذلك البيع بحضور سيدات القصر الخلافي من كرائم الخليفة وأمهات أولاده. وبدأت المكيدة بشيء من التفكُّه والمزاح، ثم ما عتم أن استحال إلى موقف جدي تسلمت الأميرة فاطمة خلاله المبلغ المتفق عليه عدًّا ونقداً من ضرتها – مقدرةً – أي الأميرة فاطمة أن فعلها هذا يدخل في إطار التفكُّه والمزاح، ومن هنا استخفت بما فعلت ظناً منها أن يجري ذلك عند زوجها الخليفة ابن عمها (مجرى أعباث النساء المضحكة) ولم تكن تدري أنها بفعلها ذلك قد سقطت من عين زوجها الذي رأى فيه انتقاصاً لكرامته، وعبَّر عن ذلك بقوله لجاريته مرجانة التي ابتاعت الليلة: (وَريت بك زنادي يا مرجان، فأبشري ثم أبشري، ربحت تجارتك وزكت صفقتك، ودللت على شرف نفسك وصدق مودتك، وتبت يدا ابنة عمي التي جهلت حقي وباعتني بالثمن الخسيس، زهداً فيَّ، والحق أولى بي فيك فاقتاديني إلى قصرك، فإني طوع يمينك وحبيس هواك).

هذا ملخص القضية، أما النتيجة فقد وضحت بـ: اتضاع[١٣٨] منزلة الأميرة فاطمة لدى الخليفة التي لم (تَسْتَقِل عَثْرتها لديه آخِرَ حياتها، وأقسم ألا يدخل إليها، وخيَّرها في المقام عند الأرجاء والاعتزال مستمسكة بعصمته أو تسريحها، فاختارت المُقام لديه إلى أن هلكت في حياته، تلو مرجان، لا سماء بكت عليها ولا أرض، وفازت ضُرتها مرجان بالفضل دونها)[١٣٩]، وما أروع ابن حيان[١٤٠] – أيضاً – يقول وقد ركَّزَ على أنها – أي الأميرة فاطمة – كانت من أكرم عقائل بني أمية وأسراهم (إلا فيما لا تسلم النساء فيه من ضعف الرأي وغِلَظ الحِجاب)[١٤١].

المبحث الثالث
بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم

مع أن مؤرخينا القدامى قد استقصوا أخبار الأمير الأموي: عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك مذ كان شاباً يافعاً يدرج في بلاط خلافة آبائه المشرقية حتى تأسيسه لدولة عريضة في الأندلس له ولذريته من بعده، فإنهم لم يتوسعوا كثيراً في ذكر الجانب الأسري له. نعم لقد رصدوا لنا معلومات على غاية من الأهمية عن علاقته بآل بيته: أبناء[١٤٢] وإخوة[١٤٣] وأبناء إخوة[١٤٤] وأبناء عمومة[١٤٥] إلا أنهم في جانب تبيان حقائق العلاقة مع إناثه وإناث آل بيته قد ضنوا علينا بذكر تلك الحقائق. ولكن – ومع أن الحال كذلك – فإن وطابنا لم تخل من معلومات مهمة – على قلتها – في هذا الصدد. مر بنا من قبل أنه كان للأمير المؤسس: عبدالرحمن الداخل تسع بنات، ظفرنا فقط باسم واحدة منهن؛ هي الأميرة عائشة، أمها جارية اشتريت للأمير إبان دخوله الأندلس ونزاعه مع آخر ولاتها: يوسف الفهري[١٤٦]. نعم وثمة ابنة ثانية للأمير عبدالرحمن ذكرها محمد بن الحارث الخشني في كتابه: قضاة قرطبة[١٤٧] في إطار ترجمته لقاض من قضاة الأندلس؛ هو القاضي المصعب ابن عمران الهمداني، حيث أشار محمد بن الحارث الخشني إلى ذكر ابنة للأمير عبدالرحمن الداخل وإن لم يورد اسمها كانت قد ولدت بالشام ثم لحقت بأبيها في الأندلس وعاشت بها حتى ماتت وإن كنا لا ندري متى حدث ذلك؟ أقول حتى ماتت ودفنت بمقبرة تدعى مقبرة الربض بقرطبة[١٤٨]، نعم وثمة ابنة ثالثة للأمير عبدالرحمن ذكرها ابن الفرضي في كتابه: تاريخ علماء الأندلس[١٤٩] في إطار ترجمته لعالم قاض من علماء الأندلس؛ هو عمرو بن عبدالله بن لبيب المعروف بالقبعة، حيث أشار ابن الفرضي إلى أن هذا العالم كان مولى لإحدى بنات الأمير عبدالرحمن بن معاوية وإن كنا لم نتعرف اسمها ولا ذكر شيء من سيرتها، وإذا كانت المصادر قد شحت بذكر أسماء بقية بنات الأمير المؤسس الأخريات – عدا من ذكرنا – فإنها

شحت أيضاً بذكر أسماء أمهاتهن، ولا ندري هل هؤلاء البنات التسع اللائي خلَّفهن الأمير المؤسس عبدالرحمن هن شقيقات لواحد أو أكثر من أولاد الأمير عبدالرحمن الذكور البالغ عددهم أحد عشر ولداً ذكراً أم لا؟ هذا مع أننا لم نظفر – حسبما مر بنا سابقاً سوى بذكر والدتي الأميرين: سليمان وهشام حيث عرفنا وقتها أن أم الأول كانت عقيلة حرة والثانية كانت أم ولد. أما أخوات الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل فقد دلتنا المصادر إلى وجود ثلاث أخوات له هن: أم الأصبغ، والثانية تدعى: أمة الرحمن بنت معاوية(١٥٠) والثالثة هي: أم العباس بنت معاوية(١٥١) وفيما يتصل بالأمير الأموي الثاني؛ الأمير هشام بن عبدالرحمن الذي خلَّف كما ذكرنا من قبل ست بنات فإننا لا نجد ذكراً لأسمائهن فضلاً عن عدم معرفتنا بأمهاتهن، ولا ندري هل هؤلاء البنات الست شقيقات لواحد أو أكثر من أبناء الأمير هشام الرضا بما فيهم ولي العهد الأمير الحكم أم لا هذا مع علمنا باسم أم الأمير الحكم وأنها تدعى زخرف. كما أن المصادر قد بخلت علينا بالإشارة إلى علاقة الأمير هشام ببناته الست وأخواته التسع بنات الأمير عبدالرحمن الداخل. أما الأمير الأموي الثالث الأمير الحكم ابن هشام الذي خلَّف إحدى وعشرين بنتاً، فلا نجد أحداً من المؤرخين قد احتفى بذكرهن اللهم إلا ما ذكره محمد بن الحارث الخشني في كتابه: قضاة قرطبة سالف الذكر في إطار ترجمة القاضي المصعب بن عمران – أيضاً – من الإشارة إلى ابنة للأمير الحكم تدعى: ككوية. وقد أطلق الأمير هذا الاسم الذي لا يعرف معناه(١٥٢) على ابنته إعجاباً باسم ابنة قاضيه الأثير: المصعب بن عمران التي كانت تحمل الاسم نفسه(١٥٣) ولعل الإشكالية التي واجهتنا في حديثنا عن أمهات بنات الأميرين عبدالرحمن الداخل وهشام الرضا، تتجدد هنا فلا نعلم شيئاً عن أمهات بنات الأمير الحكم اللائي بلغن – كما سلف القول – إحدى وعشرين بنتاً. ونتساءل هنا – أيضاً – هل هؤلاء البنات كن شقيقات لواحد أو أكثر من أولاد الأمير الحكم الذكور البالغ

عددهم تسعة عشر ولداً ذكراً بما فيهم ولي عهده الأمير عبدالرحمن أم لا؟ علماً بأننا قد عرفنا اسم أم الأمير عبدالرحمن من قبل وأنها تدعى حلاوة. أما عن علاقة الأمير الحكم بأخواته الست اللاتي ذكرناهن قبل قليل فإننا لم نتعرفهن، إلا أن ثمَّة خبراً أوردته المصادر عن إحداهن، ويتمثل ذلك في أنه في إطار الصراع على الإمارة الذي نشب بين أبناء الأمير عبدالرحمن الداخل الثلاثة: سليمان وهو الابن الأكبر، ثم هشام وهو الثاني الذي آلت إليه الإمارة، وعبدالله الذي عرف بـ: عبدالله البلنسي نسبة إلى مدينة بلنسية الأندلسية(١٥٤) ثم موت هشام بعد فترة حكم قصيرة وتولى ابنه الأمير الحكم مقاليد الإمارة ومنازعة عميه: سليمان وعبدالله البلنسي له، ثم انتهاء الصراع بمقتل سليمان واستسلام الأمير عبدالله وجنوحه للطاعة. أقول إننا وجدنا خبراً لدى المصادر يشير إلى أن الأمير الحكم في إطار سعيه لاحتواء عمه عبدالله البلنسي زوَّج شقيقة من شقيقاته – لا نعرف اسمها – إلى ابن عمه لحَّا: عبيد الله البلنسي الذي اضطلع بدور سياسي وعسكري في دولة ابن عمه الأمير الحكم بن هشام، وكان يلقب بـ: قائد الصوائف(١٥٥) وبالتأكيد فإن هذا الفعل يأتي في إطار الرغبة في جمع كلمة البيت الحاكم.

ونمضي قدماً نحو الأمير الأموي الرابع الأمير عبدالرحمن بن الحكم المعروف بـ: عبدالرحمن الأوسط وعبدالرحمن الثاني، فنجد ثبتاً بأسماء بناته اللائي اختلف في عددهن بين قائل إنهن بلغن: ٥٠ بنتاً، وقائل ثان إنهن بلغن ٤٣، وقائل ثالث لا بل هن ٤٢ بنتاً. أقول نجد ثبتاً مفصلاً بأسمائهن حيث رصد لنا ابن حيان(١٥٦) أسماء هؤلاء البنات، وهن: أسماء، عاتكة، عائشة الغالب عليها عيشونة، أم الأصبغ، أم هشام، فاطمة الغالب عليها فطيمة، عبدة، عبدة (أخرى) أمة العزيز، أم كلثوم، أم عمرة، زينب، أم هشام (أخرى)، عبيدة، ناشدة، قسيمة، عتيكة، كنزة، عزيزة، أم حكيم، ميَّة، ولادة، أم أبين، ولادة (أخرى)، أمة الوهاب، ظبي، أمة الرحيم، رقية، أم عثمان، أم موسى، أمة الرحمن، حسيمة، هشيمة، أمة الرحيم (أخرى)، أمة الملك،

السيدة بوريهة، تملال، المنى، حكيمة، أم سلمة، آمنة، السيدة علية، أمية، مهاة، فهؤلاء يرقى عددهن إلى ٤٥ بنتاً.

على أن ابن عذاري(١٥٧) يورد لنا اسم أميرة جديدة، وهي البهاء بنت عبدالرحمن، وعلى هذا فإن عدد بنات الأمير عبدالرحمن الأوسط يصل إلى ٤٦ بنتاً، ولقد عمَّرت الأميرة البهاء حتى أدركت عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر وماتت في عهده سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م كما يقول ابن عذاري أيضاً، ولم يتسن لنا معرفة أسماء بقية بنات الأمير عبدالرحمن الأوسط اللائي أوصلتهن رواية ابن حزم في جمهرته لأنساب العرب(١٥٨) إلى ٥٠ بنتاً.

ولا ندري هؤلاء البنات الـ: ٥٠ في أقصى تقدير لعددهن شقيقات مَن مِنَ الأُمراء أبناء الأمير عبدالرحمن البالغ عددهم ١٥٠ ابناً في أعلى تقدير لعددهم حسبما عرفنا من قبل. أولئك الأمراء الذين عرفنا بعضهم وعرفنا من ثمَّ أمهاتهم، ولا سيما أم خليفته من بعده الأمير محمد من أن اسمها: تهتز أو تهتر أو بهير. نقول لا ندري شقيقات مَن مِنْ أبناء الأمير عبدالرحمن هؤلاء، وأنهن بالفعل كذلك، أم أنهن أو بعضاً منهن تحديداً هن بنات إماء للأمير عبدالرحمن غير اللائي أشرنا إليهن من قبل، ولم تسعفنا المصادر بذكرهن؟ ولا غرابة في أن يستشكل علينا هذا الأمر؛ فالأمير عبدالرحمن خلَّف من الأولاد عدداً كبيراً جداً لم يسبقه إليه غيره من أسلافه في الأندلس، ولم يلحقه كذلك به غيره من خلفائه من بني أمية في الأندلس.

أما علاقات الأمير عبدالرحمن الأوسط بشقيقاته الـ: ٢١ واللائي لم نعرف سوى اسم واحدة منهن، وهي ككوية حسبما ذكرنا من قبل، فلم ترشدنا المصادر إلى طبيعة هذه العلاقة.

وإذا ما تركنا الأمير الرابع عبدالرحمن الأوسط لنتحدث عن ابنه الأمير محمد ابن عبدالرحمن، وهو الأمير الأموي الخامس في سلسلة أمراء بني أمية فاتنا أن نقول إننا من أسف لم نعثر – مع معرفتنا بعدد بناته، حيث ذكرنا من قبل أن عددهن بلغ

٢١ بنتاً – على ذكر لهن، سوى على خبر واحد من أن ثمة ابنة له تدعى: رقية، توفيت سنة ٣٠٦هـ[١٥٩] ولا ندري شيئاً عن أمهات هؤلاء البنات ومن منهن شقيقة للأمراء أبناء الأمير محمد البالغ عددهم ٣٣ ابناً كما مر بنا سابقاً، ولا نكاد نستثني من أمهات أولاد الأمير محمد بن عبدالرحمن غير المعروفات لنا سوى والدتي الأميرين: المنذر حيث عرفنا من قبل أن أمه تدعى أثل، والأمير عبدالله حيث عرفنا من قبل – كذلك – أنها تدعى عشار. وأخيراً لا ندري شيئاً عن طبيعة العلاقات بين الأمير محمد ابن عبدالرحمن وشقيقاته الكثيرات جداً اللائي بلغن في أقصى تقدير لهن ٥٠ بنتاً كما سلف القول.

وأما الأمير السادس، الأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمن فإننا وقد وجدنا التنصيص على عدد بناته وأنهن بلغن ٨ بنات حسبما ذكرنا من قبل، فإننا في الحقيقة لم نتعرف إلا ابنة واحدة له، هي الأميرة فاطمة التي تزوجها ابن عمها الأمير فالخليفة – فيما بعد – عبدالرحمن بن محمد الملقب بالناصر وفق ما سطرنا من قبل. ولا ندري مَن مِنَ البنات الثمان هؤلاء شقيقة للأمراء أبناء المنذر البالغ عددهم خمسة؟ كما لا ندري شكل أو طبيعة علاقة الأمير المنذر بن محمد مع شقيقاته الأميرات بنات الأمير محمد بن عبدالرحمن البالغ عددهن كما قلنا آنفاً ٢١ بنتاً اللهم إلا ما أمدنا به ابن الأبار[١٦٠] من ذكر شقيقة من شقيقات الأمير لم يسمها لنا للأسف؛ مارست دوراً سياسياً في بلاط أخيها الأمير المنذر سنذكره في موضوعه بعد إن شاء الله؟

وأما الأمير الأموي السابع في سلسلة أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة، عنيت الأمير: عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن فإننا نملك ثبتاً بعدد إناث أولاده اللائي بلغن ١٣ بنتاً، ويد المِنَّة تزجى لابن عذاري[١٦١] الذي سرد لنا أسماء هؤلاء البنات وأمهاتهن، وهؤلاء البنات هن: السيدة، عائشة، السيدة (أخرى) وأمهن أم ولد تدعى غزلان، وهي غير غزلان المار ذكرها من قبل، ثم هشيمة، وأمها تدعى: قريش،

وأسماء وأمها تدعى فتيان، وحكيمة، وملك، والبهاء، ودُر، وفاطمة، وهي أسن ولده. وكلّ هؤلاء البنات ولدن للأمير عبدالله قبل توليه الإمارة، أما بعد توليه فقد ولد له الأميرات: رقية، زينب، فاطمة (أخرى)، زينب (أخرى)، فاطمة الصغرى (وهي ابنة ثالثة للأمير عبدالله تسمى بهذا الاسم) وكما يعود الفضل لابن عذاري في تعريفنا اسم بنات الأمير عبدالله الـ: ١٣، وبالتوضيح الجيد في معرفة من ولد منهن قبل توليه الإمارة ومن ولد منهن بعد توليه الإمارة فإن الفضل يعود إليه كذلك بشأن توضيح ثالث، إذ عرفنا ابن عذاري بأمهات هؤلاء البنات من جهة، ومَن مِنهنَّ شقيقة للأمراء أبناء الأمير عبدالله البالغ عددهم ١١ ابناً من جهة أخرى. فالأميرات: السيدة، عائشة، السيدة (وهي غير الأولى) أمهن أم ولد تدعى غزلان، وهي غير غزلان والدة كل من الأميرين: المطرف وسليمان حسبما مر بنا من قبل. والأميرة هشيمة أمها أم ولد تدعى: قريش، والأميرة أسماء أمها أم ولد تدعى: فتيان، والأميرة حكيمة أمها أم ولد تدعى: مَلَك، والأميرة البهاء أمها أم ولد تدعى: درّ، ولعلنا نميل – ظناً – إلى أنها شقيقة للأمير محمد بن عبدالله الأكبر للأمير عبدالله ووالد الخليفة عبدالرحمن الناصر. ونعود لذكر بنات الأمير عبدالله، فنشير إلى الأميرة فاطمة التي قال ابن عذاري إنها أسن ولد الأمير عبدالله، بيد أنه لم يرشدنا إلى اسم والدتها. ولعل هذه هي الحالة الاستثنائية التي لم يرشدنا فيها إلى اسم والدة بنت من بنات الأمير عبدالله. وعلى كل حال فهؤلاء البنات اللائي ذكرناهن، وذكرنا أمهاتهن وأشقاءهن ولدن للأمير عبدالله قبل توليه الإمارة.

ونواصل حديث الأميرات بنات الأمير عبدالله، فنجد أن الأميرتين رقية وزينب هما بنتان لجارية الأمير عبدالله المعروفة باسم: ملحَة. وينتابنا شك في أنهما شقيقتان للأميرين: محمد الأصغر وأحمد الأصغر اللذين عرفنا من قبل في حديثنا عن أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم أن أمهما تدعى ملحة. ثم هذه الأميرة فاطمة (وهي البنت الثانية للأمير عبدالله تحمل اسم فاطمة) هي بنت أم ولد تدعى در، ونميل – ظناً –

إلى أنها ربما تكون شقيقة للأمير محمد بن عبدالله الابن الأكبر للأمير عبدالله ووالد الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي عرفنا أن أمه أم ولد تدعى: در، وكذا الأميرة البهاء التي ذهبنا – ظناً أيضاً – إلى أنها ربما تكون شقيقة للأمير محمد بحكم كون أمه تدعى: در.

ونختم حديث هذا الجانب الأسري للأمير الأموي السابع الأمير عبدالله بن محمد، بالقول إننا لا ندري شكل أو طبيعة العلاقة بينه وبين شقيقاته اللائي بلغن إحدى وعشرين أختاً كما سبق أن أشرنا إلى هذا آنفاً.

هذا حديث أعلام بنات أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة وأخواتهم، أما حديث أعلام بنات خلفاء الدولة الأموية في عصر الخلافة وأخواتهم فالواقع أنه لا يختلف كثيراً من حيث قلة وفرة المعلومات عن سابقه عصر الإمارة. في هذا الصدد يمكن القول ابتداءً إنه ومع أن عدداً من مؤرخينا حفلوا كلما بدؤوا حديثهم عن أمير من أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة أو ختموه(١٦٢) بذكر عدد أولئك الأمراء ذكوراً أو إناثاً فإنهم لم يفعلوا الشيء نفسه مع خلفاء عصر الخلافة بدءاً بالخليفة المؤسس عبدالرحمن الناصر، ولذلك عبثاً نستطيع تعرف هذا الجانب. بيد أن جهد التقصي حول هذه الجزئية لم يجعل وطابنا – مع ذلك – خالية، فهذا الخليفة عبدالرحمن الذي خلَّف ١٢ ولداً ذكراً حسبما ذكرنا من قبل، يترك ٥ بنات هن اللاتي سبق لنا أن ذكرناهن عند حديثنا عن أمهات أولاد الخلفاء. ولعله ليس من مكرور القول أن نعود إلى ذكرهن هنا في هذا المبحث الذي هو ألصق وأدعى بداهة مع أن السياق هو الذي فرض علينا في مبحث أمهات أولاد الخلفاء أن نذكرهن هناك. على كل حال فلقد ترك الخليفة عبدالرحمن الناصر ٥ بنات كما قلنا آنفاً؛ هن الأميرات: سنية، سلمة، ولادة، هند. ولقد عرفنا آنذاك أن الأميرتين: هنداً وولادة أمهما السيدة الكبرى مرجان والدة كل من الأمراء: الحكم، عبيد الله، عبدالعزيز. أما الأميرة: سنية التي دلَّنا عليها ابن حيان في مقتبسه حسبما ذكرنا سابقاً(١٦٣) فلم نتعرف للأسف

على اسم أمها. أما الأميرة الخامسة ولم يشر إليها ابن حيان كما ذكرنا سابقاً، فقد أشار ابن عذاري[١٦٤] إليها وزاد فسمّاها لنا فقال إنها الأميرة عائشة، ورصد وفاتها، فقال إنها حدثت سنة ٣٠٥هـ، وإن لم يذكر لنا اسم والدتها. ولا ندري – في ظل غياب المعلومة – هل كان للخليفة عبدالرحمن الناصر شقيقة أم شقيقات؟ ويبدو أن الأحداث السياسية لم تمهل والده الأمير محمداً، فقد فاجأه مقتله على يدي أبيه وأدرك منيته سريعاً[١٦٥].

وإذا ما تركنا الخليفة عبدالرحمن الناصر للحديث عن خليفته من بعده الخليفة الثاني الحكم المستنصر، فإننا نقول وباطئمنان إنه لم يكن للخليفة الحكم المستنصر من زوجته الوحيدة صبح سوى ولدين ذكرين أحدهما توفي طفلاً وهو الأمير عبدالرحمن، وثانيهما هو الخليفة من بعده – أي الحكم المستنصر –: هشام المؤيد بالله حسبما تكرر ذكره آنفاً. أما عن علاقة الخليفة الحكم المستنصر بشقيقاته أو أخواته لأبيه وقد عرفناهن جميعهن قبلاً، فلا ندري ما طبيعتها، وإن كنا نعتقد اعتقاداً يصل إلى الجزم أنها لا بد أن تكون ذات العلاقة المعهودة المألوفة بين الأخ وأخواته.

أما الخليفة الثالث في سلسلة خلفاء بني أمية في الأندلس، أعني الخليفة هشاماً المؤيد بالله، فقد طبقت المصادر على أنه كان صرورة لم يتزوج قط حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل. ومن الطبعي أن لا نجد ذكراً لشقيقات له في ظل معرفتنا الأكيدة بأن أباه الخليفة الحكم لم ينجب إلا ولدين ذكرين هما: هشام المؤيد بالله نفسه، وأخوه عبدالرحمن الذي مات طفلاً حسبما مر بنا آنفاً.

ويقودنا السياق إلى خلفاء عصر الفتنة – فنقلب صفحات حياة أولئك الخلفاء؛ الخليفة محمد بن هشام عبدالجبار والملقب بالمهدي بالله بحثاً عن ذكر بنات له وشقيقات، فلا نجد سوى ما سطره لنا ابن حزم في جمهرته[١٦٦] من أنه كان له ابنة واحدة تزوجها ابن عم لها. ولا نعلم – في ظل غياب المعلومة – اسم هذه الأميرة

وكذلك اسم والدتها، كما أننا لا نعلم هل هي شقيقة لذلك الابن الذي ذكرناه من قبل للخليفة المهدي بالله ومات ولم يعقب، فانقرض نسل المهدي حسبما عرفنا بهذا ابن حزم في جمهرته أيضاً[١٦٧]. وكم لابن حزم من فضائل ومحامد! فلقد زودنا بأخبار لم نجدها عند أحد غيره كما مر بنا سابقاً. ونعود لذكر بنات أول خلفاء عصر الفتنة وشقيقاتهم؛ الخليفة محمد بن هشام المهدي بالله هذا، فنجد خبراً عن شقيقة للخليفة المهدي تدعى أسماء، تزوجت من أحد أدباء الأندلس المعروفين وقتذاك، هو أحمد بن رشيف الكاتب[١٦٨].

أما الخليفة الأموي الثاني من خلفاء عصر الفتنة وهو الخليفة سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين بالله، فقد مر بنا سابقاً أن له ابنة تدعى وتكنى بـ: أم الحكم، وقد خطبها ابن عمها – وإن لم يكن لحا –: عبدالرحمن بن هشام الذي تولى الخلافة فيما بعد وتلقب بـ: المستظهر بالله. ولا ندري هل هذه الابنة شقيقة لابن الخليفة سليمان المستعين؛ الأمير محمد الذي كان أبوه قد ولاه عهده[١٦٩] وإن كان الأمر لم يتم للاب فضلاً عن الابن في ظل الفتنة الكبيرة التي عصفت بالأندلس آنذاك أم لا؟. ثم لا نعلم للمستعين أولاداً غيرهما أم لا؟. علماً بأننا نعرف والدة الأميرة حبيبة بنت المستعين، كما ذكرنا آنفاً، إذ هي الجارية أم الولد: مشنف أو شنف حسبما عرفنا ذلك في حديثنا عن الإماء أمهات أولاد الأمراء والخلفاء الأمويين. أما عن شقيقات الخليفة المستعين بالله فلم نجد لدى المصادر ما يفيدنا في هذا الموضوع.

أما الخليفة الأموي الثالث، وهو عبدالرحمن بن عبدالجبار بن هشام الملقب بـ: المستظهر بالله المار ذكره قبل قليل، والذي عرفنا من قبل أنه شقيق للخليفة الأول من خلفاء الفتنة، أي الخليفة محمد بن هشام المهدي بالله، فلم نعثر على ما يروي غلتنا من وجود إناث له، ولعل حتفه لم يمهله أن يتمم زواجه من ابنة عمه حبيبة التي خطبها[١٧٠] كما أننا عرفنا خلال حديثنا عن شقيقه الخليفة محمد المهدي بالله أنه لم يكن لهما شقيقة أو شقيقات.

وأما الخليفة الأموي الرابع من خلفاء عصر الفتنة؛ محمد بن عبدالرحمن بن عبيد الله بن عبدالرحمن الناصر، الملقب بـ: المستكفي بالله فقد وجدنا عدداً كبيراً من المؤرخين القدامى والمحدثين يشيرون – صراحة – إلى انتساب الأديبة الأندلسية المشهورة شهرة طاغية: ولادة التي ينعتها بعض المؤرخين بـ: ولادة ابن زيدون، ذلك الشاعر الأندلسي المحلق المشهور – هو الآخر – شهرة طاغية الذي كان مولعاً بها ووجه غرر شعره فيها: متغزلاً كلفاً مستهيماً متذللاً مستعطفاً ثم معاتباً لها(١٧١) قلت إن كثيراً من المؤرخين القدامى والمحدثين يشيرون صراحة إلى انتساب ولادة للخليفة المستكفي بالله هذا. ترى هل استخدامنا لكلمة انتساب تعني أن ثمة شكاً في هذا الانتساب للمستكفي؟ الإجابة: نعم. إذ وجدنا أحد الباحثين المحدثين، وهو أحمد خليل جمعة يشكك في انتساب الأديبة ولادة إلى البيت الأموي والمستكفي بالله تحديداً. لا بل يذهب بعيداً فيرى أنها شخصية وهمية لا وجود لها، وأن سيرتها ضرب من الخيال، وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع(١٧٢).

ولقد اعتمد الباحث على أقوال عدد من المؤرخين الذين عاصروا ولادة أو كانوا قريباً من عصرها، وهم: ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ في جمهرته لأنساب العرب، الذي قال إن المستكفي كانت له ابنة واحدة تزوجت ولم يذكر اسمها أو شيئاً عن حياتها أو مكانتها، ولو كانت ولادة بالفعل ابنة للمستكفي لذكر ابن حزم ذلك، ولما ضرب عنها صفحاً على حد قول الباحث أحمد خليل جمعة. ثم – وقد عاد السياق إلى ذكر المؤرخين الذين لم يشيروا إلى انتساب ولادة للخليفة المستكفي – بحسب ما يقول أحمد خليل جمعة – يورد الباحث المذكور قولاً مفاده إن الحميدي صاحب كتاب جذوة المقتبس المتوفى سنة ٤٨٨هـ لم يذكر أن للمستكفي ابنة تدعى ولادة، وأن المستكفي مات ولم يعقب. ويضيف أحمد خليل جمعة قائلاً: إن الضبي المتوفى سنة ٥٩٩هـ ذكر في بغيته للملتمس أن المستكفي لم يكن له عقب، ويردف أحمد خليل جمعة قائلاً: إن عبدالواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب

المتوفى بعد سنة ٦٢١هـ[١٧٣] ذكر أن المستكفي مات ولم يعقب. ويورد أحمد خليل جمعة أخيراً قولاً للنويري صاحب كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب المتوفى سنة ٧٣٣هـ مفاده – كذلك – أن المستكفي مات ولم يعقب[١٧٤].

هذه حجج الباحث أحمد خليل جمعة التي اعتمد عليها في استبعاد انتساب ولادة للخليفة المستكفي بالله علاوة على أنه يستبعد أن يصدر من ولادة الحسيبة النسيبة ما نسب إليها من استهتار وعبثية وخدش لموجبات التصاون والعفاف، وهو أمر شكك وعاب حدوثه – إن حدث – من ولادة مؤرخان من مؤرخي الأدب والتراجم الأندلسيين هما: ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ثم ابن بشكوال صاحب كتاب: الصلة[١٧٥]. ويضيف الباحث سبباً ثالثاً يتكئ عليه في استبعاد انتساب ولادة للخليفة المستكفي، وهو أنه لم يبق للخليفة المستكفي ميراث من الخلافة أو المال يتركه لابنته الملتصقة به[١٧٦].

وليسمح لنا الباحث الكريم أن نناقشه فيما ذهب إليه. نقول ابتداء: إن مجرد قول ابن حزم في جمهرته لأنساب العرب: إن المستكفي خلف ابنة – وإن لم يسمها – يعزز الاقتناع بأن هذه الابنة ربما تكون ولادة نفسها. هذا مع العلم بأن قولة ابن حزم يشوبها الغموض، فهو يقول: (وأما عبيدالله فمن ولده: المسمى بالخلافة، الملقب بالمستكفي، ولي سبعة عشر شهراً، وهو أبو عبدالرحمن: محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن الناصر، وقتل أبوه أيام هشام المؤيد في طلب هذا الأمر؛ وابن عمه لحا ولي عهده سليمان بن هشام بن عبيدالله بن الناصر، انقرضا جميعاً من غير عقب حاشا ابنتين نكحهما مسلمة ويحيى أبناء هشام، من ولد الأصبغ بن الحكم الربضي)[١٧٧] والغموض الذي نقصده أن ابن حزم قد وضعنا في شك بعبارته: (..حاشا ابنتين نكحهما..إلخ) فهل الابنتان هما بنتا سليمان بن هشام، أم بنتا المستكفي وسليمان معاً؟ ونظن أن الباحث أحمد خليل جمعة قد ارتكز على هذه العبارة وإلا فالحقيقة أن ابن حزم لم يشر نصاً على (أن المستكفي قد أعقب ابنة

واحدة تزوجت ولم يذكر اسمها... إلخ) أما مسألة أن ابن حزم لم يذكر شيئاً عن حياتها أو مكانتها، ولو كان لها شهرة لذكر ابن حزم ذلك فإننا نقول: لعل استياء ابن حزم من خروج المستكفي على الخليفة عبدالرحمن المستظهر الذي عيّن ابن حزم وزيراً من وزرائه(١٧٨) ونجاحه في تولي الخلافة وهو الخليفة المتهافت سيئ الأحدوثة(١٧٩) قد شمل ابنته ولادة فلم يشأ أن يشرفها بذكرها في كتابه الجمهرة. وربما يعود سبب إغفال ابن حزم الإشارة إليها – كذلك – أنه لم يكن راضياً عما نسب إليها من استهتار ولا مبالاة. ثم إن ثمة شهيرات من سيدات البلاط الأموي في عصري الإمارة والخلافة: حرائر، وأمهات أولاد، وبنات، وأخوات لم يذكرهن ابن حزم وهو يسلسل نسب الأمويين من أعقاب الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل، كالأميرة البهاء بنت عبدالرحمن الأوسط، والأميرة فاطمة بنت المنذر بن محمد.

وأما اتكاء الباحث أحمد خليل جمعة على أقوال الحميدي والضبي وعبدالواحد المراكشي ثم النويري ومفادها أن المستكفي مات ولم يعقب، فيقابله كذلك إثبات صحة انتساب ولادة للمستكفي من عدد من المؤرخين ممن لهم مكانة مرموقة في الدراسات الأندلسية، وفيهم من كان قريباً من عصر ولادة، نذكرهم هنا بحسب قرب وفياتهم. نعم أشار إلى انتسابها للمستكفي ابن خاقان صاحب كتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان المتوفى سنة ٥٢٩هـ(١٨٠) كما ذكر انتسابها للمستكفي: ابن بسام المتوفى سنة ٥٤٢هـ في ذخيرته(١٨١) وهو – للمناسبة – ينقل عن ابن حيان القرطبي صاحب المقتبس والتآليف الأخرى المعروفة –(١٨٢) هذا وقد ذكر انتسابها أيضاً للمستكفي: ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة المتوفى سنة ٥٧٨هـ(١٨٣) كما ذكر انتسابها للمستكفي: ابن دحية الكلبي صاحب كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب المتوفى سنة ٦٣٣هـ(١٨٤) وذكر انتساب ولادة للمستكفي: ابن سعيد المغربي صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب المتوفى سنة ٦٨٥هـ(١٨٥) وذكر أخيراً المقري صاحب كتاب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١هـ القول نفسه(١٨٦) ويلحظ هنا أن كل

هؤلاء المؤرخين أندلسيون أو مغاربة، وقد جاراهم في ذلك من جاراهم من مؤرخي المشرق القدامى والمحدثين الذين يصعب حصرهم هنا.

أما قول الباحث الكريم: إن عبدالواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب كما هو معروف الذي قال إن المستكفي مات ولم يعقب قد ذكر ولادة في كتابه لكن لا على أنها ابنة المستكفي وإنما ابنة المهدي(١٨٧) فإننا نرى أن عبدالواحد المراكشي الذي كتب كتابه اعتماداً على الذاكرة في المشرق كما جاء في مقدمة كتابه قد خانته الذاكرة فخلط بين الخليفة المهدي والخليفة المستكفي. ولعل ذكره هنا لولادة وإن قال إنها ابنة المهدي يعضده أقوال من قال إنها ابنة المستكفي ممن سبق عبدالواحد المراكشي أو عاصره.

وأما قول الباحث الكريم: إنه لم يبق للخليفة المستكفي ميراث من الخلافة أو المال يتركه لابنته الملتصقة به فيخيل إلينا أن هذا قد لا يصح أن ينهض دليلاً على عدم انتساب ولادة للمستكفي. فالظروف السياسية التي تولى فيها المستكفي الخلافة، ثم تهافت شخصيته وتهلهلها، وهو أمر أجمع عليه المؤرخون كما قلنا من قبل، وتدهور الأوضاع على كافة الصعد ولا سيما الناحية المالية لا تسمح بوجود ميراث من المال يذكر للخليفة المستكفي يتركه لابنته ولادة. هذا شيء، والشيء الآخر أن عدم إشارة المؤرخين لقضية وجود ميراث للخليفة المستكفي يتركه لابنته هو أمر شائع وذائع. فخلفاء الفتنة قبله وخلفاء الفتنة بعده هم معه في ذلك سواء، إذ لم ترشدنا المصادر إلى ثرواتهم التي تركوها لأسرهم. بل إن الأمر يتجاوز هؤلاء إلى بقية أمراء الدولة الأموية وخلفائها بالأندلس، فلم نجد نصوصاً صريحة تدل على تركهم ثروات محددة لورثتهم. هذا مع أننا لا نغفل البتة أنهم قد تركوا مواريث لذرياتهم. إن ما نقصده هنا هو أننا لم نجد تنصيصاً على أنهم تركوا لذراريهم القدر الفلاني من المال للابن هذا أو للابنة تلك. وهكذا فإننا نستميح الباحث الكريم عذراً في أننا لا نذهب إلى ما ذهب إليه، ومن ثمّ نسير مع القائلين بانتساب ولادة للمستكفي بالله، وإن لم نتعرف اسم والدتها. ويقول محمد عبدالله

عنان – دون أن يورد سنده –[١٨٨] إن والدة ولادة أم ولد، وهي جارية أسبانية، كما يقدم لنا – دون أن يذكر سنده كذلك – وصفاً للصفات الجسمانية لولادة من أنها كانت ناصعة المحيا، زرقاء العينين، حمراء الشعر، رائعة الحسن[١٨٩] ومما نعرفه عن ولادة أيضاً أنها توفيت سنة ٤٨٨هـ وقيل بل: سنة ٤٨٠ هـ وقيل: لا بل سنة ٤٨٤ هـ[١٩٠].

يتبقى أخيراً من حديث هذا الجانب الأسري للخليفة المستكفي بالله الذي وقفنا معه هذه الوقفة الطويلة كما وعدنا من قبل أن نشير إلى أننا لم نعثر على ذكر شقيقات له، وهو أمر يدخل في نطاق هذا المبحث؛ أي: مبحث بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم.

ونقف أخيراً عند الخليفة الأموي الخامس من خلفاء الفتنة وهو الخليفة: هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر الذي تلقب بالمعتد بالله حسبما مر بنا من قبل، فقد أخبرنا ابن حزم[١٩١] أنه لم يكن له عقب البتة، كما أننا لا نعرف شيئاً عن وجود شقيقة أو شقيقات للخليفة هشام المعتد هذا وأخيه عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن ناصر الذي بويع له بالخلافة في بعض أنحاء الأندلس – دون العاصمة قرطبة – أيام الفتنة بويع له بالخلافة في بعض أنحاء الأندلس – دون العاصمة قرطبة – أيام الفتنة الكبرى وتلقب بـ: المرتضى بالله ولم يتم له الأمر[١٩٢].

المبحث الرابع
جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم

يحسن بنا قبل أن نلم بأعلام هذه الجزئية أن نشير إلى أن العرف الاجتماعي وإن شئت قلت: ورسوم قصور الأمراء والخلفاء على مستوى الدولة الأموية كانت تفرق في وصف الجواري أو الإماء. والمستطلع لكتب الموسوعات الأدبية التي يشكل: علم العرب لحمتها وسداها[١٩٣] وكذا المستطلع للكتب التي ألفها باحثون محدثون في الحضارة الإسلامية من مستشرقين وباحثين عرب[١٩٤] يلمس أن الذوق الاجتماعي أو لنقل ذوق المجتمع على مستوى الدولة الإسلامية فرق – مبكراً – بين الجواري أو الإماء، فثمة جواري خدمة، وثمة جواري متعة، وثمة جواري استبضاع ولد[١٩٥].

وإذ جذبنا الانتباه إلى هذا الأمر بوصفه مدخلاً بين يدي الحديث عن أعلام جواري خدمة الأمراء والخلفاء الأمويين بالأندلس فإن مما يحسن الحديث عنه – كذلك – بين يدي مبحثنا هذا، هو القول: إن ظاهرة بروز هذه الوضعية للجواري في البلاط الأموي بالأندلس لا يعد أمراً مستغرباً في ظل اجتماع الموجبات المسببة لهذه الظاهرة من: انفساح سلطان واتساع ثراء، وترامي حياة متأنقة مترفة، زد على ذلك إباحة شرعية مقننة ومنضبطة لتملك الخدم ذكوراً وإناثاً بعد توافر الرغبة والقوة الشرائية. ولعل جولة قراءة نجريها في كتب المصادر الأندلسية التي ألفت عن الأندلس: تاريخاً وأدباً كفيلة أن توضح لنا مقدار ما بلغه المجتمع الأندلسي بعامة والبلاط الأموي بخاصة من احتشاد بيوتهم وقصورهم بالخدم من الجنسين[١٩٦] على أنه ليس من غرض بحثنا التحدث عن ظاهرة الخدم بوصفها ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية إلا بالقدر الذي يخدم أغراض بحثنا أي الحديث عن أعلام الجواري أو الإماء في قصور الأمويين، ومن ثم أدوارهن على الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية مدار البحث ومناطه. على أنه تجدر الإشارة فقط – لتأكيد ما نحن بصدده – أن قصر الخليفة عبدالرحمن الناصر كان يجيش بـ: ٦٣٠٠ امرأة

وجارية خدمة[١٩٧] على أنه يخيل إلينا – أن الدولة الأموية مع ما نعرفه من بلوغها درجات سامقة الذرا من التقدم والرقي والازدهار، ولا سيما في عصر الأمير عبدالرحمن الأوسط وعصر الخليفة عبدالرحمن الناصر بالذات لم تبلغ ما بلغته الدولة الإسلامية في ظل العباسيين، مع أنه أمر طبعي بداهة. وحسبنا هنا أن نشير إلى ما ذكرته المصادر من احتشاد قصر الخليفة العباسي المتوكل بالله بن المعتصم (٢٣٢-٢٤٧هـ) بعدد هائل من السريات فقط[١٩٨].

يبقى من الحديث عن مبحث: جواري أمراء الدولة الأموية وخلفائها بالأندلس وقهرماناتهم ووصيفاتهم، الوقوف عند نقطتين مهمتين يكتمل بهما حديث المدخل، أولاهما أن الدولة الأموية بالأندلس وهي التي أهدت للإدارة الإسلامية نظماً ورسوماً غاية في الدقة[١٩٩] لم تغفل – كما نظن ظناً – عبقريتها عن استحداث خطط[٢٠٠] إدارية خاصة بالمرأة. ونقول نظن ظناً لأننا لا نملك سوى معلومات يسيرة في هذا الصدد، هي التي جعلتنا نذهب إلى أن العبقرية الإدارية الأموية قد أهدت إلينا خططاً إدارية تتعلق بالمرأة في القصور الأموية. ومن يدري فلربما توافرت حقائق ومعلومات، ولكنها في عداد ما لم نعثر عليه من التراث الأندلسي. والنقطة الثانية تتمثل في أننا ونحن الذين عقدنا مبحثاً للحديث عن أعلام الإماء أمهات أولاد الأمراء والخلفاء الأمويين، وهن جواري استبضاع الولد، ثم ونحن الذين أكدنا وجود الأنواع الثلاثة للجواري بحسب الذوق الاجتماعي- بل وربما بحسب الرسوم الإدارية – فضَّلنا أن يشمل مبحث جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم، وهو المبحث الرابع من الفصل الأول، الحديث عن جواري المتعة وجواري الخدمة.

أما جواري المتعة فالمقصود بهن أولئك الجواري اللائي أشارت إليهن أو لبعضهن المصادر: اسماً اسماً وعملاً عملاً، ولكنها لم تشر صراحة إلى أنهن إماء أمهات أولاد. من هنا لم نشأ الإشارة إليهن ضمن حديث الإماء أمهات الأولاد، ورغبنا أن نتحدث عنهن هنافي مبحث جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم، هذا مع أننا لا نستبعد أن يكنَّ موئلاً للذة الحسية (الجنسية) بجانب ما

اشتهر عنهن من أنهن جواري متعة لا حسية (معنوية). وأما جواري الخدمة (القهرمانات[٢٠١] والوصيفات[٢٠٢]) فالمعلومات التي وردتنا عنهن – وإن كانت يسيرة – فإنها وضحت لنا اقتصار عملهن على تدبير القصور الأموية وخدمتها بشتى أوجه الخدمة.

لا يبقى لنا بعد هذا التوضيح إلا أن نتتبع حديث أعلام جواري الأمويين وقهرماناتهم ووصيفاتهم في عصري الإمارة والخلافة. بادئ ذي بدء نمر مع صاحب أخبار مجموعة[٢٠٣] مروراً عابراً نحو ذكر جارية سوداء مدنية – لعل المقصود أنها منسوبة إلى المدينة المنورة –، كانت قيمة[٢٠٤] لدى الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل. ولئن كان صاحب أخبار مجموعة لم يورد اسم هذه الجارية القيمة فإنه قد أوقفنا على دور مارسته في بلاط سيدها الأمير عبدالرحمن الداخل، وهو ما سنقف عنده لاحقاً إن شاء الله. على أن وطابنا لم تخل من ذكر جاريتي متعة لا حسية (معنوية) كانتا للأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل، أولاهما الجارية العجفاء، وكانت جارية مغنية حملت إلى الأندلس من المشرق، واستقر بها المقام أخيراً جارية مشتراة للأمير عبدالرحمن[٢٠٥]. والجارية الثانية هي المعروفة بـ: الدعجاء[٢٠٦] وقد هام بها الأمير عبدالرحمن جداً. ومع أن هذه الإشارات اليسيرة لا تعني بالضرورة أن بلاط الأمير المؤسس الذي حكم سنوات طويلة من سنة (١٣٨-١٧٢هـ) كان عرياً من مظاهر فخامة الملك وبهرجته. بيد أن آكد الأمور أن الأمير عبدالرحمن والذي كان على موعد مع ما ادخره المولى عز وجل له من تحمل مسؤولية التأسيس لدولة فتية عتيدة ربما لم يكن منصرفاً إلى جوانب المتعة الحسية والمعنوية انصراف الحكام الآخرين الذين وجدوا ملكاً ممهداً وسلطة منفتحة مستقرة، وذاك هو قدر القادة المؤسسين للدول[٢٠٧].

أما الأمير الأموي الثاني الأمير هشام الرضا، فإن المصادر لم تحفل بتبيان طبيعة الحياة في قصر الأمير هشام لا من حيث حياته الأسرية ولا من حيث الحياة الملكية بكل ما تتطلبه من بهرج وتأنق[٢٠٨] ثم إن قصر مدة حكمه التي لم تزد عن

ثمان سنوات لعلها قد تعد عاملاً إضافياً مع ما ذكرناه. وأما الأمير الثالث، الأمير الحكم بن هشام، والذي كان عهده عهداً طويلاً نسبياً إذ حكم الحكم كما هو معروف من سنة ٢٠٦–٢٣٨هـ. وقطعت الدولة الأموية في عهده شوطاً كبيراً من الانفساح الحضاري، هو جزء من التقدم الذي بلغته الأندلس[٢٠٩] بيد أننا – مع ذلك – نفتقر إلى معلومات عن المبحث الذي يهمنا أعني مبحث جواري أمراء بني أمية وخلفائها، وقهرماناتهم ووصيفاتهم. على أننا نستدرك فنقول إننا قد عثرنا على خبر بوجود خمس جواري متعة كنَّ للأمير الحكم[٢١٠] وأغلب الظن أن الجواري الخمس كن جواري متعة فراش. على أن صاحب الأخبار المجموعة الذي نقلنا عنه هذا الخبر كما وثقناه في الحاشية أغفل الإشارة إلى أسماء الجواري الخمس أولئك.

ويظلنا عهد الأمير الأموي الرابع عبدالرحمن بن الحكم المعروف بعبدالرحمن الأوسط حيناً والثاني أحياناً، ذلك الأمير الذي انفسحت الدولة الأموية في عهده أيّما انفساح حضاري والذي (وصل البلاط الأموي في عهده إلى درجة لم يسبق لها مثيل من الروعة والحضارة والتقدم، وبدت «الأرستقراطية العربية» في أبدع صورها، وسطعت الفروسية الأندلسية، وتجلت خلالها الباهرة التي غدت فيما بعد مثلاً يحتذى في مجتمعات العصور الوسطى وبصفة خاصة في أوروبا، كما أنه كرس نفسه لخدمة تقدم الفنون والآداب والعلوم والمعارف عامة)[٢١١] الأمير عبدالرحمن الأوسط الذي شبهت سنوات حكمه الممتدة من سنة ٢٣٨–٢٧٣هـ بأيام العروس[٢١٢] نقف عند الأمير عبدالرحمن الأوسط وعهده ونحن نمني أنفسنا أننا سنجد معلومات ثرَّة عن هذا الجانب الشخصي في حياته، أي جانب جواري الخدمة وجواري المتعة، فنفاجأ أن زادنا من ذلك زاد يسير. نحن بالطبع لا نتحدث عن الجواري أمهات الأولاد، فذاك حديث سبق أن وقفنا عنده ولكننا نستدعي إلى العرض هنا ما عرف عن ميل الأمير عبدالرحمن الأوسط إلى النساء وشغفه البالغ بهن، ثم نستحضر ما أثنى المؤرخون به على الأمير عبدالرحمن من عقلية إدارية منظمة أهدت إلى علم الإدارة صنوفاً من التنظيمات، وعلى رأسها تنظيم الوزارة[٢١٣]. نستحضر الأمرين

معاً لنبحث عن أعلام لجواري متعة وجواري خدمة يتماشى مع ما عرف عن ميل الأمير عبدالرحمن للنساء من جهة، وعبقريته الإدارية من جهة أخرى، فلا نجد إلا اليسير كما قلنا آنفاً. هذا مع أننا على دراية تامة بعهد الأمير عبدالرحمن الأوسط سواء ما أمدتنا به القطعة التي وقف عليها المستشرق إميليو غرسية غومس ونشرت بدون تحقيق سنة ١٩٩٩م بمدريد، وتحتوي أخبار عهد الأمير عبدالرحمن الثاني من سنة ٢٠٦ – حتى بداية سنة ٢٣٢هـ أو تلك القطعة التي تحتوي أخبار سبع سنوات من حكمه (من سنة ٢٣٢–٢٣٨هـ)[٢١٤] وهي التي عني بها تحقيقاً محمود علي مكي وضمنها القطعة الثانية المنشورة من المقتبس. هذه القطعة التي تضمنت – كذلك – معظم سني حكم ابنه الأمير محمد بن عبدالرحمن، وتحديداً السنوات الممتدة من سنة (٢٣٨–٢٦٧هـ)[٢١٥] والمعلوم أن مدة حكم الأمير محمد قد امتدت بعد سنة ٢٦٧هـ إلى سنة ٢٧٣هـ، وهي السنة التي توفي فيها.

نعود إلى أعلام جواري المتعة وجواري الخدمة في النزر اليسير الذي جادت به علينا المصادر لنقول ابتداء فيما يخص جواري المتعة للأمير عبدالرحمن، هاهنا جارية تدعى: مدثرة[٢١٦] ولا نعرف عنها أبعد من هذا، ثم هاهنا الجارية: متعة[٢١٧] وهذا هو كل ما نعرفه عنها وإن كانت المصادر قد خلدت لها إسهاماً حضارياً سنذكره في موضعه بعد إن شاء الله. وأما على صعيد المتعة المعنوية، ونقصد بها متعة التأنس الأدبي والتذوق الفني، فها هنا ثلاث جوارٍ أعلام هنَّ (فضل وعلم وقلم)[٢١٨] احتللن مكانة مرموقة في قصر الأمير محمد ونفسه لما امتزن به من أدب بالغ وذوق موسيقي رفيع. وسنقف معهن في هذين الحقلين لاحقاً إن شاء الله.

أما جواري الخدمة – وحديثهن نزر يسير كما عرفت – فإليك خبر قهرمانة أشار إليها ابن حيان في مقتبسه في إطار حديثه عن المؤامرة التي دبرتها حظيته الغالبة على أمره طروب أم ولده عبدالله التي كانت تريد إسناد ولاية العهد لابنها، حيث سعت إلى سم الأمير بشراب إلا أن المؤامرة تكشفت حسبما سنعرف من بعد

تفصيلاً، واضطلعت ضرتها فجر حظية الأمير الأخرى ووالدة ولده الأمير بشر بإفشال المؤامرة، وكانت وسيلتها في ذلك هذه القهرمانة التي لم يورد ابن حيان اسمها.بيد أننا وإن لم نظفر باسم هذه القهرمانة إلا أننا علمنا في سياق الخبر أنها واحدة من كثيرات من جواري الخدمة كانت تجيش بهن دور الأمير عبدالرحمن ودور حظياته من زوجات وجواري متعة[٢١٩] وهذا شيء طبعي فيستحيل ألا يجيش بلاط الأمير عبدالرحمن بجواري الخدمة، وبلاطه قد بلغ تلك المكانة الرفيعة التي ذكرها المؤرخون ونظروا لها وإليها بنظرة التقدير والإعجاب.

إن الفضل في إرشادنا إلى خبر هذه القهرمانة وما يحمله الخبر من مغزى له أهميته في حديثنا عن جواري المتعة وجواري الخدمة يعود إلى ابن حيان دون شك الذي أخبرنا بهذا وأخبرنا أيضاً عن خطة إدارية نسوية كانت مرعية في بلاط الأمير عبدالرحمن الأوسط، تتمثل في تخصيص جارية خدمة تقف على رأس الأمير في مجلسه من قصره، وقد أطلق عليها نعت: الراشدة القائمة على رأس الأمير[٢٢٠]. وهذا خبر مثير، فهو يدلنا على أن ثمة خطة إدارية نسوية كانت موجودة مرعية في البلاط الأموي تضاف لرسوم الأمويين التي تتبعها عدد من الباحثين المحدثين بالوصف والتحليل[٢٢١].

وثمة يد منة ثالثة – في هذا الإطار – يقدمها لنا ابن حيان عندما يرشدنا إلى جارية خدمة للأمير عبدالرحمن. ولك أن تعدها: قيمة أو قهرمانة أو وصيفة، كانت تدبر أمر ملابس الأمير. ولعل الطريف في الأمر أن ابن حيان وهو يشير إلى هذا الخبر، قدم لنا هذه الخادمة – وإن لم يذكر اسمها – على أنها (خزانة الكسوة) في بلاط الأمير. وبالتالي هل بوسعنا القول إننا أمام خطة إدارية نسوية ثانية؟. الإجابة بالتأكيد: نعم[٢٢٢].

ونترك عهد الأمير عبدالرحمن الباذخ الفاره إلى عهد ابنه الأمير محمد، وهو عهد يعد امتداداً لعهد الأمير عبدالرحمن الأوسط على كافة الصعد، بيد أنه – مع ذلك – هو العهد الذي تزاوجت فيه عوامل البناء مع عوامل الفناء[٢٢٣] في هذا الصدد

يمكننا القول إن الدهشة التي أصابتنا ونحن نتحدث عن أبيه الأمير عبدالرحمن أصابتنا هنا – وإن كان بدرجة أقل – أعني انعدام الإشارة إلى جواري المتعة وجواري الخدمة في بلاطه. وما نجد سبباً لذلك إلا فقداننا صفحات كثيرة من التراث الأندلسي. إن هذا القول لعله هو الذي يفسر لنا انعدام الإشارة إلى هذا الجانب الحياتي من سيرة الأمير محمد بن عبدالرحمن. ومع ذلك ظفرنا عند ابن حيان نفسه(٢٢٤) بخبر عن جاريتين للأمير محمد بن عبدالرحمن؛ إحداهما جارية متعة كان الأمير محمد بن عبدالرحمن شغوفاً بها قبل أن يتولى الإمارة، وقد ظفر بها أحد إخوته، وهو الأمير هشام بن عبدالرحمن الأوسط. فلما تولى الأمير محمد الإمارة طلب تلك الجارية من أخيه الأمير هشام، فحملها إليه مع كل ما كان لها عنده من كسوة وحلي. والجارية الأخرى قهرمانة بل هي في عداد كبريات القهرمانات بقصره، وكانت فيما يبدو مسؤولة عن الناحية المالية لحظيات الأمير، إذ يشير ابن حيان إلى أن هذه القهرمانة هي التي تولت حصر ما جاءت به جارية المتعة التي استوهبها الأمير محمد من أخيه هشام، وقد ضاعف لها الأمير العطاء بأزيد ما جاءت به ثم عوض أخاه – كذلك – مما حمله له من كسوة الجارية وحليها علاوة على عشرة آلاف دينار ثمناً للجارية.

وتسكت المصادر – على شح وندرة ما رفدتنا به في هذا الجانب – تسكت المصادر فلا نملك أية معلومات عن جواري متعة أو جواري خدمة في قصور بقية أمراء عصر الإمارة الأموية؛ أعني الأميرين: المنذر بن محمد، وعبدالله بن محمد. ولعل استغرابنا لا يقل هنا عن استغرابنا الذي أبديناه من قبل عن عهود الأمراء السابقين، وإن كنا نرى أن السبب الذي ذكرناه سابقاً عن ضياع صفحات من التراث الأندلسي قد تكرر هنا.

ويقودنا الحديث عن أعلام جواري المتعة وجواري الخدمة في البلاط الأموي في عصر الإمارة لننتقل إلى مثيله في عصر الخلافة. بالطبع لا بد لنا أن نبدأ حديثنا بعهد الخليفة الناصر، ولعله لم يفارقنا بعد خبر احتشاد قصر هذا الخليفة العظيم بـ:

٦٣٠٠ امرأة وجارية خدمة. وإذا كان مخزون معرفتنا بعدد زوجات الخليفة وبناته لا يتجاوز العشر من خلال ما عرفناه سابقاً في مبحثي: الإماء أمهات أولاد الأمراء والخلفاء، وبنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم فإن مساحة الدهشة تزداد اتساعاً، ذلك أن جهد التقصي الذي أجريناه لم يسفر إلا عن أخبار نزرة يسيرة لجواري الخليفة عبدالرحمن الناصر وقهرماناته ووصيفاته. في البدء جاءت إشارة عارضة لدى المقري(٢٢٥) لـ: سرية للخليفة الناصر وإن لم يسمها لنا، مفادها أن هذه السرية ماتت وخلَّفت مالاً، فرجته جاريته الزهراء أن يبني لها بهذا المال مدينة تسمى باسمها فوافق الخليفة، فبنى بالفعل لها مدينة الزهراء(٢٢٦).

وثمة جارية متعة جنسية ثانية أخبرنا عنها ابن حيان في مقتبسه(٢٢٧) وهو يتحدث عن معايب الخليفة الناصر التي عرفت عنه، فلقد أشار ابن حيان إلى أن جارية حظية للخليفة الناصر ضاقت ذرعاً من طريقته في لثمها، الأمر الذي أغضبه فعاقبها بعقاب بدني شنيع أذهب محاسنها ثم نفسها لاحقاً. على أن ابن حيان وهو يورد هذا الخبر ويعده من فظيع سطوات الخليفة الناصر التي رصدها ابن حيان في مقتبسه(٢٢٨) هناك خبر جارية أخرى للناصر لا نعرف إذا ما كانت جارية متعة أم جارية خدمة، غضب عليها الناصر، فأمر سيّافه بضرب عنقها على كثرة استعطافها إياه.ولم يورد ابن حيان – كذلك – اسم هذه الجارية. وأخيراً أمدنا ابن حزم في كتابه نقط العروس بخبر امرأة – وأغلب الظن أنها كانت جارية متعة – تدعى رسيس، قال عنها ابن حزم(٢٢٩) إنها كانت امرأةً رفيعةً مهيبةً حظيةً عنده.

وإذا ما تركنا حديث جواري المتعة الجنسية إلى حديث جواري الخدمة وجدنا خبراً عند ابن حيان – أيضاً – في مقتبسه(٢٣٠) عن وجود وصائف للخليفة (قوَّامات) كن يضطلعن بمهمة المراسلة بين الخليفة الناصر ونسائه. وقد أشار ابن حيان إلى واحدة من هذه الوصائف وإن لم يذكر لنا اسمها كانت رسولته إلى زوجته الأثيرة الحظية عنده ابنة عم أبيه الأميرة فاطمة بنت المنذر بن محمد لإخبارها باعتزام الخليفة زيارتها في دارها، وهي الرغبة التي أفضت تداعياتها إلى فقدان الأميرة فاطمة

حظوتها عند الخليفة جراء الدسيسة أو المكيدة التي حاكتها ضرتها والدة الأمير الحكم – ولي العهد – حسبما ذكرنا من قبل. وفي ذات سياق هذه القضية لا يمكننا إلا أن نمر مروراً عابراً على ذكر قهرمانة(٢٣١) كانت تتولى أمر الناحية المالية للأميرة فاطمة زوج الخليفة. ولعله ليس مستغرباً وجود ذلك فهو أمر لا تخلو منه دار لزوجة من زوجات الأمراء والخلفاء ليس في الأندلس فحسب وإنما في قصور الحكام على مستوى الدولة الإسلامية.

وما زال حديث جواري الخدمة للخليفة الناصر موصولاً ممدوداً، فهذه جارية كانت كاتبة للخليفة الناصر تدعى: مزنة. وقد أرشدنا إليها ابن بشكوال(٢٣٢) وقد ذكر أنها توفيت سنة ٣٥٨هـ، ولقد أطلق عليها ابن عبدالملك المراكشي في كتابه: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: اسم مزن(٢٣٣). وهذه جارية ثانية للخليفة الناصر، وتحمل اسمين هما: راضية ونجم، وقد توفيت سنة ٤٢٣هـ عن سن عالية بلغت ١٠٧ سنوات(٢٣٤). وهذه جارية ثالثة تدعى كتمان وإن لم يسمها ابن عبدالملك المراكشي في كتابه: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة(٢٣٥).

هؤلاء هن أعلام جواري المتعة وجواري الخدمة اللائي أطلعنا على أخبارهن، بيد أننا لا يمكننا البتة التسليم بأنه لم يلمع من الـ ٦٣٠٠ امرأة وجارية اللائي كن في بلاط الخليفة العظيم عبدالرحمن الناصر – أعظم حاكم أموي بلغت الأندلس في عهده ذروة تقدمها الحضاري واستقرارها السياسي – سوى نفر يسير من الزوجات وأمهات الأولاد وحظيات المتعة وجواري الخدمة لا يتجاوز العشرين. ولن نسأم من ترداد ما قلناه سابقاً من أن الذي عثرنا عليه من التراث الأندلسي هو الذي سمح لها بهذه المعلومات والحقائق. ومن يدري فلربما يسهم جهد التقصي في البحث عن التراث الأندلسي الضائع في سد هذه الفجوة. كما أننا لا نبالغ في إظهار دهشتنا كثيراً، لأنه حتى التاريخ الحيوي أو التاريخ للحياة الأسرية لكثير من قصور خلفاء بني العباس في المشرق لم يكن معروفاً لدينا. ولعل هذا يؤكد القول الذي يتردد دائماً وهو أن اهتمام الكثرة الكاثرة من مؤرخينا يتركز على الجانب السياسي، وما تفلَّت من

الجوانب الاجتماعية والاقتصادية هو قليل نسبياً أمام تلك الكثرة الكاثرة من التأريخ للجانب السياسي. ولعل ما يصدق على حياة المجتمع يصدق على الجانب الأسري لأمراء الدولة الإسلامية وخلفائها، وبخاصة الخلفاء العباسيون، اللهم إلا ما تفلَّت من أخبار ومعلومات عن سيدات في البلاط العباسي حفرن لهن في التاريخ مواقع. وبعد هذا فلا نظن أن ثمة مكاناً واسعاً للاستغراب والدهشة.

ونترك عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر لنتحدث عن عهد ابنه الخليفة الحكم المستنصر الذي يعد عهده امتداداً لعهد أبيه الخليفة الناصر لدين الله منقبين مفتشين عن أعلام لجواري متعة وجواري خدمة فلا نجد – أيضاً – إلا النزر اليسير. أما جواري المتعة بشقَّيها: الجنسي والمعنوي فإن طبيعة تركيبة شخصية الخليفة الحكم المستنصر الجادة التي تركزت حول العلم والثقافة لم تصرفه إلى هذين الجانبين(٢٣٦) وإضافة إلى هذا إن الخليفة المستنصر الذي تولى الخلافة وهو في سن الكهولة رسم له أبوه خط حياته الجادة بعيداً عن دواعي اللذة الجنسية والمعنوية(٢٣٧) وخير ما يؤكد قولنا هذا أن الرجل لم يتزوج في حياته سوى امرأة واحدة، هي صُبح أم ابنه وولي عهده هشام المؤيد بالله، وما عرفنا له سريات كان يفضي إليهن، كما أننا لم نعثر على خبر لجواري متعة معنوية، ونقصد التمتع بأجواء الأدب والغناء التي كان يشيعها جوارٍ دُرِّبن ووجِّهن لذلك، وهو أمر شائع ذائع عرفه البلاط لدى العديد من الحكام المسلمين في الدولة الإسلامية على امتدادها منذ قيام الدولة الأموية المشرقية وخليفتها الدولة العباسية.

على أننا عثرنا على معلومات وأخبار عن وجود جواري خدمة للخليفة الحكم المستنصر. ولا تأخذنا الدهشة عندما نجد ما تسرب من معلومات عن جواري الخدمة أولئك، يدور حول جوار كنَّ كاتبات للخليفة المثقف الحكم المستنصر، مثل: الجارية: لُبنى وقد توفيت سنة ٣٧٤هـ(٢٣٨)، ثم هذه جارية ثانية كاتبة دلَّنا عليها ابن عبدالملك المراكشي(٢٣٩) وإن لم يسمها لنا.

وننتقل إلى عهد الخليفة الأموي الثالث: هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر

فنجد إشارة إلى جارية له تدعى: شعب[٢٤٠] ثم إشارة غامضة وردت عند ابن عذاري[٢٤١] أيضاً لجاريتين للخليفة هشام المؤيد، وإن لم يسمهما لنا ابن عذاري. ويمدُّنا ابن عبدالملك المراكشي[٢٤٢] بخبر مهم عن جارية للخليفة هشام المؤيد تدعى نظام، وقد مارست دوراً سياسياً سنذكره في موضعه بعد إن شاء الله، كما أورد ابن عبدالملك أيضاً خبراً عن امرأة تدعى أميمة[٢٤٣] مارست هي الأخرى دوراً سياسياً في الأحداث الجسام التي واجهها الخليفة هشام المؤيد بالله أيام الانقضاض عليه وخلعه على يد ابن عمه محمد بن هشام بن عبدالجبار المهدي بالله، وهو ما سنقف عنده من بعد في موضعه إن شاء الله.

أما أعلام جواري المتعة وجواري الخدمة لخلفاء عصر الفتنة، ومعولنا في أخبارهن ابن عذاري. فالبداية بالطبع هي مع الخليفة الأول، وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار الملقب بالمهدي بالله. لقد وجدنا ذكراً لنسوة كنَّ حول هذا الخليفة الطائش مارسن أدواراً عبثية، سنتحدث عنها في موضعها بعد في الصعيد السياسي. ولم يرشدنا ابن عذاري إلى أسماء هؤلاء النسوة وصفتهن: هل هن جواري متعة أم جواري خدمة؟ وأغلب الظن أنهن جواري متعة عابثات. أما الخليفة الأموي الثاني في سلسلة خلفاء عصر الفتنة وهو سليمان بن الحكم المستعين بالله، فقد أرشدنا ابن عذاري إلى ذكر ثلاث جواري متعة كنَّ لهذا الخليفة، كان شغوفاً بهنَّ وإن لم يسمهن لنا، وسنقف معهن في الحديث عن مظاهر النفوذ الثقافي للمرأة في البلاط الأموي.

أما الخليفة الأموي الثالث من خلفاء عصر الفتنة: عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار الملقب بالمستظهر بالله، فيبدو أن مدة حكمه القصيرة جداً (٤٧ يوماً) واضطراب الأحوال في الأندلس في ذلك الوقت، ثم خلو وفاضه المالي لم يمكنه من أن يؤثِّل دعائم بلاط ملكي كما هو معلوم. والأمر نفسه يقال عن الخليفة محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن عبدالرحمن الناصر، الملقب بالمستكفي وهو الخليفة الرابع مع أن فترة حكمه أوسع من فترة حكم الخليفة عبدالرحمن المستظهر بالله حيث حكم مدة ١٦ شهراً. إذ لم نجد ذكراً لجواري متعة وجواري خدمة كن يحطن به.

وأما الخليفة الأموي الخامس والأخير: الخليفة هشام بن محمد بن عبدالملك ابن عبدالرحمن الناصر الملقب بالمعتد بالله، فقد أمدنا ابن عذاري بخبر عن وجود جواري قينات مارسن دوراً عبثياً في بلاطه. وسنتحدث عن هذا الأمر لاحقاً في موضعه بعد من بحث مظاهر النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي[٢٤٤].

الهوامش

(١) إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبدالقادر ومحمد علي النجار: المعجم الوسيط، الجزء الأول، ص٢٨.

(٢) ابن ماجة (ت ٢٧٥هـ): سنن ابن ماجة، حقَّق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه، وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي، منشورات دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، جزءان، الجزء الأول، كتاب الفتن، باب أمهات الأولاد، الحديث رقم ٢٥١٥، ص٨٤١، وانظر ما قاله المحقق في الصفحة نفسها عن أقوال العلماء في أحد رواة هذا الحديث من تركه وتضعيفه.

(٣) انظر ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ): العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، منشورات دار الفكر، القاهرة (د.ت)، ٤ مجلدات في ٨ أجزاء، الجزء السابع، ص١٢٢، حيث الإشارة إلى هذا، وحيث المزيد من المعلومات عن مواقف العرب من أبناء أمهات الأولاد، وللمزيد عن المعنى الشرعي لأم الولد انظر ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ): المغني، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو، منشورات هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ١٤ جزءاً، الجزء الرابع عشر، أول كتاب عتق أمهات الأولاد، ص٥٨٠-٦٠٨.

(٤) انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد، الجزء السابع، ص١٢٢-١٢٣.

(٥) أطبقت كل المصادر على تأكيد هذه المعلومة، ونكتفي هنا فقط بمصدر واحد هو الذهبي (ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م): سير أعلام النبلاء، وقف على تحقيقه وضبط نصوصه محمد شعيب الأرناؤوط، منشورات الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ٢٥ مجلداً. وعن الخبر انظر المجلد الخامس، ص٤٢١-٤٢٢ حيث قولة الذهبي: قلت كان أولى بالخلافة من سائر إخوته.

(٦) عن هذا كله انظر: ابن عبد ربه: المصدر السابق والجزء، ص١٢٣-١٢٥.

(٧) الضبي (ت ٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م،

جزءان، الجزء الأول، ص٣٢ – ابن الأبار (ت ٦٥٨هـ): الحلة السيراء، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، منشورات الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م، جزءان، الجزء الأول، ص٣٥.

(٨) ابن عبد ربه: نفسه والجزء، ص١٢٤–١٢٥.

(٩) انظر مثلاً لذلك: السيوطي (ت ٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٤، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص٢٥٦–٤٧٧ حيث يتضح أن الثمانية والثلاثين خليفةً عباسياً لم يكن فيهم ابن حرة سوى اثنين هما: السفاح أول خليفة، ومحمد الأمين بن هارون الرشيد – الخليفة السادس – فحسب.

(١٠) ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية، الجزء الثاني، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص٥٠، المقري: المصدر السابق، المجلد الأول، ص٣٣٤.

(١١) ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٦١.

(١٢) الحُميدي (ت ٤٨٨هـ): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، جزءان، الجزء الأول، ص٣٩ – الضبي: بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الجزء الأول، ص٣٣.

(١٣) الأولاد في اللغة: جمع ولد، والولد: كل ما وُلِدَ، ويطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع. أما الأبناء، وهي جمع ابن، فلا يطلق إلَّا على الولد الذكر، انظر: «إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، الجزء الثاني، ص١٠٦٩» عن لفظة الأولاد، والجزء الأول، ص٧١ عن لفظة الأبناء.

(١٤) انظر المقري: نفسه، الجزء الأول، ص٣٣٣.

(١٥) تطرق ابن حزم (ت ٤٥٦هـ): جمهرة أنساب العرب، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، منشورات دار الكتب العلمية،

بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٩٤-٩٥ إلى ذكر أسماء أولاد الأمير عبدالرحمن الداخل الذكور فليراجع هناك.

(١٦) راجع ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٦١ وهو الوحيد الذي انفرد بهذا، وإن كان ابن حزم: المصدر السابق أعلاه، ص٩٥-٩٦ قد أشار إلى الذكور منهم وسمّاهم لنا.

(١٧) الحميدي: جذوة المقتبس، الجزء الأول، ص٣٩ - الضبي: بغية الملتمس، الجزء الأول، ص٣٤ - ابن عذاري: المصدر السابق، ص٨٦ - المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٤١-١٤٢.

(١٨) ابن عذاري: نفسه. ولئن كان ابن عذاري لم يسردهم لنا، فإن ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٩٧-٩٨ قد سرد لنا أسماء الذكور منهم، وإن قال إنهم ١٨ ولداً ذكراً، لا ١٩ كما قال ابن عذاري. أما المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص٤١ فيؤكد أن عدد أولاد الأمير الحكم بن هشام ٤٠ منهم ٢٠ ابناً، و٢٠ بنتاً.

(١٩) الحميدي: المصدر نفسه والجزء، ص٣٩ - الضبي: المصدر السابق نفسه والجزء، ص٣٥ - ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٨١.

(٢٠) مؤلف مجهول (من رجال القرن الثالث الهجري): أخبار مجموعة في فتح الأندلس، وذكر أمرائها رحمهم الله، والحروب الواقعة بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ضمن المكتبة الأندلسية، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص١١٤-١١٥.

(٢١) نشر فِصلةً منه شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول (القاهرة لاحقاً) المجلد الثالث عشر، الجزء الأول، مايو، ١٩٥١م، ص٧٥.

(٢٢) انظرص٧٥ من الفِصلة، ثم انظر ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ): المغرب في حُلى المغرب، حقَّقه شوقي ضيف في جزأين، منشورات دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م، الجزء الأول، ص٤٥ حيث يوافق ابن حزم في عددهم، ثم انظر المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص٣٢٥ حيث يجاريهما هو أيضاً في ذلك.

(٢٣) ص٩٨.

(٢٤) انظر الدراسة الواسعة والجيدة التي سطَّرها محمود علي مكي، وهو يقدم للقطعة التي حققها من كتاب ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس – أشهر كتب ابن حيان مطلقاً، وهي القطعة الثانية من الكتاب، ص٧-١٥٧، ثم انظر تحديداً، ص١٠٤-١٢٤ حيث استوعب المحقق ما قاله المؤرخون القدامى والمحدثون في حق ابن حيان.

(٢٥) انظر ص٢٥، من القطعة الثانية بتحقيق محمود علي مكي.

(٢٦) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٨١.

(٢٧) الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٠ أما الضبي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٦، فيقول إنها تدعى تهتر، مع موافقته للحميدي في أنها أم ولد.

(٢٨) ابن عذاري: نفسه، الجزء الثالث، ص٩٣.

(٢٩) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٩١ – ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس بتحقيق محمود علي مكي، ص١٠.

(٣٠) ابن حيان: القطعة الخامسة من المقتبس بتحقيق شالميتا، ص١٠٥ مع الحواشي.

(٣١) ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس أعلاه، ص١٠٥.

(٣٢) ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس أعلاه، ص١٠، ولقد علَّق المحقق محمود علي مكي في التعليق رقم (٥٤) ص٤١٠ قائلاً: إنه وجد ترجمة لفجر هذه في كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعي (ت ٦٥٨هـ) في الطبعة التي تعهَّدها كل من المستشرق بالنثيا والمستشرق ألاركون. على أننا لم نجد لها ذكراً في الطبعة التي حقَّقها إبراهيم الأبياري ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية التي نشرتها دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م (انظر المقدمة) أقول لم نجد لها ذكراً في هذه الطبعة. مما يعني أن هذه الطبعة لم تستوعب كل كتاب التكملة لابن الأبار؟

(٣٣) انظر التعليق رقم (٥٤) الذي عقده محقِّق القطعة الثانية من المقتبس محمود علي مكي في هامش ص٤٣٢ حيث يذكر أن ابن القوطية: المصدر السابق؛ أي

تاريخ افتتاح الأندلس قد سماها بذلك. وفي الحقيقة أننا لم نجد في الطبعة التي حققها إبراهيم الأبياري ونشرتها دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية حسبما أشرنا في حواش مضت. ونتساءل هنا – أيضاً – هل هذا يعني أن نسخة دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني لم تستوعب كل كتاب افتتاح الأندلس لابن القوطية؟.

(٣٤) انظر التعليق رقم (٥٤)، ص٤٣٢ من القطعة الثانية من المقتبس لابن حيان بتحقيق محمود علي مكي، حيث ينقل عن نسخة المستشرقين بالنثيا وآلاركون لكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار.

(٣٥) انظر محمد عبدالوهاب خلاف: تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، منشورات المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٥٨٥ نقلاً عن مصدر مخطوط للقاضي أبي الأصبغ عيسى المعروف بـ: ابن سهل، وهو مخطوط الأحكام الكبرى، موجود بالخزانة العامة بالرباط/المغرب. ومن أسف أنه لم يقدر لي الاطلاع على هذا المخطوط.

(٣٦) انظر محمد عبدالوهاب خلاف: تاريخ القضاء في الأندلس، ص٥٨٥ وقد ورد اسمها عنده مرة: اعتزاز، ومرة اهتزاز. ويبدو أن الأصوب هو اعتزاز كما ورد في كتابه قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري – الحياة الاقتصادية والاجتماعية، منشورات الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ص٥٨ حيث ينقل عن مخطوطات لم يقدر لنا الاطلاع عليها.

(٣٧) الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٨.

(٣٨) الجزء الأول: ص٤١.

(٣٩) الجزء الثاني، ص١٢٠.

(٤٠) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٩٤.

(٤١) نفسه مع ذات الصفحة.

(٤٢) جمهرة الأنساب، ص٩٨.

(٤٣) النَّيف: الزائد على غيره، والزائد على العقد من واحد إلى ثلاثة. انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، الجزء الثاني، ص٩٧٣.

(٤٤) ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والألّاف، حقَّقه وصوَّبه وفهرس له حسن كامل الصيرفي، وقدَّم له إبراهيم الأبياري، ص٥ – ابن حيان: المقتبس في تاريخ الأندلس، القطعة الخاصة بعهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن (٢٧٥-٣٠٠هـ) تحقيق وشرح وتعليق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص٤١ – المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٥٨١، ويكتفي بالقول إنها أم ولده – أي الأمير محمد بن عبدالرحمن – الأمير المطرف.

(٤٥) ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس بتحقيق محمود علي مكي، ص٢١٣-٢١٤.

(٤٦) ابن عذاري: المصدر السابق، ص١١٣.

(٤٧) ابن عذاري: نفسه، الجزء الأول، ص١٥١.

(٤٨) انظر عبدالواحد ذو النون: مقال بعنوان قيام الممالك الأسبانية وعلاقتها مع العرب في الأندلس، مجلة أوراق. وهي مجلة ثقافية محكمة يصدرها المعهد الأسباني العربي للثقافة بمدريد، العدد الخامس والسادس، ١٩٨٢-١٩٨٣م، ص٩٦-٩٧ مع الحواشي، وانظر أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، أثر البيئة الأوروبية، مقال بمجلة عالم الفكر الصادرة عن وزارة الإعلام؛ الكويت، العدد الأول، المجلد العاشر، ١٩٧٩م، ص٦٣.

(٤٩) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٢١، ١٥١.

(٥٠) نضرب مثلاً بحالة واحدة تاريخياً، فالخليفة العباسي الأول المشهور بـ: السفاح اسمه: عبدالله، ويكنى بـ أبي العباس، والخليفة العباسي الثاني، المنصور اسمه عبدالله هو الآخر ويكنى بـ: أبي جعفر – كما لا خفاء ويلقب بالمنصور كما لا خفاء ايضاً.

(٥١) انظر ما قلناه قبل عن هذا التقسيم.

(٥٢) الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٢ – الضبي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٩ – ابن عذاري: المصدر السابق، ص١٥٦.

(٥٣) انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس – الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص٣٧٣ وقارنه بما قاله ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١–١٠٣١) ترجمه إلى الأسبانية: إميليو جارثيا جومث، وترجمه إلى العربية: علي عبدالرؤوف البمبي، وعلي إبراهيم المنوفي، والسيد عبدالظاهر عبدالله، مراجعة صلاح فضل، منشورات المجلس الأعلى المصري للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٥٤) القطعة الخامسة بنشر شاليمتا وفردريكو كورينطي ومحمود صبح، منشورات المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب، الرباط، ١٩٧٩م، ص٧، وانظر كذلك الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٢ – الضبي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٠، وقد قدمتها لنا مصادر أخرى مثل ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٢٣ باسم: مهرجان، فيما أطلق عليها المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٦٠–٣٦١ مرجانة.

(٥٥) انظر: ابن حيان: القطعة الخامسة أعلاه، ص٧–٩.

(٥٦) إلى هذا – نصاً – أشار ابن حيان: القطعة الخامسة من المقتبس بنشر شالميتا، ص١٣–١٨.

(٥٧) القطعة الخامسة من المقتبس بتحقيق شالميتا، ص٧، ٨، ٩، ١٢، ١٣.

(٥٨) ذلك أن عدد أبناء الخليفة الناصر ١٢ ابناً، فهي بهذا قد ظفرت منه بثلث عدد أبنائه علاوة على أنها أنجبت منه ابنتين؛ هما هند وولادة كما عرفنا في المتن آنفاً.

(٥٩) اللبابة من لب لبابَة، صار ذا عقل، فهو لبيب والجمع ألِباءُ. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٨١٧.

(٦٠) أي ضراتها، ومع ذلك فلم تقصر هي ذاتها في كيد ضرتها الحرة الأميرة فاطمة كما تردد من قبل.

(٦١) لا ندري ما المقصود بكلمة: استعمال اللهم إلا أن يكون المقصود: استغلال أي استغلال حسد ضراتها وما ينفسن عليها من حب الخليفة لها بالإمعان في استغلال حبه في تحقيق مآربها.

(٦٢) الأميرة فاطمة بنت المنذر المشار إليها أعلاه هنا في الهامش، وكذا في المتن والتي سنقف معها وقفة متأنية من بعد حسبما وعدنا.

(٦٣) الكرائم مفردها: كريمة، وكريمة الرجل: ابنته وإن كان من العامة من يعني بها أيضاً: الشقيقة. عن أن الكريمة هي ابنة الرجل انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق نفسه الجزء الثاني، ص٧٩٠.

(٦٤) الالتياث: الضعف والاسترخاء. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، ص٨٥٠.

(٦٥) انظر بعد مبحث جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

(٦٦) القطعة الخامسة من المقتبس، ص٨.

(٦٧) انظر بعد مبحث جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

(٦٨) انظر تفاصيل ذلك عند ابن حيان: القطعة الخامسة من المقتبس، ص٣٧ ثم انظر لاحقاً مبحث: جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

(٦٩) إلى هذا – أي الإشارة إلى أسماء الأمراء المذكورين في المتن – أشار ابن حيان: القطعة الخامسة نفسها أعلاه، ص١٤–٢٠ ويلاحظ أن ابن حيان الذي قال في ص١٧ من القطعة الخامسة أعلاه إن عدد أبناء الناصر ١١ ابناً، لم يشر إلا إلى ١٠ منهم فقط، هم: (الحكم، عبدالعزيز، عبيدالله، المنذر، المغيرة، عبدالله، الأصبغ، عبدالجبار، عبدالملك، سليمان)، كما أشار إلى هؤلاء الأبناء العشرة ومن ترك عقباً منهم، ابن حزم: الجمهرة، ص١٠٠–١٠١.

(٧٠) إلى هذا الابن الحادي عشر وأعقابه من بعده، أشار ابن حزم: الجمهرة نفسها، ص١٠٤.

(٧١) إلى هذا الابن الثاني عشر المكنى بأبي الوليد، أشار ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٦٨، ومع انفراده بهذا الخبر فقد وضعنا في إشكالية، فهو يقول إن هذا الابن الذي توفي سنة ٣٠٢هـ هو بكر والده عبدالرحمن، في الوقت الذي نجد ابن حيان وهوقريب عهد بعهد الخليفة

الناصر، وكذا ابن حزم وهو أيضاً قريب عهد بعهد الناصر يقولان إن الحكم هو بكر أولاد الخليفة عبدالرحمن الناصر.

(٧٢) ابن حيان: القطعة الخامسة نفسها، ص١٨.

(٧٣) إلى هذه الأميرة أشار ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص١٧١.

(٧٤) الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٦ – الضبي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٣ – ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٥١–٢٥٣ – المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٣٩٩.

(٧٥) عن إقليم الباسك (البشكنش في المصادر الإسلامية)، (Bosques Sp. vascones) الذي يقع في شمال شرقي أسبانيا، انظر البكري (ت ٤٨٧هـ): جغرافية الأندلس وأوروبا – من كتاب المسالك والممالك – تحقيق عبدالرحمن علي الحجي، منشورات دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، ص٧٩.

(٧٦) انظر ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٣٥، ٢٥١، ٣٥٣.

(٧٧) انظر ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٣٥، ٢٥٣.

(٧٨) انظر ابن منظور (ت ٧١١هـ): لسان العرب، منشورات دار الفكر ودار صادر، بيروت، (د.ت) خمسة عشر مجلداً، المجلد الرابع، ص١٤٢.

(٧٩) عن هذا الموضوع، انظر ابن حزم: الجمهرة، ص١٠٠، حيث استوقفت ابن حزم ثقافة الخليفة الحكم ومدى حبه للعلم وكيف ملأ دنيا الأندلس بجميع كتب العلوم.

(٨٠) الصرورة في اللغة: الرجل الذي لم يتزوج، وتطلق كذلك على من لم يحج، وللمزيد من معاني الصرورة واشتقاقاتها اللغوية، راجع ابن منظور: لسان العرب، المجلد الرابع، ص٤٥٣.

(٨١) ص١٠٠.

(٨٢) الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٩ – الضبي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٥ – ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٥٠.

(٨٣) الجمهرة، ص١٠٢.

(٨٤) الضبي: نفسه، ص٤٦ – ابن عذاري: نفسه، الجزء الثالث، ص٩١.

(٨٥) ابن بسام (ت ٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ٤ أقسام، ويقع كل قسم في مجلدين، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، الجزء الأول، ص٥٥.

(٨٦) ص١٠٢.

(٨٧) انظر: ص١٠٣.

(٨٨) الصفحة ذاتها.

(٨٩) الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٥٦ – الضبي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٦ – ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٥٦.

(٩٠) الحميدي: نفسه، الجزء الأول، ص٥٧ – ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص١٣.

(٩١) ابن حزم: الجمهرة، ص١٠١.

(٩٢) الحميدي: نفسه، الجزء الأول، ص٥٨ – الضبي: نفسه، الجزء الأول، ص٥٥ – ابن عذاري: نفسه، الجزء الثالث، ص١٤٠.

(٩٣) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الأول، ص٤٣٣. ولقد قال المحقق إحسان عباس في حاشية عقدها في هامش الصفحة إنها نسبة إلى مدينة: مورو الأندلسية، وهي إحدى مدن الأندلس المعروفة، كما وجدنا التسمية نفسها لدى ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، الجزء الثاني، ص٥٥.

(٩٤) هذا بعيد جداً، فـ: المروزية قد تكون نسبة إلى مدينة: مرو في خراسان والنسبة إليها مروروذي ومروذي. انظر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٥ مجلدات، المجلد الخامس، ص١١٢. ومن هنا فالحقيقة أن ما قاله ابن بسام هو الصواب هنا، فهذه المرأة أندلسية من مدينة مورور الأندلسية. ومورور: Moroa Dela-rontera مدينة تتصل بأحواز مدينة قرمونة، إحدى مدن الأندلس المعروفة.

وللمزيد عن قرمونة، انظر: الحميري (ت ٩٠٠هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق إحسان عباس، منشورات مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٩٤م، ص٥٦٤.

(٩٥) انظر بعد.

(٩٦) الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٥٩ – الضبي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٥٦.

(٩٧) ابن حزم: الجمهرة: نفسها، ص١٠١.

(٩٨) السراري، مفردها: السُّريَّة، والسّريَّة: الجارية المتخذة للملك والجماع، واستسرَّ الرجل جاريته بمعنى تسرَّاها أي اتخذها سُرية، والسُّريَّة الأمة التي بوأتها بيتاً، وهي فعلية منسوبة إلى السرِّ، وهو الجماع والإخفاء، لأن الإنسان كثيراً ما يسُرُّها ويَسْتُرُها عن حُرَّته. ابن منظور: المعجم السابق، المجلد الرابع، ص٣٥٨.

(٩٩) عن تصنيف الجواري إلى جواري متعة، وجواري خدمة، وجواري أمهات الأولاد، انظر ابن عبد ربه، المصدر السابق، المجلد السابع، ص٩٦ حيث يسرد قولاً للخليفة عبدالملك بن مروان مفاده: أن من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أراد للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد للخدمة فليتخذها رومية. ثم انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبو ريدة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، مجلدان، المجلد الأول، ص٣٠٠-٣٠٦ حيث استوعب الباحث حديث السراري بصورة دقيقة.

(١٠٠) القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآيتان ٥،٦.

(١٠١) انظر بعد مبحث حرائر الأمراء والخلفاء.

(١٠٢) انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية، المجلد الأول ص٣٠٠ وما بعدها.

(١٠٣) نفزة، قبيلة بربرية ومضاربها تقع تركيزاً في المغرب الأدنى (إفريقية) وقد يقال: نفزاوة. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر، ص٢٦٢.

(١٠٤) انظر ما قلناه قبل عن الباسك.

(١٠٥) جلِّيقيَّة: منطقة واسعة في الأندلس تقع في الشمال الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية وتمتد من نهر دويرة Duero جنوباً حتى الساحل الشمالي لشبه الجزيرة الأيبيرية، ومن الساحل الغربي لها حتى قشتالة Castilla. انظر البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك حاشية (١) ص٧١.

(١٠٦) غاليسيا: Galicia – هي جزء من بلاد الغال Gallos, Gual, Gallia – وهي تمثل قسماً من فرنسا أو جنوبها أحياناً، وقد تشمل أبعد من ذلك.
انظر البكري: المصدر السابق، الحاشية (٦) ص٥٩.
وقد ترسم غاليسيا في بعض المصادر بـ: غاليش أو غاليس أو غالة (Galia) Gaul: انظر الحاشية (١١) ص٩٣ من نفس المصدر.

(١٠٧) الصقلبيات، نسبة إلى الصقالبة، أو الصقلب. والصقالبة هم من يسمون اليوم بـ: السلاف (Eng: slave.sp: esclavos) ويرجعون في الأصل إلى الجنس الآري، وينقسمون إلى شعوب عديدة سكنت بلداناً مختلفة منها: بلغاريا وبولندا وبوهيميا والتشيك وسولوفينيا وبعض مناطق روسيا. انظر البكري المصدر السابق الحاشية (١) ص١٥٥. وللمزيد من أخبار الصقالبة والتفريق بينهم كشعب وكطبقة بعد أن شملت هذه التسمية أولئك الرقيق الأوروبيين المجلوبين إلى أسواق الأندلس من بلاد السلاف وغيرها من بلاد أوروبا وبيعهم بيع العبيد. انظر أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢١١-٢١٢ وانظر ما كتبه أحمد مختار العبادي – كذلك – في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثالث عشر، ١٩٥٣م، ص٤٥ وما بعدها. وانظر سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١٠، ١٩٨٦م، جزءان، الجزء الأول، ص٥٩٦-٦٠٢.

(١٠٨) انظر: عبدالواحد المراكشي (ت ٦٤٧هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة تحقيق التراث الإسلامي، الكتاب الثالث، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م،

ص٦٠-٦١. وانظر في ذات السياق ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٣، وعن المزيد من تحليل ظاهرة الرقيق والميل إلى الأوروبيات بصفة خاصة انظر أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢١٣-٢١٥ - الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، منشورات دار المعارف، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٣٠.

(١٠٩) انظر مثلاً لذلك إميليو غرسية غومس: الشعر الأندلسي، ترجمه للعربية حسين مؤنس، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٤٨-٤٩ - هنري بيرس: الشعر الأندلسي في عهد الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية، ترجمه للعربية الطاهر أحمد مكي، منشورات دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٥٦، ٢٥٨.

(١١٠) انظر على سبيل المثال: أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، أثر البيئة الأوروبية، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، المجلد العاشر، ص٦٢-٦٣.

(١١١) هذه الباحثة هي: راوية عبدالحميد حسانين شافع، وقد كتبت بحثاً على غاية من الأهمية لرسالتها للماجستير بعنوان: «دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي من الفتح العربي للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية ٩٢-٢٢٥هـ/٧١١-١٠٣١م» (لم ينشر بعد). وعن رأيها المشار إليه في المتن انظر ص٦٢.

(١١٢) عن صفات الجنس الآري وتصنيف الأجناس البشرية والمواطن التي تقطنها هذه الأجناس بحسب خصائصها الجسمانية، وما يتجاوز ذلك من نظرية أصل الأجناس البشرية بحسب المفهوم الحضاري للإنسان وموقف الإسلام من تلك النظريات، انظر عبدالعليم عبدالرحمن خضر: أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم، منشورات شركة تهامة - الكتاب الجامعي، جدة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٧٩-٨٦، وص٢١٨-٢٢٤.

(١١٣) ابن حزم: طوق الحمامة، ص٢٨-٢٩، ولقد ناقش العديد من المستشرقين هذا الأمر وطاروا به طيراناً ممجوجاً، فلقد خرجوا منه بنظرية غلفوها - واهمين - بمسوح علمية، وهي أن أمراء بني أمية وخلفائهم يعدون أسباناً

نظراً للنسبة العالية من الدم الأسباني الذي يجري في عروقهم. وقد تصدى لهذه النظرية عدد من الباحثين العرب، ومنهم الباحثة راوية عبدالحميد حسانين شافع التي وقفت وقفة جادة في مناقشة أقوال المستشرقين وتفنيدها.

انظر رواية عبدالحميد شافع: رسالة الماجستير غير المنشورة: دور المرأة في المجتمع الإسلامي في الأندلس، ص٧٣-٧٤، ١٠١-١٠٢ وانظر كذلك ميل أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، منشورات دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٧٩م، ص٣٥-٣٧ إلى الأخذ بأصل النظرية دون المضي بها إلى آخر الشوط بحسب تعبيره نصاً.

(١١٤) الحرائر، جمع حُرَّة، والحرة كما لا خفاء: نقيض الأَمَة. انظر ابن منظور: المعجم السابق، المجلد الرابع، ص١٨١.

(١١٥) هذا ما نقلناه بشيء من التحوير من كتاب دولة النساء لعبدالرحمن البرقوقي، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت) وهو كتاب شاء صاحبه أن يكون معجماً ثقافياً واجتماعياً ولغوياً عن المرأة. عن موضوع رمي النساء بالكيد والمكر وما إليهما من صفات، والموقف العلمي من المعايب التي رميت بها المرأة بحق وبدون وجه حق، ومنافحة المؤلف ودفاعه عن المرأة - ونحن نتفق معه في ذلك - انظر الباب الثامن من كتاب دولة النساء أعلاه، ص٤٧٣ وما بعدها.

(١١٦) عن وضعية الحرة في المجتمع الأندلسي - وبالمقابل الأوضاع التي عاشت فيها ومعها الأمة أو الجارية في المجتمع نفسه - وما شكَّله وجودهن من ذوق عالٍ لدى المجتمع، وكذا النظرة لهن وتعامل المجتمع الإسلامي شرقاً وغرباً مع هذه الوضعية الاجتماعية انظر صلاح خالص: أشبيلية في القرن الخامس الهجري، منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٩٢-٩٩ - مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م، ص٤٣-٤٨. وعن وضيعيَّتي الحرة والجارية في المجتمعات المشرقية بالدولة الإسلامية انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، المجلد الأول، ص٣٠٠-٣٠٤، المجلد

الثاني، ص١٧٧-١٨٠ - أحمد أمين: ضحى الإسلام، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ (د.ت) ٣ أجزاء، الجزء الأول، ص٧٩-١٠١ - أحمد خليل جمعة: نساء في قصور الأمراء، منشورات اليمامة، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٩٢-٣٠٠ حيث استوعبت هذه المراجع أوضاع الحرائر والإماء والقيان استيعاباً جيداً: رصداً وتحليلاً وتعليلاً ارتكازاً على ما جاء في المصادر بهذا الخصوص.

(١١٧) كتب الكثير عن الحياة الاقتصادية في الأندلس في عهد الدولة الأموية، سواء أكانت تآليف عادية أم أطروحات علمية. ولعلنا هنا نكتفي بالإشارة إلى كتاب بعنوان: النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة الأموية لخالد بن عبدالكريم بن حمود البكر، وهو في الأصل رسالة ماجستير. على كل انظر الفصول: الثاني والثالث والرابع من ص١٠٠-٢٩٨. وللمقارنة انظر حديث القدامى عن رخاء الأندلس وما أثاره لغط بعض من مؤرخي المشرق، وتحديداً ابن حوقل عن هذا الرخاء وردّ مؤرخي الأندلس عليه لدى المقري: نفسه، الجزء الأول، ص٢١٠-٢١٢.

(١١٨) انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس - الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص٤٥٠-٤٥٦ حيث استوعب وناقش مجمل الأقوال في هذا الصدد التي ذكرها عدد من المؤرخين القدامى وقارن هذا بما قاله ليفي بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ص٣٩٢-٣٩٣ حيث يورد أرقاماً أخرى متفاوتة لأولئك الخدم.

(١١٩) لخم قبيلة يمنية معروفة لها تاريخ حافل، وكانت مساكنها متفرقة في عدد من الأمصار الإسلامية. وللمزيد من أخبار هذه القبيلة، راجع عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، منشورات مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٥ مجلدات، المجلد الثالث، ص١٠١١-١٠١٢.

(١٢٠) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير اللخمي، صحابي معروف شهد بدراً والحديبية وتوفي سنة ٣٠هـ. انظر ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت) ٤

أجزاء، الجزء الأول، الترجمة ١٥٣٨، ص٢٩٩-٣٠٠ حيث نقلنا عنه هذا وحيث المزيد من أخباره.

(١٢١) انظر مثلا: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٩٤.

(١٢٢) استوفى المؤلف المجهول صاحب كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، ص٤٩-٥٧ أخبار هروب عبدالرحمن من المشرق، وقارن هذا بما كتبه ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٤٠-٤١ - المقري: المصدر السابق، المجلد الأول، ص٣٢٨-٣٢٩.

(١٢٣) انظر مؤلف مجهول: كتاب أخبار مجموعة، ص٥١.

(١٢٤) ص٥١ نفسها.

(١٢٥) انظر مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٧٩ - ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٤٥-٤٦.

(١٢٦) انظر كرم ملحم كرم: صقر قريش، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ١٩٦٠م، ص١٩-٦٠، وانظر كذلك ص٢٤٥-٢٤٨.

(١٢٧) عن جواز الأمير عبدالملك بن عمر بن مروان بن الحكم وأولاده إلى الاندلس انظر مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٧ - ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص٥٦-٥٧ - المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٥٩.

(١٢٨) جمهرة أنساب العرب، ص٩٩.

(١٢٩) ابن حيان (ت ٤٦٩هـ): المقتبس، نشر بدر وشالميتا، وتعاون في طبعه فردريكو كورنيطي ومحمود صبح وغيرهما، ويمثل القطعة الخامسة من القطع الموجودة من الكتاب، منشورات المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب بالرباط، ١٩٧٩م، ص٧.

(١٣٠) ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، القطعة الثانية بتحقيق محمود علي مكي، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٨ - ابن الأبار: الحلَّة السِّيَراء، الجزء الأول، ص٢١٠.

(١٣١) ابن حيان: المقتبس، القطعة الخامسة، ص٨.

(١٣٢) ابن حزم: جمهورة أنساب العرب، ص١٠٠-١٠١.

(١٣٣) القطعة الخامسة بتحقيق شالميتا، ص٦-١١.

(١٣٤) السّريَّةُ: الشريفة، والجمع: سرايا وسروات. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص٤٢٠.

(١٣٥) من المعلوم أن عبدالرحمن الناصر تربى في حجر جده الأمير عبدالله الذي أحاطه برعايته بعد مقتل أبيه الأمير محمد. عن هذا انظر ابن حيان: القطعة الخامسة من المقتبس، ص٩ - ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٣٥.

(١٣٦) يرى عدد من الباحثين الغربيين ومنهم ليفي بروفنسال أن عبدالرحمن الناصر بطبيعته المستبدة قد أوجد هو نفسه ذلك الجو من الدسائس والمكائد في بلاطه - المهيأ أصلاً لهذا عطفاً على احتشاد بلاطه من الخدم من الجنسين - انظر ليفي بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، ص٤١٥.

(١٣٧) القطعة الخامسة من المقتبس، ص١٢.

(١٣٨) أي قلَّت مكانتها عنده، ولعلها مأخوذة من الذلة. راجع ابن منظور: المعجم السابق، الجزء الثامن، ص٤.

(١٣٩) ابن حيان: القطعة الخامسة نفسها، ص١٣.

(١٤٠) نفسه، ص١٣.

(١٤١) أعياني معرفة المغزى الذي يقصده ابن حيان هنا بعبارته: ... وغِلَظ الحِجاب.

(١٤٢) عن هذا البعد الأسري انظر مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢٠-١٢٥ - ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص٤٢-٤٣ - المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٣٣٤-٣٣٦ حيث الإشارة الواسعة للعلاقة بينه وبين ابنيه: سليمان وهشام أكبر أبنائه على التوالي.

(١٤٣) عن هذا البعد الأسري انظر ابن حزم: الجمهرة - المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص٥٤، ٤، ٤٧، حيث الإشارة إلى علاقته بأخيه الوليد بن معاوية الذي ثار ابنه المغيرة على عمه الأمير عبدالرحمن الداخل، فقبض عليه وقتله، ونفى أخاه الوليد إلى بلاد المغرب.

(١٤٤) عن هذا البعد الأسري انظر مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٠٩ – ابن حزم: الجمهرة، ص٩٣-٩٤ – ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٥٧-٥٨، المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص٤٤، ٤٦، ٤٧ – حيث الإشارة إلى اثنين من أبناء أخوته ممن ثارا عليه ودبرا له، فقبض عليهما وقتلهما، وهما: عبدالله بن إبان بن معاوية والمغيرة بن الوليد بن معاوية.

(١٤٥) انظر ابن حزم: الجمهرة نفسها، ص٩٠-٩٧ – المقري: نفسه، الجزء الأول، ص٣٢٩ – الجزء الثالث، ص٣٥-٥٨، حيث الإشارة إلى الداخلين على عبدالرحمن الداخل في الأندلس من آل بيته وأشهرهم الأمير عبدالملك بن عمر ابن مروان بن الحكم الذي يعرف بـ: شهاب بني مروان والمكانة العالية التي تبوأها هو وأولاده لدى الأمير عبدالرحمن الداخل. وانظر كذلك مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٧ حيث الإشارة إلى دخول عبدالملك بن عمر بن مروان وجزي بن عبدالعزيز بن مروان وأولادهما إلى الأندلس.

(١٤٦) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٥.

(١٤٧) حققه إبراهيم الأبياري ضمن المكتبة الأندلسية التي نشرتها دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، واحتل هذا الكتاب في السلسلة البالغ عددها ١٦ مجلداً المجلد السادس، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٦٧٦.

(١٤٨) عن مقبرة الربض انظر أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي – تاريخ وحضارة، منشورات مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والتوزيع والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ١٨٦-١٨٧ – محمد عبدالوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري – الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص٥٦-٥٧ وقارن هذا بما كتبه السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي) منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١م، جزءان، الجزء الأول، ص٢٢٦.

(١٤٩) الجزء الثاني، ص٥٣٩، الترجمة رقم ٩٣٦. ولعل في حصولنا على هذا الخبر

عن ابنة الأمير عبدالرحمن الداخل ما يؤكد الأهمية التي تشكلها المصادر المساعدة (ومنها كتب التراجم والطبقات) للكتابة التاريخية. ولكم أمدتنا كتب التراجم والطبقات بأخبار وحقائق تاريخية مهمة لم نجدها في كتب التاريخ العام والخاص. وكتاب ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ): تاريخ علماء الأندلس حققه إبراهيم الأبياري ونشرته دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن المكتبة الأندلسية، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م في ٣ أجزاء.

(١٥٠) مؤلف مجهول: المصدر السابق أعلاه، ص٥١-٥٤ - ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٤١.

(١٥١) الخشني: قضاة قرطبة، ص٦٤.

(١٥٢) الخشني: المصدر السابق، ص٧١.

(١٥٣) أعياني العثور في لسان العرب لابن منظور في حرف الكاف، فصل الكاف، المجلد العاشر، ص٤٨١، على معنى هذا الاسم، وكذا لم أفلح في العثور على معنى هذا الاسم في كتاب ترتيب مختار الصحاح للرازي (محمد بن أبي بكر ابن عبدالقادر) (ت بعد سنة ٦٦٦هـ) حقَّقه شهاب الدين بن أبي عمر، عني بترتيبه محمود فاخر، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م/١٤١٤هـ في باب الكاف ص٦٩٠-٦٩١ ولم أجد ما يشفي الظمأ في المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين، الجزء الثاني باب الكاف ص٨١١ وما بعدها.

(١٥٤) مدينة بلنسية Valensia تقع في شرق الأندلس وهي من كبريات مدن الأندلس. للمزيد عن بلنسية انظر الحميري: الروض المعطار، ص٩٧-١٠١.

(١٥٥) ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٧١. وللمزيد من أخبار عبيدالله البلنسي انظر المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٤٥ وانظر للمقارنة أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٢٧-١٢٨.

(١٥٦) القطعة الثانية من المقتبس بتحقيق محمود علي مكي، ص٢٤ مع الحواشي.

(١٥٧) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٧١.

(١٥٨) ص٩٨.

(١٥٩) ابن عذاري: المصدر السابق، ص١٧١.

(١٦٠) ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص١٤٠–١٤١.

(١٦١) نفسه، الجزء الثاني، ص١٥١.

(١٦٢) انظر للمثل لا الحصر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٦١، ٦٨، ٨١، ٩٤، ١١٣، ١٢١ حيث الإشارة إلى أولاد الأمراء والخلفاء.

(١٦٣) انظر قبل مبحث الإماء أمهات الأولاد.

(١٦٤) نفسه: الجزء الثاني أعلاه، ص١٧١.

(١٦٥) انظر قبل التمهيد.

(١٦٦) ص١٠١.

(١٦٧) ذات الصفحة أعلاه.

(١٦٨) انظر الفِصلة السابقة من كتاب نقط العروس، المجلد الثالث عشر، الجزء الأول، ص٧٠. وعن الأديب أحمد بن رشيق انظر ابن بسام: القسم الرابع، المجلد الأول، ص٧٠ وما بعدها.

(١٦٩) ابن حزم، الجمهرة نفسها، ص١٠٤.

(١٧٠) انظر ابن الأبار: الحلة السيراء، الحاشية (١)، ص١٣١ حيث الإشارة إلى عدد أيام حكمه التي لم تزد عن ٤٧ يوماً والكلام في ذلك.

(١٧١) انظر بعد.

(١٧٢) أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، منشورات اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٤٠٣، ٤١٠، ٤١١، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٩–٤٢٣.

(١٧٣) هذا تصحيحنا لتاريخ وفاة عبدالواحد المراكشي حسبما جاء في مقدمة كتابه: المعجب بتحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي الفاسي، ص (و) أما أحمد خليل جمعة فقد قال إن عبدالواحد المراكشي توفي سنة ٥٨١هـ وهذا وهم منه.

(١٧٤) انظر أحمد خليل جمعة: نساء من التاريخ، ص٤٢٠-٤٢١ حيث الإشارة إلى أقوال المؤرخين.

(١٧٥) انظر أحمد خليل جمعة: نساء من التاريخ، ص٤١٠-٤١٢ حيث التفصيل الواسع لقولي ابن بسام وابن بشكوال في موضوع استهتار ولادة المنسوب إليها.

(١٧٦) أحمد خليل جمعة: نفسه، ص٤١٥.

(١٧٧) ابن حزم: الجمهرة، ص١٠٠-١٠١.

(١٧٨) انظر عبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، منشورات دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م، الفصل الثاني (حياة ابن حزم) ص٦٩-٧٠ حيث استوعب ذكر وظائفه العامة في الدولة الأموية الأندلسية.

(١٧٩) انظر قبل التمهيد حيث الإشارة إلى تقويم المؤرخين القدامى المستكفي وفترة حكمه.

(١٨٠) نسخة مصورة عن طبعة باريس، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي بدار الكتب الوطنية بتونس، منشورات المكتبة العتيقة، سلسلة من تراثنا الإسلامي رقم (١) تونس، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص١٠-١٢، ٨٢-٩١.

(١٨١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٤٢٠-٤٣٣.

(١٨٢) عن مؤلفات ابن حيان انظر مقدمة محقق القطعة الثانية من المقتبس محمود علي مكي، ص٥٠-٨٥.

(١٨٣) كتاب الصلة لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) حققه إبراهيم الأبياري ونشرته دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن المكتبة الأندلسية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ٣ أجزاء، الجزء الثالث، ص٩٩٦.

(١٨٤) حققه إبراهيم الأبياري وحامد عبدالمجيد وأحمد بدوي، راجعه طه حسين، منشورات دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٧٤هـ/

١٩٥٤م، ص٧-١١ حيث التنصيص على انتسابها للمستكفي وذكر شيء من سيرتها.

(١٨٥) المغرب في حلي المغرب، الجزء الأول، ص٦٥-٦٦، ١٤٣، ١٨٠.

(١٨٦) انظر الجزء الأول، ص٤٣٧، وغيرها من الصفحات.

(١٨٧) أحمد خليل جمعة: المرجع السابق، ص٤٢٢.

(١٨٨) دول الطوائف، ص٤٢٥.

(١٨٩) انظر محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص٤٢٥-٤٢٦.

(١٩٠) انظر عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٥ أجزاء، الجزء الخامس، ص٢٩٠ حيث استوعب ترجمة ولادة والاختلاف في سنة وفاتها.

(١٩١) الجمهرة، ص١٠١.

(١٩٢) انظر ابن حزم: الجمهرة نفسها، ص١٠١-١٠٢.

(١٩٣) معولنا في هذا المصطلح - أي علم العرب - الذي يعني (مجموعة المعارف العامة في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التي تتكون منها عناصر الثقافة العربية العامة أو من الفروع التي تشعبت من علم العرب واختصت بالبحث في علوم الدين ثم تميزت باستقلالها) هو محمد سعيد العريان الذي كتب مقدمة ضافية لكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه في إطار تحقيقه لهذه الموسوعة الأدبية. ولقد استوعب محمد سعيد العريان في مقدمته - كما نظن - كل ما تميزت به الموسوعات الأدبية المشهورة في تراثنا بدءاً بالجاحظ ومؤلفه البيان والتبيين، وابن قتيبة ومؤلفه المعارف، والمبرد ومؤلفه الكامل في الأدب، مروراً بعدد كبير لا حصر له، فيهم ابن عبد ربه في عقده الفريد، والقالي في آماليه، وانتهاء بالموسوعات الأدبية المتأخرة وفي طليعتها نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري.
راجع ابن عبد ربه: المرجع السابق، المجلد الأول، ص (أ-م) حيث الإشارة إلى ما قلناه هنا وحيث المزيد من الأخبار أيضاً حول هذا المضمون.

(١٩٤) لاشك في أن هذه التآليف للمستشرقين والباحثين العرب تستمد مادتها من

الموسوعات الأدبية المشار إليها أعلاه، لكنها تختلف عنها في التبويب والتحليل والتعليل.

(١٩٥) انظر ما نقلناه في مبحث الإماء أمهات الأولاد على لسان الخليفة عبدالملك بن مروان في تصنيف الجواري إلى ثلاثة أنواع.

(١٩٦) انظر على سبيل المثال مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه – ص٤٣–٤٧ – صلاح خالص: أشبيلية في القرن الخامس الهجري، ص٩٣–٩٩ – الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص١٨–٥٠ – راوية عبدالحميد حسانين شافع: دور المرأة في المجتمع الإسلامي، ص٨١–١٣٥، وص٣١٩–٣٣٦. حيث استوعبت هذه المراجع مجمل ما يتعلق بالغلمان والجواري في الأندلس مما رصده أصحاب هذه المراجع التي تسنى لنا الإطلاع عليها، وأثبتوه عن المصادر القديمة وكتب المستشرقين سواء الأسبان بخاصة أو الأوربيون بعامة. وللمقارنة بين ظاهرة وجود الغلمان والجواري – وهو ما يخصنا تحديداً – في غرب الدولة الإسلامية وشرقها انظر آدم متز: المرجع السابق، الجزء الأول، ص٢٩٥–٣١٨.

(١٩٧) انظر سالم بن عبدالله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس (١٣٨–٤٢٢هـ/٧٥٦–١٠٣١م) – رسالة دكتوراه نوقشت بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م (لم تنشر) ص١٧٧–١٧٨ حيث استوعب الباحث جميع ما قيل عن كثرة غلمان الخليفة الناصر وجواريه.

(١٩٨) انظر آدم متز: المرجع السابق، الجزء الأول، ص٢٧١–٢٧٢ مع الحواشي حيث الإشارة إلى عدد أولئك السريات واختلاف الأقوال في عددهن بين قائل إنهن بلغن: ٤٠٠ سرية، وقائل ثان: بل هن: ٤٠٠٠ سرية، وقائل ثالث لا بل هن: ١٢٠٠٠ سرية. ولقد ناقش الباحث هذا الأمر بشيء من التفصيل فليراجع هناك.

(١٩٩) هناك رسالتان علميتان – في حدود علم الباحث – استوعبتا الحديث عن

نظم الدولة الأموية ورسومها في الأندلس، أولاهما: رسالة ماجستير للباحث هشام سليم أبو رميلة بعنوان: نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة الأموية وقد تقدم بها إلى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥م، وثانيهما رسالة دكتوراه لباحث سعودي وهو: سالم بن عبدالله الخلف بعنوان: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، وتقدم بها لقسم التاريخ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م (لم تنشر بعد) كما مر قبل قليل.

(٢٠٠) الخُطَّةُ (بالضم): الأمر والحالة، والجمع خُطط، وفي الاصطلاح الإداري معناها نظام Institution فيقال: نظام الوزارة، نظام الإدارة... إلخ. وهي بهذا غير الخِطة (بالكسر) والجمع خِطط التي تعني الحي أو القطائع. وعلى هذا فإن الخُطة بالضم ما يدبر عقلاً والخِطة بالكسر ما يدبر مكاناً.
انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص٢٤٣.
وانظر عن المعنى الاصطلاحي لـ: لفظتي: خُطَّة وخِطَّة، أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، حاشية (١)، ص١٥٨.

(٢٠١) القهرمانة: لفظ فارسي معرَّب، ويعني: مدبرة البيت ومتولية شؤونه. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٧٧٠.

(٢٠٢) الوصيفة: الخادمة، والجمع: وصائف، وقد تُذَكَّر اللفظة فيقال للخادم غلاماً كان أو جارية: وصيف. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم أعلاه والجزء ص١٠٤٨.

(٢٠٣) مؤلف مجهول، ص٩٧.

(٢٠٤) القيم: السيد وسائس الأمر، ومن يتولى أمر المحجور عليه. وقيم القوم: الذي يقوم بشأنهم ويسوس أمرهم. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم، الجزء الثاني، ص٧٧٤.

(٢٠٥) المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٤١-١٤٢.

(٢٠٦) ابن حزم: طوق الحمامة، ص٥ – المقري: نفسه، ص١٢١.

(٢٠٧) عن تقويم عهد الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل بن معاوية انظر أحمد

إبراهيم الشعراوي: المرجع السابق، ص١٢٤-١٢٧ - إبراهيم ياس خضير الدوري: المرجع السابق، ص٣٢١-٣٣٣.

(٢٠٨) هذا لا يعني أن بلاط الأمير هشام الرضا لم يشهد المظاهر الملكية من فخامة عالية وبذخ وافر وتأنق عال. عن عهد الأمير هشام انظر مثلاً محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، ص٢٢٨-٢٢٩ - أحمد إبراهيم الشعراوي: المرجع السابق، ص١٧٤-١٧٩.

(٢٠٩) عن بلاط الحكم بن هشام ومظاهر الأبهة الملكية فيه انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، ص٢٤٩-٢٥٥ - أحمد إبراهيم الشعراوي، نفسه: ص٢٦٩-٢٧٢.

(٢١٠) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢١.

(٢١١) أحمد إبراهيم الشعراوي: المرجع السابق، ص٢٧٧.

(٢١٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، الجزء الأول، ص٤٦ - مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا، منشورات المعهد العربي الأسباني للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م، جزءان، الجزء الأول، ص١٣٩.

(٢١٣) عن هذا كله انظر - ولعله يكفينا هنا - أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٥٨-١٦١.

(٢١٤) انظر مقدمة محمود محمد علي مكي محقق القطعة الثانية من كتاب المقتبس لابن حيان، ص٦٦-٦٨. تنبغي الإشارة هنا إلى أن القطعة المنشورة بمدريد سنة ١٩٩٩م من غير تحقيق والمحتوية على أخبار سنوات ٢٠٦ - حتى بداية سنة ٢٣٢هـ كما قلنا في المتن لا تحتوي أي إضافات جديدة ذات أهمية قصوى في الجانب الأسري النسوي للأمير عبدالرحمن الثاني (الأوسط) تختلف عما عثرنا عليه في المصادر الأندلسية المطبوعة التي اعتمدناها في هذه الدراسة مما تحت أيدينا.

(٢١٥) انظر نفس المقدمة أعلاه، ص٦٨، ١٤٧-١٤٩.

(٢١٦) عن الجارية مدثرة انظر المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٥٠.

(٢١٧) عن الجارية متعة انظر المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص١٣١.

(٢١٨) عن هؤلاء الجواري الثلاث والجارية قلم، تحديداً انظر المقري: نفسه، الجزء الأول، ص٣٥٠، الجزء الثالث، ص١٤٠.

(٢١٩) انظر القطعة الثانية من المقتبس، ص١٠ مع الحواشي.

(٢٢٠) القطعة الثانية نفسها، ص٢١.

(٢٢١) انظر قبل الإشارة إلى الأطروحتين العلميتين اللتين استوعبتا حديث نظم حكم الأمويين بالأندلس ورسومهم. ومع ذلك فلم أجد في أطروحة سالم عبدالله الخلف التي وقفت عليها وعنوانها: نظم حكم الأمويين ورسومهم بالأندلس حسبما قلنا سابقاً على ذكر لهذه الخطة الإدارية النسوية.

(٢٢٢) إن هذه الخطة الإدارية النسوية التي ذكرناها ربما تكون صاحبتها تحت إدارة صاحب الطراز. ومن المعلوم أن الطراز خطة من خطط الدولة الإسلامية بصفة عامة، وقد عرفها البلاط الأموي في الأندلس بنفس التسمية وبنفس المهام التي يمكن تعريفها بأنها: الإدارة المسؤولة عن ملابس الأمير المصنعة بطريقة خاصة، تميز ثياب الأمير أو الخليفة أو من ينعمان عليه من خاصتهما وضيوف الدولة. ولا بد أن تحمل هذه الثياب عبارة رسمية.
انظر سالم عبدالله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ص٨٦–٨٨ مع الحواشي حيث استوعب الباحث الحديث عن خطة الطراز والمهام الملقاة على عاتق متوليها (الرسالة غير منشورة).

(٢٢٣) هذا هو تقويم المؤرخين لعهد الأمير محمد بن عبدالرحمن وعده فاتحة عهد الضعف في الدولة الأموية في الأندلس في عصر الإمارة، وهي الحالة التي تتابعت من بعد حتى كادت الدولة الأموية أن تسقط، وظهر ما يعرف بعهد الطوائف الأول، وهو العصر الذي قيض الله للدولة الأموية من بعد أن تتغلب عليه وتتجاوزه بتولي الأمير عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد زمام الأمور في الدولة الأموية سنة ٣٠٠هـ، فأعد للدولة وحدتها وقوتها ومد في عمرها.
للوقوف على هذا التقويم وموقف المؤرخين من عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن انظر قبل التمهيد.

(٢٢٤) القطعة الثانية من المقتبس بتحقيق محمود علي مكي، ص٢١٨-٢١٩ مع الحواشي.

(٢٢٥) المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٤٠-٣٥٠.

(٢٢٦) عن مدينة الزهراء ودور الجارية الزهراء في بنائها ثم عن موقعها وروعة بنائها انظر بعد.

(٢٢٧) انظر القطعة الخامسة من المقتبس بتحقيق بدر وشالميتا، ص٣٨.

(٢٢٨) انظر القطعة الخامسة أعلاه والصفحة.

(٢٢٩) الفصلة السابقة، المجلد الثالث عشر، الجزء الأول، ص٧٣.

(٢٣٠) القطعة نفسها أعلاه، ص١٠.

(٢٣١) ابن حيان: القطعة الخامسة نفسها، ص١١.

(٢٣٢) ابن بشكوال، الصلة، الجزء الثاني، ص٧٣٢، الجزء الثالث، ص٩٩٢.

(٢٣٣) كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة هو كتاب ألفه أبو عبدالله: محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت ٧٠٣هـ) على أنه ذيل لكتاب التكملة لابن الأبار وكتاب الصلة لابن بشكوال وسماه كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول (كتاب ابن الأبار) والصلة (كتاب ابن بشكوال) ويقع في ثلاثة أقسام، وقد قدم وحقق وعلق على القسم الثالث منه محمد بن شريفة، منشورات دار الثقافة، بيروت، (د.ت) وعن الخبر انظر ص٩٩١-٩٩٢ مع الحواشي.

(٢٣٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٣٩٣-٣٩٤.

(٢٣٥) القسم الثالث، ص٤٩٤-٤٩٥.

(٢٣٦) عن شخصية الخليفة الحكم الجادة وتقويمها من قبل المؤرخين انظر ما قلناه قبل في التمهيد، وانظر كذلك محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس – الخلافة الأموية، ص٥٠٢-٥٠٩ حيث استوعب عنان ما قيل عن شخصية الحكم العلمية في المظان الإسلامية والأجنبية.

(٢٣٧) عن هذا عن هذا انظر بعد حديثنا عن مظاهر النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي.

(٢٣٨) انظر ابن بشكوال: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٩٩٢ – الضبي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٧٣٢ – ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، القسم الثالث، ص٤٩٢.

(٢٣٩) الذيل والتكملة، القسم الثالث، ص٤٩٥.

(٢٤٠) ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٧٧.

(٢٤١) نفسه، ص٨٠.

(٢٤٢) الذيل والتكملة، القسم الثالث، ص٤٩٣.

(٢٤٣) نفسه، ص٤٨٣.

(٢٤٤) ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٨٠، ١١٨، ١١٩، ١٤٩.

الفصل الثاني

مظاهر النفوذ السياسي للمرأة
في البلاط الأموي

- المبحث الأول - دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم.
- المبحث الثاني - دور حرائر الأمراء والخلفاء.
- المبحث الثالث - دور بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم.
- المبحث الرابع - دور جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

الفصل الثاني
مظاهر النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي

استقرت الأمور للأمير عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبدالملك ابن مروان في الأندلس سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، وبويع له أميراً عليها في مسجد قرطبة الجامع كما عرفنا في التمهيد، وانبعثت منذ تلك اللحظة الدولة الأموية العتيدة، وشرع الأمير الشاب يعد العدة لترسيخ دعائم دولته بكل ما وسعه الجهد وبلغته الطاقة. وإذا كان ليس من غرض بحثنا تتبُّع الخطوات التي اتخذها الأمير عبدالرحمن الداخل لتوطيد دعائم دولته ودولة أعقابه من بعده، ومن ثمَّ فإن ما هو محل عنايتنا هو تتبُّع دور ربات البلاط الأموي من أمهات وزوجات وبنات وأخوات على الصعيد السياسي في بلاط الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل وبلاطات خلفائه في الدولة الأموية في عصري الإمارة والخلافة.

المبحث الأول
دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم

إن جهد التقصي الذي بذلناه بحثاً في الشذرات الموجودة بين أيدينا من سير أمهات الأمراء الثلاثة الأُوَّل وزوجاتهم: عبدالرحمن الداخل وابنه الأمير هشام ثم حفيده الحكم بن هشام من الإماء – لا بل والحرائر – لم يسعفنا في العثور على أدوار ما سياسية لأمهات هؤلاء الأمراء الثلاثة الأول وزوجاتهم. ومع أن ثمَّة قضية عرفتها عهود هؤلاء الأمراء الثلاثة الأول أعني قضية ولاية العهد، وهي كما نعرف من القضايا السياسية الشائكة التي عرفتها قصور الحكام على مستوى الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً سواء قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية أو تزامناً مع عهود هؤلاء الأمراء الثلاثة أو حتى بعد ذلك. أقول ومع أن تكوين المواقف النهائية وتشكيلها من ولاية العهد في عهود هؤلاء الأمراء الثلاثة قد برزت على الساحة السياسية عندما خلف الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل أباه في الإمارة دون أخيه الأكبر سليمان(١)، وعندما خلف الأمير الحكم بن هشام أباه الأمير هشاماً – وبعهد منه – في الإمارة دون أخيه الأكبر الأمير عبدالملك(٢) ثم عندما خلف الأمير عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط والثاني) أباه الأمير الحكم – وبعهد منه أيضاً – دون أخيه الأكبر الأمير هشام(٣) فإننا لم نلمس أثراً نسائياً البتة في هذه القضايا، ولا ندري – في ظل غياب المعلومة أو المعلومات التاريخية – ألم يكن هناك دور أو أدوار نسائية بالفعل في تلك القضايا وإلَّا لكانت أشارت المصادر إليها أم أنه كان هناك بالفعل دور أو أدوار نسائية فيها لم يصلنا خبرها، وضاع في جملة ما ضاع من التراث الأندلسي؟ لا ندري وكل الذي ندريه أن الأمور استقرت دون أن يكون هناك نفوذ نسوي على الإطلاق فيها من ربات قصورهم.

وإذا ما تركنا قضية ولاية العهد لا نلمس أثراً ما لنفوذ سياسي لأمهات الأمراء الثلاثة أولئك ولا لزوجاتهم اللهم إلا ما عثرنا عليه من خبر لدى صاحب كتاب أخبار مجموعة(٤) وقد وافقه في ذلك ابن عذاري(٥) مما يفيد بأن ثمة خمس جوار

للأمير الحكم استخلصهن لنفسه وملَّكهن أمره. ولا ندري ما الذي يقصده صاحب الأخبار المجموعة وكذا ابن عذاري من عبارة: ملَّكهن أمره؟. لا ندري ما طبيعة تمليك الأمير الحكم أمره لهؤلاء الجواري الخمس، وهل هن بعض أمهات أولاده الأربعين أم أنهن – وهذا ما نميل إليه – مجرد جوار أو حظيات متعة عنده؟ على كل حال سنقف مع هؤلاء الجواري الخمس وقفة ثانية في الفصل الثالث: مظاهر النفوذ الثقافي للمرأة في البلاط الأموي. ثم – وقد عاد السياق للأمير الحكم والقول إن ثمة إشارات لأدوار نسائية نسوية في عهده – هناك خبر قد يكون له دلالته في الشأن السياسي لزوجة حظية للأمير الحكم، وهي الجارية عجب سنورده على التو.

روى صاحب الأخبار المجموعة خبراً مسنداً إلى الجارية عجب، دلنا على جانب آخر في شخصية الأمير الحكم بن هشام غير الجانب المعروف للمؤرخين، وهو جانب القسوة والشدة والعنف الذي طبع عهد الأمير الحكم معظم سني حكمه(٦) إذ أُثِرَ عنها خبر تلقفه صاحب الأخبار المجموعة عن مصادره(٧) يتمثل في أنها – أي الجارية عجب – افتقدت سيدها الذي ترك مضجعه ذات ليلة، فخرجت تطلبه، فإذا هو مهموم قلق. فلما استوضحت الأمر منه، عرفت أن سبب ذلك هو خشيته أن يموت قاضيه المصعب بن عمران(٨) الذي كان مريضاً جداً، وكان يحمل عنه عبئاً كبيراً من أمور الرعية، ويدعو الله أن يلهمه الصواب في اختيار البديل عنه لو مات يجعله بينه وبين الناس، حتى وفقه الله للقاضي محمد بن بشير المعافري(٩) ونحن بإيرادنا لهذا الخبر لا نزعم أن فيه دلالة على نفوذ ما لعجب، وإنما هو فقط خبر يستشف منه أن هذه الجارية بلغت من الحظوة – وربما النفوذ – حداً جعل سيدها يكشف لها دخيلة من دخائل نفسه، ممَّا له صلة بأمر الرعية وحقها في عنقه. على أن النفوذ السياسي الأوضح للجارية عجب – إن لم نجد في الخبر السابق ما يدل على ذلك – هو ما يتمثل فيما رواه لنا ابن حارث الخشني في كتابه: قضاة قرطبة(١٠) من خبر جاء عَرَضاً مفاده أن ابناً لشقيق الأميرة عجب صدر منه أيام إمارة ابن زوجها الأمير عبدالرحمن (الأوسط) بن الحكم عبارات هزلية تذهب مذهب الكفر بصاحبها

قالها هازئاً في يوم مطير، فشهد عليه أناس بها، فَأُخِذَ وحُبِسَ. وجاءت عمته عجب تسعى لدى الأمير (وكانت مدلة عليه لمكانتها من أبيه) وهي عبارة ابن حارث الخشني، فوعدها أن يستشير العلماء في أمر ابن أخيها. ولقد قال لها: (مهلاً يا أماه، فلا بد والله من أن نكاشف أهل العلم عما يجب عليه في لفظه ذلك الذي شهد به عليه، ثم يكون الفصل بعدُ في أمره، فإنا معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم! وما نرى أن الله رفع ملكنا وجمع بهذه الجزيرة فلنا، وأعلى فيها ذكرنا، حتى صرنا شجىً في حلق عدونا إلا بإقامة حدوده، وإعزاز دينه، وجهاد عدوه مع مجانبة الأهواء المضلة والبدع المردية)[١١] وأحيلت القضية بالفعل إلى مجموعة من العلماء، منهم قاضي قرطبة القاضي محمد بن زياد اللخمي الذي خالف فتوى عدد من زملائه العلماء الذين رأوا وجوب قتل ابن شقيق الأميرة عجب غضباً لحرمة الدين، وهو ما أقامه الأمير بالفعل على هذا الابن، وزاد فأقصى قاضيه عن القضاء الذي ربما يكون قد استجاب لضغوط الأميرة عجب. وعلى كل حال فإن هذا الخبر إذا كان فيه من الدلالة على ما للأميرة عجب من دالة عند زوجها الأمير الحكم ثم ابن زوجها الأمير عبدالرحمن فإنه بالمقابل يدلنا على أن الأمير وهو الإمام والراعي للأمة لم تأخذه بالفعل في الله لومة لائم مع محبته لزوجة أبيه ومحبتها له هي أيضاً، ويكفي أنه كان يخاطبها بقوله: يا أمَّاه.

ويظلنا عهد الأمير الأموي الرابع، الأمير عبدالرحمن الأوسط بن الحكم الذي كان واسطة عقد أمراء عصر الإمارة، وكان عهده عهداً طابعه العام الاستقرار السياسي والازدهار الحضاري، مما أجمع كافة المؤرخين القدامى والمحدثين على الإشادة به واعتبار أيامه بمثابة أيام العروس حسبما قلنا في التمهيد. على أن عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط، اتَّسم بسمة أخرى، هي أنه عهد الشغف بالمرأة: حظيةً وزوجة، ومغنية، وأديبة، وهذا معناه أن موجبات أو مُناخ دواعي ظهور دور أو نفوذ نسوي توافرت كلها في بلاطه.

– فالأمير نفسه ذكر في حقه أنه كان كثير الميل للنساء[١٢] وعلى حد قول

محمد عبدالله عنان[١٣] – وهو قول لم يدلنا فيه على سنده – (فقد استكثر من اقتناء الجواري الحسان وكان كلفاً شديد الشغف بهن، وكان يُعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول) ويدلي حسين مؤنس[١٤] بمداخلة تضفي بعداً مماثلاً فهو يقول (إن الأمير عبدالرحمن أكثر من الجواري، وكانت جواريه معروفات للناس بأسمائهن) ومع ما في هذا القول من صواب فإننا لم نتعرف إلا النزر اليسير من جواريه.

– والأمير عبدالرحمن الذي يمثل حالة مألوفة بين من سبقه من أمراء الدولة الأموية ومن لحقه في الشغف بالمرأة شغفاً لا يكون معه علو نفوذ النساء في قصره وقصور من سبقه ولحقه من حكام الدولة الأموية في عصري الإمارة والخلافة مستغرباً أو مستنكراً الشغف، ومن ثم النفوذ الذي لخصه ابن حزم في كتابه طوق الحمامة[١٥] تلخيصاً دقيقاً عندما قال (..وقد أحب من الخلفاء... كثير، منهم بأندلسنا عبدالرحمن بن معاوية لدعجاء[١٦] والحكم بن هشام، وعبدالرحمن وشغفه بطروب أم عبدالله ابنه أشهر من الشمس، ومحمد بن عبدالرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه: عثمان والقاسم والمطرف معلوم، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم (هاشم)[١٧] المؤيد بالله رضي الله عنه وعن جميعهم، وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها، ومثل هذا كثير. ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة – إنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا يتفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم – لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل. هذا تعليل ابن حزم للأمر، أما نحن فنقول: لك الله يا ابن حزم!! ليتك فعلت – في إطار روح التصوُّن والعفاف والاحترام التي احتفظت بها للأمراء الأمويين – فلربما أضاءت إشاراتك لنا – وأنت سليل أسرة قريبة من الأمويين، وكانت من كبار الأسر التي عملت معهم – كثيراً من الأحداث الداخلية والخارجية في عهود الأمراء الذين ذكرتهم هنا أو لم تذكرهم، إذ ليس خافياً أن حياة الحاكم – أي حاكم – مع احترام خصوصيتها، فيها كثير مما يهم الرعية[١٨].

– وقصر الأمير عبدالرحمن الأوسط امتلأ بالجواري والقهرمانات والوصيفات، مما يوفر أجواء المؤامرات والدسائس[١٩].

– والرغبة في الإكثار من الذرية التي وسمت شخصية الأمير عبدالرحمن الأوسط بميسمها حتى إنه لم يعرف عن أمير أو خليفة أموي في الدولة الأموية الأندلسية من كان أكثر أولاداً منه حسبما ذكرنا ذلك في موضعه من مبحث الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم، تضفي – أي الرغبة – بعداً مضافاً في ظهور النفوذ النسوي بأشكاله المختلفة في بلاط الأمير عبدالرحمن الأوسط.

وإذا وقفنا على موجبات أو دواعي ظهور نفوذ نسوي في بلاط الأمير عبدالرحمن انطلاقاً من الحيثيات التي حسبناها كفيلة بحدوث ذلك، فلنقف الساعة عند حالة شهدها عهد الأمير عبدالرحمن تبدت فيها بأجلى صورة مظاهر تسلط نفوذ سياسي كانت وراءه زوجة من زوجات الأمير عبدالرحمن الكثيرات جداً، هذه الزوجة هي جاريته طروب. ولعل من المناسب أن نقدم طروباً إلى القارئ:

– فهي أم أحد أكابر أولاد الأمير عبدالرحمن ويسمى: عبدالله[٢٠].

– وهي حظيته الغالبة عليه من بين جميع نسائه[٢١].

– وهي عند ابن حزم الجارية التي كان شغف زوجها وسيدها الأمير عبدالرحمن بها أشهر من الشمس[٢٢].

– وهي عند ابن الأبار[٢٣] – ويوافقه ابن عذاري[٢٤] في ذلك – الذي يقول إن الأمير كان بها دنفاً[٢٥] – الجارية التي يهدي لها من الجوهر غالي الثمن ما يوجه فيه اللوم للأمير من وزرائه وخاصته من الإعظام لفعله ذلك فلا يكون جواب الأمير إلّا التأكيد على أن منزلة جاريته وحظيته طروب عنده أرفع قدراً وأنفس خطراً، وأكرم جوهراً.

– وهي عند ابن سعيد المغربي التي هام بها[٢٦] وقال فيها أعذب الأشعار، كما أنها هي ذاتها التي كان يتشوّق إليها، وهوفي غزواته حتى لقد دفعه اشتياقه إليها في غزوة من غزواته أن يعود إلى قرطبته العاصمة وإلى حظيته طروب مستخلفاً على الجيش ابنه الحكم[٢٧].

- وهي عند المقري تلك التي ولع بها الأمير عبدالرحمن وكلف بها كلفاً شديداً[٢٨].

- وهي - وهذا باتفاق من ذكرنا من المؤرخين - التي بلغت محبته لها أن أغضبها ذات مرة، فهجرته، وصدت عنه، وقفلت عليها مقصورتها، الأمر الذي أقلقه وضاق ذرعه من شوقها، وسعى أن يترضاها بكل ما وسعه الجهد فلم يفلح حتى لقد بعث خدماً إليها كيما يجبروها على الوصول إليه، فردتهم وآلت ألَّا تخرج إليهم طائعة حتى لو أفضى الأمر إلى مقتلها، وعاد الخدم إلى الأمير يطلبون إليه أن يأذن لهم بكسر باب مقصورتها عليها، فلم يسمح بذلك، ودفعته نفسه الحالمة أن يسد الباب عليها ببدر[٢٩] المال، ثم جاء إلى بابها فكلمها راجياً منها الصفح على أن يكون لها جميع ما سُد به الباب من مال، فأذعنت، وفتحت الباب حيث انهالت بدر المال على مقصورتها، ولم يكن منها إلَّا أن أكبَّت على رجليه تقبلّهما، ثم حازت المال[٣٠].

امرأة بهذا المكان من قلب الأمير عبدالرحمن لا يمكن إلَّا أن تكون ذات نفوذ واسع في بلاطه، وهكذا كان بالفعل. أما مظاهر ذلك النفوذ فقد تمحور حول قضية تقديم ابنها الأمير عبدالله للأمر بعد أبيه دون (الأراجيح الأكبرين من ولده متى حان حينه)[٣١] إذن فنحن أمام عاطفة أمومة جامحة تستند إلى مكانة عالية في قلب الأمير زوجها عساه أن يوافق على ذلك.

ولعله يحسن بنا قبل أن نتتبَّع مظاهر نفوذ الجارية طروب، الإشارة إلى أن عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط، وتحديداً السنوات الأخيرة منه عرفت اضطراعاً شديداً نحو قضية ولاية العهد بين رغبة الأمير الخاصة المحددة في أن يخلفه ابنه محمد من بعده، وبين رغبة حظيته طروب أن يكون ابنها عبدالله هو ولي عهد أبيه.

ولقد كان الأمير عبدالرحمن يرى في ابنه محمد مقدرة وأهلية للإمارة من بعده دون إخوته جميعاً[٣٢] بما فيهم عبدالله الذي كان دون أخيه كفاءة وأهلية[٣٣] ولقد رصد لنا ابن حيان[٣٤] إشارات عديدة صدرت عن الأب تدل على رغبته في أن يكون ابنه محمد هو الأمير من بعده. ويضيف ابن حيان[٣٥] سبباً آخر في ازدياد حب الأمير عبدالرحمن لابنه محمد بجانب كفايته وأهليته، هو أن أمه ماتت فتركته رضيعاً،

وتولت أمره زوجته الشفاء أم ولده المطرف حسبما ذكرنا سابقاً، فكان يتمه من أمه سبباً في ازدياد حب أبيه الأمير له وإيثاره على أولاده جميعهم.

غير أن طروباً التي تملكت قلب الأمير عبدالرحمن بالصور السابقة التي أوردناها كانت ترى – مدفوعة بعاطفة الأمومة – أن ابنها هو الأحق بالإمارة بعد أبيه دون إخوته بعامة ومحمد بخاصة. ومن هنا أخذت تعد للأمر عدته. وتمثلت الخطوات التي خطتها في التالي:

١ – السعي لاستقطاب شخصية قيادية بارزة من خاصة الأمير عبدالرحمن، هو الفتى نصر بن أبي الشمول الذي كان – أي الأب – من النصارى الأسبان الذين أسلموا، وقد التحق نصر بخدمة الأمير عبدالرحمن، وتدرج في المناصب حتى أصبح يتصرف باسم الأمير في أمور الدولة[٣٦].

٢ – نجحت جهودها بالفعل في استقطاب هذا الشخص القيادي البارز، حيث أطلعته على رغبتها في أن يكون ابنها الأمير عبدالله، هو الأمير بعد أبيه فوافقها، ربما لأنه كان يريد أن يكون الآمر الناهي في دولته عندما يؤول إليه الأمر، فوافقها وانقطع إليها (ممالئاً لها في مسعاها وخالصها خلوصاً شديداً وأخلصت له هي بالمقابل إخلاصاً مثله واستوى لنصر بذلك أمره، وأصبح ملك عبدالرحمن في يده يدبره كيف يشاء، فلا يرد أمره كما يقول ابن حيان أيضاً)[٣٧].

٣ – تتابع ضغطها على الفتى نصر لتحقيق رغبتها في ترشيح ابنها عبدالله فلم يكن منه إلَّا أن أجهد سعيه (في جهره وسره بالتنويه بعبدالله بن سِتِّه طروب والإشادة بذكره واستمالة طبقات الناس بالرغبة، والرهبة إليه، والعمل على اختزان الخلافة[٣٨] عن أخيه محمد، بِكر والده الأمير محمد ومفضلهم المشار إليه إلى ابن طروب وسوقها إليه معتمداً على (ألَّا يخالف عليه الكثرة من أنصاره من أهل الدار وغيرهم وفشو صنائعه فيهم)[٣٩].

ويوضح لنا ابن حيان[٤٠] كيفية استمالة الفتى نصر للوزراء وعلية الجند ورجال المملكة إلى رأيه في تقديم عبدالله على أخيه محمد الذي هو رأي سيدته طروب، وكيف احتج بتقديم كل من الأمير عبدالرحمن الداخل لابنه هشام

دون أخيه الأكبر منه سناً سليمان، ثم تقديم الأمير هشام نفسه لابنه الحكم دون ابنه الأكبر منه سناً عبدالملك حتى أقنعهم، وبدؤوا يشيعونه على ملأ من الناس، بل فاتحوا به الأمير عبدالرحمن خطاباً ومشافهة.

٤ - سعت ومعها تابعها المخلص لها نصر الفتى - إلى الطلب من ابنها الأمير عبدالله أن يطلب الإمرة لنفسه من أبيه بعده وأن يظهر ذلك لأهل المملكة)[٤١].

٥ - وفي سبيل إحكام الأمر وفي إطار تحكُّمها على مولاها الأمير عبدالرحمن ودالتها عليه (جعلت تصطنع أهل القصر من النساء والفتيان وأكثر الخدم)[٤٢] أما ابن حيان[٤٣] الذي أورد هذا النص - أيضاً - في كتابه المقتبس - فإنه أضاف إليه، أن طروباً لم تكتف باصطناع من اصطنعته من النساء والخدم، وإنما اصطنعت من يتردد على الأمير من الوزراء وأهل الخدمة ورجال المملكة، وأخذت تغريهم وتمنيهم الأماني والآمال الجسام لو ساعدوها في تحقيق مبتغاها. وما زالت بهم حتى (أسعدها على رأيها كثير منهم على علمهم بتخلُّف عبدالله وعدمه لخصال الرياسة) وهي عبارة ابن حيان الدقيقة.

غير أن الأمير، وهو الذي اشتد عليه ضغط حظيته طروب، ثم خادمه الأثير نصر الغالب على نفسه، المتحكم في سلطانه، وأخيراً ابنه الأمير عبدالله، رأى أن يتوسَّع في استشارة وزرائه جميعهم فيمن يعهد إليه مِنْ وَلَدَيْه بعده. وبالطبع لا ندهش عندما نجدهم جميعهم يشيرون عليه بعبدالله، انطلاقاً من تأثير طروب ونفوذها عليهم. ولم يتخلف عن الإشارة بعبدالله، سوى الحاجب عيسى بن شهيد الذي سبق لنصر أن عزله مستغلاً مرض الأمير، ثم أعاده الأمير بعد ذلك، فلقد (رشح له الأمير محمداً للإمارة، وذكر له ثناء أُولي العقل عليه وميلهم إلى إيثاره وإجماعهم على محبته، فسر الأمير عبدالرحمن من قوله، وموافقته لما ثبت من صحيح رأيه، وازداد بصيرة في إيثار محمد، وصدوفاً عن عبدالله أخيه، وشكر لعيسى صدق مناصحته)[٤٤].

وإزاء هذا كان لا بد لطروب ومن ثم لنصر الفتى أن يفكرا في أمر يحقق

سعيهما للعهد للأمير عبدالله بالإمارة، ولا سيما بعد أن جاهرا – أي طروب ونصر – الأمير محمداً المرشح للإمارة بالعداء، ولقد رأى نصر أنه ذهب بعيداً في استعداء الأمير محمد، وخشي من سوء العاقبة فيما لو خلصت إليه الإمارة(٤٥).

ومن هنا نظَّما – أي طروب ونصر – التدبير للتخلص من الأمير عبدالرحمن نفسه وتولى الفتى نصر إبرام هذا الأمر، حيث اتفق مع طبيب وافد من المشرق إلى الأندلس على تحضير سم مركَّب سريع المفعول يسقيه الأمير عبدالرحمن متى واتته الفرصة مقابل مبلغ كبير من المال، ولقد أظهر الطبيب الموافقة – حيث لا يسعه الرفض – وقبض المال، وحضَّر السم، منتظراً اهتبال السانحة، وهو في قرارة نفسه يستعظم الأمر ويستفظعه، ولم يجد بُداً أن يدس سراً للأمير عبدالرحمن الخبر عبر إحدى جواري الأمير عبدالرحمن وحظياته؛ الجارية فجر أم ابنه الأمير أبي الوليد: بشر بن عبدالرحمن كما أسلفنا من قبل، كيما تخبر الأمير بذلك وتحذره من شرب ما يأتيه به نصر أو يرسله. بالفعل نقلت الجارية فجر، وهو – ما يأتي في سياق الصراع على النفوذ داخل القصر بين زوجات الأمير عبدالرحمن من جهة، وربما حُبَّاً من الزوجة لزوجها من جهة ثانية، ورغبةً في نواله وعطفه وحدبه عليها أكثر فأكثر من جهة ثالثة – نقلت الخبر إلى الأمير فحذر منه. ولقد تظاهر الأمير لخادمه الأثير نصر بأنه يشكو علَّة نزلت به – فبادر – حيث وافته الفرصة إلى إحضار الشراب المسموم له. غير أن الأمير تظاهر بأن نفسه تعافه، وطلب بالمقابل من نصر أن يشرب هو ذلك الشراب، فأسقط في يده، ولم يجد بداً من أن يفعل، ثم خرج نصر من مجلس الأمير والسم يسري في جسده فبعث بطلب الطبيب كيما يصف له علاجاً، غير أنه عوجل قبل أن يؤتى به إليه فمات ولم يشربه، وكان ذلك سنة ٢٣٦هـ. ولقي مصرعه ارتياحاً كبيراً لدى خصومه في حاشية الأمير عبدالرحمن(٤٦).

هذه مؤامرة الحظية الأقرب لقلب زوجها الأمير، الغالبة على أمره وقد تكشَّفت، وكان من نتائجها أن غدا يقظاً متحفزاً ما بقي له من عمر بعد هذه الواقعة حتى توفي بعدها بعامين، أي سنة ٢٣٨هـ. غير أن الأمير وإن سعى خلال هذه المدة إلى اجتثاث

نفوذ خادمه المنقلب عليه؛ أي الفتى نصر بن أبي الشمول، بمساءلة أنصاره وصنائعه وبطانته حيث ضيق عليهم الخناق، فاستصفى أموالهم وشدَّد عليهم العذاب(٤٧) إلا أنه لم يحسم مع ذلك أمر ولاية العهد من بعده، فلم يصدر قراراً باتاً في مسألة ولاية العهد لابنه محمد، تاركاً للانطباعات والإشارات بأن يكون الأمير محمد ولياً لعهده تسود الساحة السياسية، ومكتفياً بفتور أمر ابنه عبدالله – وأمه طروب من ورائه – بفقد نصر الفتى(٤٨).

ولكن ما موقف الأمير من حظيته الأثيرة، ثم من ابنه الأمير عبدالله الذي لم نجد دليلاً يؤكد معرفته بالمؤامرة، وإن كان بالمقابل يعرف بلا شك رغبة أمه في تعيينه ولياً لعهد أبيه، لا بل ويكوِّن موقفاً عدائياً من أخيه الأمير محمد، وهو ما سنقف عنده من بعد؟ نتساءل ما موقف الأمير من جاريته وحظيته طروب؟ للأسف لقد سكتت المصادر التي تناولت هذه القضية وفي مقدمتها تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، ثم المقتبس لابن حيان عن تبيان ذلك. وهذا مستغرب بالفعل. فكيف يسكت الأمير – كائنةً ما كانت دالة طروب عنده – على مؤامرة تستهدف حياته هو شخصياً؟ ومن هنا رأينا مؤرخاً محدثاً صاحب باع طويل في الدراسات الأندلسية؛ هو حسين مؤنس يشكِّك في هذه الرواية مع ورودها عند ثقات المؤرخين الأندلسيين. وقد تساءل حسين مؤنس – ونحن نوافقه في تساؤله هذا –: كيف يعقل أن تقدم طروب على ذلك ثم لا يصيبها عقاب؟ ويتساءل حسين مؤنس ثانية فيقول: وإذا كان المراد التخلص من الأمير محمد؛ المرشح للإمارة بعد أبيه – مع التخلص من الأمير نفسه – لِم لَم يقدَّم السم إلى الأمير محمد مثلما قُدِّمَ للأمير عبدالرحمن نفسه؟ وينتهي حسين مؤنس إلى القول إن الحقيقة في رأيه هو أن المؤامرة لا تعدو أن تكون شائعة وتقولاً(٤٩) جاء من احتشاد قصر الأمير عبدالرحمن بالجواري اللائي أكثر منهن، وكن معروفات للناس بأسمائهن. ونحن وإن كنا نوافق حسين مؤنس في استغرابه من عدم حدوث أي مكروه لطروب عقاباً على مؤامرتها إلا أننا نميل إلى القول إن ثمة مصلحة حقاً لطروب في القضاء على زوجها الأمير الذي لم تفلح في حمله على العهد لابنها بدليل

مواقفها المعلنة السابقة من نحو، وموقفها وموقف ابنها الأمير عبدالله من عرقلة تعيين الأمير محمد أميراً بعد موت أبيه من نحو آخر، وهو الأمر الذي سنشير إليه لاحقاً. ثم إنه ما الذي يدرينا أن هذه المرأة قد بلغت من الدهاء وإحكام أمرها مبلغاً أخفى دورها في مؤامرة دس السم للأمير بالذات، فلم يجد الأمير قرينة ضدها توجب معاقبتها؟ أما تساؤل حسين مؤنس الثاني عن عدم لجوء نصر ومعه طروب لدس السم للأمير محمد بن عبدالرحمن في ذات المؤامرة، فهو تساؤل مبني على فرضية أن الأمير محمداً كان مستهدفاً بالاغتيال من قبل طروب والفتى نصر[٥٠] نقول فرضية لأننا في الحق لم نعثر على ما يشير ضمناً أو صراحة على أن محمداً كان مستهدفاً بالاغتيال حسبما ذكر حسين مؤنس، مع كل التقدير له. ومع أنه – تبعاً لذلك – لا محل لتساؤل حسين مؤنس الثاني انطلاقاً من ذات الفرضية إلا أنه يظل سؤالاً مشروعاً بلا شك، فالتخلص من الأمير محمد قد يكون هو الأسهل والأقرب بدلاً من دس السم للأب على ما في ذلك من خطورة بالغة جداً. ولعل هذا الأمر يكرس الاقتناع بأن المرأة التي تعيش وسط أجواء تسمح بالدسائس والمكائد من جهة، وتتوافر فيها القابلية والاستعداد لذلك، مثل حالة طروب من جهة ثانية، والاندفاع المحموم لعاطفة الأمومة من جهة ثالثة لا تتردد أبداً في أن تتخذ من الإجراءات المحسوبة منها والطائشة ما يوصلها إلى هدفها، فهو صراع نراه صراع بقاء لها ولولدها. غير أننا مع حال طروب أمام حال متفردة تجاوزت فيها الحد، أو ما يعبِّر عنه بلغة اليوم: الخطوط الحمراء. نتفهم أن تعتلج وتضطرم عاطفة الأمومة لتحقُّق لابن – أو أبناء – أمراً يبدو مرتقاه صعباً كإسناد الأمر له دون الأكفاء من الإخوة وآل البيت، ولهذا أشباه ونظائر، وما حال السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج الخليفة هارون الرشيد ببعيدة عنا. أعني وكما هو معلوم مبثوث في المصادر ما سعت له بإلحاح شديد منها عند زوجها الرشيد أن يقدم ابنها محمداً للخلافة من بعده على أخيه عبدالله[٥١] أقول نتفهم أن تنجح الزوجة إذا كانت ذات دالة وحظوة عند زوجها الحاكم أن تتحقَّق مطالبها – ولكن ما لا نتفهمه هو كيف ساغ لطروب أن تتجاوز الحد بالتدبير لقتل زوجها وولي نعمتها – بعد الله – الأمير عبدالرحمن؟ هل نحن

أمام حال من التسفل والجحود والنكران؟ ربما. وعلى كل حال فإذا كانت طروب قد احتلت مكانتها في التاريخ على أنها امرأة خائنة جاحدة للجميل فإنها في الحقيقة تمثل صورة من صور التسلط النسوي قبل عصرها وبعده. ولعله لا يفارقنا أن ثمة حالاً أخرى بلغت فيها (نرجسية) المرأة وانتفاخ الأنا لديها أن دبرت قتل ابن زوجها السابق ثم زوجها اللاحق أعني شجرة الدر زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم عزالدين أيبك التي دبرت لمقتله لا بل وشاركت في مقتله كما ذكرت المصادر(٥٢).

ويبدو أن نفوذ طروب وتسلطها لم يتوقف حتى بعد مصرع نصر الفتى وفتور أمر الأمير عبدالله، وإذ يورد لنا ابن حيان(٥٣) بتفصيل واسع كيف كان الأمير محمد يتوجَّس خيفةً من زوجة أبيه ومن أخيه عبدالله، مع تطلعه إلى الإمارة إبان مرض أبيه الذي اعتكف خلاله حتى مات سنة ٢٣٨هـ. ولقد كان الأمير محمد يعتمد على قلة من الرجال يناصرونه ويرونه الأحق – لجدارته – بالإمارة، ومن أولئك أحد خدام القصر الذي كان مقدماً على زملائه في خدمة الأمير عبدالرحمن وهو الفتى حبيب، ثم عيسى بن شهيد حاجب أبيه، ورجل ثالث يدعى محمد بن موسى كان وكيلاً له – أي للأمير محمد –. ولقد كان الاتفاق بين محمد والفتى حبيب أن يشعر حبيب الأمير محمداً بإمارة اتفقا عليها عندما يحل القضاء بالأمير عبدالرحمن، كيما يقدم على القصر ويستوي على عرش أبيه. وبالفعل فقد حدث ذلك، إذ يروي لنا ابن حيان(٥٤) الخطوات الاحترازية التي اتخذها الأمير محمد والفتى حبيب حتى دخل القصر، واستوى على عرش أبيه، كما روى لنا قبلها كيف كانت أجواء الخوف والحذر سائدة لدى أنصار الأمير محمد من خدم القصر الذي نجح حبيب الفتى في تحويل موقفهم إلى الأمير محمد دون أخيه عبدالله، وكيف فلسف لهم الأمر بأن فعلهم ذلك فيه صدق مع الله والناس في أن يتخيروا لهم الأصلح والأكفأ. وفي الحق فلقد كانت الأبصار لدى خدام القصر منصرفة إلى تولية عبدالله بن طروب حيث أجمعوا جميعهم بلسان واحد معبرين عن ذلك بقولهم (سيدنا وابن سيدتنا المربية لنا والمحسنة إلينا لا نرضى غيره ولا نعدل عنه)(٥٥) غير أن حبيباً الذي اعترف بأفضال

طروب عليه أو كما قال: (على أني والله معترف للسيدة – صانها الله – اعترافكم ومختص بكثير أفضالها دونكم)[٥٦] ثم مضى يوضح لهم كيف سيتحملون الوزر لو أنهم مالوا إلى الهوى وعينوا عبدالله بدلاً من أخيه وقد عرفوا (حال عبدالله في ذاته وحال من يكلف به من أصحابه وحاشيته ومذاهبهم وما يرجونه وينتظرونه معه، وحذرهم من أنه إذا ملك عبدالله (ليحدثن فيكم وفي الإسلام الأحداث المنكرة، فيسألكم الله تعالى عنهم وعن أنفسكم سؤالاً شديداً)[٥٧].

والحق أن هذا موقف من مواقف الرجال في الساعات العصيبة ينم عن حس إيماني بلا شك. ولم نلمس من تتبع أحداث تلك الفترة أن حبيباً الفتى كان يسعى إلى غاية مادية تتمثل في زيادة جاه وسلطان ومال كيما يتزلف للأمير محمد.

ونعود إلى ذكر دلائل تسلط طروب في ذات سياق الخبر عندما يقتنع الخدم بمنطق حبيب مقدَّمهم لا بل ويتدافع اثنان منهم من أشد خصوم الأمير محمد إلى التبرع للذهاب لإخباره بموت أبيه. ودعوته إلى القصر تحت جنح الظلام، وفي وسط أجواء أمنية مشددة بلغة هذا اليوم، هذان الخادمان اللذان لم ينيا عن الإساءة للأمير (محمد في رضا ستهما طروب)[٥٨].

وتمضي رواية ابن حيان بأسلوب شائق في تصوير الساعات العصيبة التي مر بها خروج الأمير عبدالله الذي كان ليلة موت أبيه سادراً في غيّه يعبث ويلهو، ومع ذلك كان يرصد حركات أخيه محمد موزعاً غلمانه حول قصره – أي قصر الأمير محمد – يرتقبون أي حركة تصدر منه منذ مرض والدهما. بل إنه مع لهوه وعبثه أرصد لأخيه أناساً في ذات الليلة التي توفي فيها والده يمنعونه من دخول القصر، حيث كان هو نفسه – أي الأمير عبدالله – يعيش فيه مع أبيه وأمه طروب. وهكذا ذهبت جهود طروب وابنها عبدالله أدراج الرياح وتمَّت البيعة الخاصة للأمير محمد من إخوته وعمومته وآل بيته بالإمارة، ثم كانت البيعة العامة للناس ثاني يوم من وفاة الأمير عبدالرحمن. ولئن كان الأمير محمد قد شمل بعفوه أخاه الأمير عبدالله[٥٩] إلا أننا لا ندري ما فعله بحظية أبيه؟ والظاهر أنه عفا عنها وخلدت إثر

ذلك إلى الانزواء والاعتكاف حتى وافتها منيتها التي لا نعلم متى حدثت؟ وانطوت بوفاتها صفحة من صفحات التسلط والنفوذ النسوي السياسي في الأندلس في عصر الإمارة الأموية.

ونترك عهد الأمير الأموي عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط والثاني) وحديثنا عن النفوذ السياسي لجاريته وحظيته طروب – وهو الحديث الذي طال وإن كان في ذات سياق موضوع فصلنا – إلى عهد ابنه الأمير محمد؛ الأمير الأموي الخامس حسبما رددنا من قبل. فنمر به مروراً سريعاً، إذ إننا لا نملك أية دلائل أو إشارات لنفوذ سياسي نسوي كان يمارس في بلاطه، حتى الإشارة التي أمدنا بها ابن حزم في طوق الحمامة التي أوردناها في صدر مبحث دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم عن تولع الأمير محمد بجاريته وحظيته غزلان أم بنيه: عثمان والقاسم والمطرف لا تضفي جديداً لنا، فهي إشارة غامضة. نعم فيها ما يدل على شديد ولع الأمير بها وربما حتى لنفوذها عنده، ولكن ما كُنه هذا النفوذ؟ لا ندري على الأقل فيما يتصل بالصعيد السياسي؟ ولا نريد أن نعجل فنقول إن الأمير محمداً كان ضابطاً لسلطانه متشدداً في إبعاد التأثيرات النسوية عليه، أقول لا نريد أن نعجل فنقول ذلك وإن كان محمد عبدالله عنان قد خلص إلى هذا بشكل واضح عندما قال في كتابه: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى عهد الناصر[٦٠]. وفي إطار الحديث عن عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن (إن نفوذ الجواري قد ضعف في بلاط الأمير محمد) ولكم كنا نود لو أن عناناً أرشدنا إلى مصادره التي عوَّل عليها في هذه المقولة التي تصب في قناة حديثنا عن النفوذ السياسي النسوي في بلاط الأمير محمد. على أننا ونحن نهم بترك عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن لا يمكننا أن نفعل ذلك دون أن نتوقف عند موقف نُبْل دلَّ على إعظام الأمير محمد زوجة أبيه الأميرة الشفاء التي كفلته رضيعاً بعد وفاة أمه حسبما قلنا من قبل. وكانت الشفاء قد أدركتها منيتها عند قرية تقع بالقرب من مدينة طليطلة، فدفنت هناك، وصار قبرها معروفاً للناس. فلما تولى الأمير محمد الإمارة، عمد إلى إعفاء أهل القرية من المغارم (الضرائب)

لاحترامهم قبر زوجة أبيه، وكافلته الأميرة الشفاء. ولعل قيمة هذا الخبر هنا في فصل النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي تكمن في أن ثمة انعكاساً إيجابياً شمل طائفة من الرعية. تأتَّى من شأن أسري نسوي محض؛ قيض الله به خيراً لأهل القرية بسبب الأميرة الشفاء(٦١).

وإذا ما تركنا عهد الأمير محمد إلى عهد ابنه الأمير الأموي السادس الأمير المنذر بن محمد لا نجد دلائل لنفوذ سياسي لوالدته أو زوجة من زوجاته، وكذا يقال عن عهد الأمير الأموي السابع الأمير عبدالله بن محمد، إذ لم نجد دلائل نفوذ لوالدته عشار، وكذا لم نجد دلائل نفوذ لزوجاته اللاتي سردهن لنا ابن عذاري وفق ما سطَّرنا من قبل في موضعه من الفصل الأول. غير أننا ظفرنا بإشارة عن دور – وربما نفوذ – صدر عن زوجة من زوجات أبيه الأمير محمد، هي الجارية غزلان المار ذكرها آنفاً. التي أدركت إمارة الأمير عبدالله. فلقد ذكر لنا ابن عذاري(٦٢) أن القاسم ابن محمد، وهو أحد ثلاثة أبناء للأميرة غزلان، وهو بهذا إخوة بالطبع للأمير عبدالله. نقول إن الأمير القاسم بن محمد، قبض عليه أخوه الأمير عبدالله وأودعه السجن لما بلغه من أنه يتآمر على خلعه، فقبض عليه وحبسه. ولقد سعت والدته غزلان إلى أن تبعث له بدواء منوِّم يساعده على النوم الذي امتنع عليه في محبسه، فما كان منه إلَّا أن تناوله جملةً واحدةً في يوم واحد، مع أن والدته طلبت إليه أن يتناوله في ثلاثة أيام متتالية. ولربما يبدو هذا الخبر عادياً لا يحمل أي مضمون لنفوذ سياسي لغزلان، غير أنه بالمقابل يضعنا في أجواء الاصطراع على السلطة بين الأخوة في بلاطات الأمراء وما مارسته سيدات القصور الأموية من دور أو أدوار في ذلك.

ويظلنا عهد الخلافة، وهو عهد اتسم أوله بأنه كان عهد القوة والاستقرار، وعمت الفوضى والقلاقل الفترة الأخيرة منه حتى سقطت الدولة والخلافة معاً سنة ٤٢٢هـ كما سبق أن رددنا هذا في أكثر من مناسبة. ولعل من الطبيعي ألا نتوقع وجود تسلط نسوي سياسي في عهد عبدالرحمن الناصر الذي امتد لنصف قرن (من ٣٠٠–٣٥٠هـ) حتى مع ما قيل عن علو مكانة زوجاته من الحرائر والإماء، ولا سيما

الجارية مرجان أم ولي عهده الحكم، والمكانة سامقة الذرا التي احتلتها في قلب زوجها وسيدها الخليفة كما رأينا في الفصل الأول. وهذا شيء طبعي فالخليفة الناصر بوصفه مؤسساً ثانياً للدولة[٦٣] لا يمكن بحال أن يسمح أو يتهاون في مواجهة كل ما يعصف بالدولة حتى من أقرب المقربين. بل إننا رأيناه يبادر بالفتك بأحد أبنائه لمجرد ما نما إلى علمه من أنه يتآمر عليه[٦٤]. ولعل في ما سنورده ما يؤكد هذا، فالخليفة الحريص على دولته وعلى استقرارها، والخليفة الحريص على إعداد ولي عهده الحكم المستنصر المولود سنة ٣٠١هـ[٦٥] إعداداً جيداً بإخضاعه لبرنامج علمي وعسكري وتربوي كيما يكون ولياً لعهده لا يكتفي بذلك، وإنما يسعى إلى سد كل ما يمكن أن يؤثر في إعداد ولده للمهمة التي تنتظره. ومن هنا نرى الخليفة في إطار تفهمه لما قد يكون من سبيل لدسائس النساء ومكائدهن وتسرب نفوذهن لابنه الحكم، وسداً للذرائع وتحوطاً للأمور، يعمد إلى التالي:

- ألزم ولي عهده الأمير الحكم بالبقاء في القصر الخلافي تحت نظره مباشرة. وعلى حد قول ابن حيان[٦٦]: (لم يفسح له مجال الخروج عن القصر يوماً).
- منعه من التزوج، وعلى حد قول ابن حيان أيضاً[٦٧]: (...ولا مكنه مع ذلك من اتخاذ امرأة صغيرة ولا كبيرة استيفاءً منه لشدة غيرته وذهاباً لفرط أنفة ألا يشركه غيره في غايته) وهذا ما لم نجد له مثيلاً من قبل مع أولياء العهود. ولم يكن أمام الابن الأكبر من خيار سوى القبول بهذا، فظل عزباً مع تقدم العمر به حتى واتت والده المنية سنة ٣٥٠هـ. ويقول لنا ابن حيان كذلك[٦٨] إن الأمير الحكم احتمل ذلك (بفضل رجاحته من أخذه له بذلك ثِقلاً أفنى نحبه لتراخي أمر أبيه[٦٩] مطايب عمره وعطل بواطن لذاته نظراً لإرث الخلافة بعده، فنالها عن عمر قالص وشهوة قابضة).

ولعل ما نتفهمه من أسلوب ابن حيان المتفرد الذي عرف به الذي يعسر أحياناً على الفهم[٧٠] هو أن الحكم تحمل هذا التوجيه الصارم من أبيه من أجل المهمة الأعظم. فلم ينل نصيبه من متعة الزواج إلَّا بعد وفاة أبيه وقد بلغ سن الكهولة[٧١] عندما تزوج من صُبح البشكنشية التي أخذ اسمها يتردد في بلاط الخليفة الحكم منذ

أن آلت الخلافة إليه سنة ٣٥٠هـ، ثم أنجبت له ولدين أولهما عبدالرحمن سنة ٣٥٢هـ وقد مات طفلاً، وثانيهما هشام سنة ٣٥٤هـ.

ولعلنا – في غياب المعلومة – نذهب إلى أنه تزوج في أقرب تقدير في السنة التي توفي فيها والده، وتولى هو فيها الخلافة تبعاً لذلك، أي سنة ٣٥٠هـ أو في سنة ٣٥٢هـ في أبعد تقدير. إذن فالعمر قالص أي متناقص، والشهوة قابضة أي ذاهبة أو لعلها ذابلة(٧٢).

وما زلنا مع عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله الذي أحكم سيطرته على الحكم في الأندلس ولم يتح بقوة شخصيته لأية شخصية نسائية أن تتدخل في شؤون الحكم والبلاد. وهذا كما قلنا يعد أمراً طبيعياً لرجل مؤسس أو بمعنى أدق لرجل أعاد تأسيس دولة من جديد.

غير أننا ونحن الذين لا نملك دليلاً على وجود أثر لنفوذ سياسي مارسته والدة الخليفة عبدالرحمن والتي سمتها لنا المصادر الإسلامية باسم مُزنة، فيما أطلقت عليها المصادر الأسبانية اسم ماريا، أقول غير أن ثمة إشارة عابرة أوردها لنا ابن عذاري(٧٣) تفيدنا أن خالاً للخليفة وهو سعيد بن القاسم تولى منصباً إدارياً في الدولة، وحدد لنا ابن عذاري سنة حدوث ذلك فقال إنها سنة ٣٢٠هـ. وبالطبع فلا يذهب بنا الظن بعيداً في تفسير هذا الأمر، وعدَّه تأثيراً سياسياً من والدة الخليفة، لأننا لم نجد دليلاً على وجود هذا الأثر أو غيره لأم الخليفة فضلاً عن أننا لا نعرف شيئاً عنها سواء عن زواجها من أبي الخليفة وحياتهما معاً أو وفاتها ومتى حدثت؟ وكل ما في الموضوع أن الخليفة رأى أهلية في خاله الذي نستطيع أن نقول عطفاً على اسمه إنه كان مسلماً استعرب اسماً وثقافة إلى الدرجة التي أُسند له فيها منصب في الدولة.

ونختم حديث عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر بالقول إننا ومع معرفتنا أن ملكة المملكة الأسبانية نافاريا أو نافار أو نبرة كما في المصادر العربية(٧٤) المعاصرة لعبدالرحمن الناصر الملكة تيودا التي تسميها المصادر الإسلامية: طوطة قد حلت

ببلاط الخليفة عبدالرحمن الناصر طالبة مؤازرته في إعادة حفيدها سانشو ملك مملكة ليون إلى عرشه الذي انتزع منه. ومع معرفتنا أن هذه الملكة هي أخت الأمير محمد والد الناصر، أمهما معاً الجارية دُر التي ذكرنا من قبل أن المصادر الأسبانية تطلق عليها اسم: ونقة أو أونكة، وبهذا تكون تيودا (طوطة) عمة الناصر من جهة أم أبيه، فإننا لم نلمس أي أثر لهذه الصلة في إجابة الخليفة الناصر للملكة طوطة في مطلبها وإسعافها من حيث تقديم الدعم السياسي والعسكري لحفيدها حتى إعادته لعرشه من جهة ثم إكرامها واستقبالها استقبالاً حسناً من جهة أخرى، ولعل الباعث السياسي هو الذي كان الدافع وراء ذلك لا الجانب الأسري(٧٥).

وننتقل إلى عهد الخليفة الأموي الثاني الحكم المستنصر بالله، وقد حكم من سنة ٣٥٠-٣٦٦هـ حسبما عرفنا من قبل، لنجد أنفسنا أمام نفوذ نسوي سياسي طاغٍ وقفت وراءه ومارسته زوجته صُبح البشكنشية أم ولده وولي عهده هشام. ولعله يحسن بنا قبل أن نتحدث عن نفوذها السياسي الواسع في دولة زوجها الخليفة الحكم، ثم في دولة ابنها هشام المؤيد بالله، أن نقدم - بصورة أوسع - صُبحاً البشكنشية للقارئ:

- فهي في البدء جارية أسبانية من إقليم الباسك أو البشكنش، تزوجها الخليفة الحكم ولا ندري من الذي أطلق عليها اسم: صُبح؟ ولكن الذي ندريه أن الخليفة أطلق عليها لقب جعفر حسبما قلنا في الفصل الأول. وأحياناً يقال لها: صبيحة(٧٦). أما اسمها في المصادر الأسبانية فهو أورورا Aurora، الذي يعني الفجر أو الصباح الباكر، ومن هنا يكون الاسم العربي: صبح ترجمةً لهذه الكلمة الأسبانية كما يذهب إلى ذلك محمد عبدالله عنان(٧٧).

- وهي أم الولد التي بقيت كذلك فلم يعتقها سيدها ومولاها الخليفة الذي أولدها اثنين من الأبناء، هما عبدالرحمن وولد سنة ٣٥٢هـ، ثم ما لبث أن مات طفلاً والثاني هشام الذي ولد سنة ٣٥٤هـ(٧٨).

- وهي التي حظيت عند سيدها الخليفة الحكم حظوة كبيرة، بسبب إنجابها منه

الولدين المذكورين، ثم بسبب خلالها الباهرة، وجمالها الأخاذ، ثم لحذقها للطرب والغناء[٧٩].

- وهي الغالبة على مولاها[٨٠].
- وهي التي افتتن بها الخليفة افتتاناً شديداً امتنع معه من التعرض للولد من غيرها[٨١].
- وهي التي كان يطلق عليها السيدة[٨٢] والسيدة الكبرى[٨٣] والسيدة أم هشام[٨٤].
- وهي التي لا يبخل زوجها وسيدها الخليفة الحكم المستنصر أن يتحفها بين الفينة والأخرى بفاخر التحف العاجية رائقة السبك والزخرفة[٨٥].
- وهي التي تصفها المصادر الغربية بـ: السلطانة صُبح كما يقول محمد بن عبدالله عنان[٨٦].

امرأة بهذه المكانة من قلب سيدها الخليفة الحكم لا يمكن إلا أن تكون ذات نفوذ سياسي واسع. وهكذا كان بالفعل. أما مظاهر ذلك النفوذ فقد تمحورت في السعي لتقديم ابنها ووحيدها هشام المولود سنة ٣٥٤هـ كما قلنا كي يكون ولياً لعهد أبيه، واضعة في اعتبارها: كبر سن زوجها الخليفة من جهة، ووجود الأكفاء للأمر من إخوة زوجها أبناء الخليفة الناصر لدين الله من جهة أخرى، ولا سيما ذلك الابن الأصغر للخليفة الناصر: المغيرة ابن الجارية مشتاق، الذي كان قريباً جداً من قلب أبيه الخليفة الناصر كما قلنا من قبل[٨٧]. ومن هنا واعتماداً على مكانتها الرفيعة لدى زوجها ورغبتها في إعداد ابنها للخلافة أحكمت نسج خيوط التدبير، فـ:

١ – أوعزت إلى سيدها ومولاها الخليفة أن يسند الشؤون الخاصة إلى محمد بن أبي عامر، وهو رجل قادته المصادفة إلى القرب من القصر الخلافي عبر جلوسه عند أبواب القصر يكتب للناس رسائل يوجهونها للخليفة ورجالات الدولة. وعلمت السيدة صبح بكفاءة هذا الرجل، فاستوظفته لديها[٨٨]. ومن ثم أوعزت إلى مولاها أن يعهد إليه بالشؤون الخاصة لابنها عبدالرحمن، ثم لما مات عبدالرحمن طلبت من الخليفة أن يعهد إليه بالشؤون الخاصة لابنها

هشام ويقول ابن عذاري[٨٩] إن الخليفة فوض إليه جميع شؤون هشام، وتحرك حاله منذ ذلك الوقت في الدولة.

٢ – دفعت رغبة صبح إسناد الخلافة إلى ابنها إلى أن تسعى لاصطناع محمد بن أبي عامر الذي رأت فيه سنداً قوياً يساعدها في تحقيق آمالها. فلم تدخر وسعاً في إتاحة الفرصة له للترقي في وظائف الدولة. ومن جهته هو فقد سعى إلى التفنن في إرضائها وإدخال السرور على قلبها وتلبية كل مطالبها منه. وليس بعيداً أن تكون قد أوعزت إلى زوجها المحب لها الخليفة الحكم أن يعهد إلى ابن أبي عامر بمنصب صاحب السكة والمواريث، ثم بعد قليل منصب قاضي أشبيلية، ثم أضيف إليه منصب جديد هو منصب صاحب الشرطة، ثم انهالت عليه الوظائف سراعاً فتولى منصب قاضي قضاة الجزء الغربي من الدولة، ثم وظيفة صاحب الحشم، وهو منصب يماثل ناظر الشؤون الخاصة، نظن ذلك ظناً ومن خلال إمعان النظر في العلاقة التي تولدت بين صبح ومخدومها ومخدوم ابنها هشام: محمد بن أبي عامر وإلا فالحقيقة أننا لا نملك دليلاً واضحاً ينص صراحة على أنها كانت وراء تعيينه في منصب صاحب السكة والمواريث ثم منصب قاضي أشبيلية بعد برهة يسيرة من الزمن[٩٠].

٣ – تتوجت مساعي صبح بإعلان البيعة الرسمية لابنها أبي الوليد هشام بن الحكم ولياً لعهد أبيه سنة ٣٦٥هـ قبل وفاته بعام واحد إثر اعتلال صحته، فقد أخذت له البيعة الخاصة والعامة بالعاصمة قرطبة وسائر الأندلس في أجواء احتفالية كبيرة. وتولى محمد بن أبي عامر أخذ البيعة من الناس وهو إذ ذاك صاحب الشرطة والمواريث، بالإضافة إلى بعض موظفي ديوان الخليفة[٩١].

٤ – سعت مذ أُعلنت وفاة زوجها الخليفة المستنصر في صفر سنة ٣٦٦هـ إلى أن تكون لها الوصاية على ولدها[٩٢] الذي كان في الحادية عشرة من عمره[٩٣] وتم على حد قول محمد بن عبدالله بن عنان[٩٤]: (بذلك مشروع الحكم المستنصر بالله ومشروع الثلاثة ذوي السلطان من بعده: صبح أم الخليفة والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي[٩٥] ومحمد بن أبي عامر)، ونحن نتفق مع ما ذهب إليه عبدالله عنان، فالحقيقة أن المتنفذين من رجال السلطة وفي طليعتهم الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي حاجب الخليفة الحكم ووزيره

بادروا إلى الفتك بالمغيرة ليخلو الجو لهشام ليتولى الخلافة. ولقد تولى كبر اغتيال المغيرة بن الناصر محمد بن أبي عامر الذي بدأ اسمه يتردد في بلاط الخليفة حتى أصبح هو حاكم الأندلس الفعلي من بعد(٩٦). ويرى محمد عبدالله عنان أن صبحاً حرصت (على تولية ولدها لتحكم باسمه)، لكننا في حقيقة الأمر لم نجد نصاً صريحاً على رغبتها في أن تحكم باسم ولدها الصبي بحرصها على أن تكون وصيّةً عليه. وقد تكون أرادت له الخلافة – وهذا ما لم تقصِّر بالفعل في السعي له سراً وجهراً – وقد يكون من مصلحتها التخلص من أعمام ابنها الأكفاء، واصطناع الأنصار من أمثال المصحفي وابن أبي عامر لذلك، ولكن ربما لكي تتم الخلافة لابنها ثم يبلغ الابن سن الرشد، فتتوارى هي(٩٧).

٥ – رأت وقد استحكمت علاقتها بمحمد بن أبي عامر إلى الحد الذي تحدث الناس به وعنه(٩٨) أن ترقيه إلى منصب رفيع بعد بضعة أيام من وفاة الحكم تمكيناً لدولة ابنها الصبي هشام، وهو منصب الوزارة، حيث صدر قرار بإشراكه في المنصب مع الحاجب جعفر المصحفي. وأسهم هذا في ازدياد نفوذه وتأثيره المتعاظم(٩٩).

٦ – حرصت إمعاناً منها في إظهار ثقتها بمحمد بن أبي عامر(١٠٠) أن تستصدر من ابنها الخليفة الجديد في ذات قرار تعيينه في الوزارة آنف الذكر قراراً آخر موجهاً للحاجب جعفر المصحفي ألا يتفرد برأي عن محمد بن أبي عامر. هذا مع أن الحاجب جعفراً كانت حاله – حتى ذلك الوقت – (عند جميع الحرم أفضل الأحوال بتصديه لمواقع الإرادة، ومبالغته في تأدية لطيف الخدمة) كما يقول المقري(١٠١).

٧ – مضت بعيداً في إظهار ثقتها بمحمد بن أبي عامر – وبالمقابل – إضعاف الحاجب جعفرالمصحفي، فحملت ابنها الخليفة هشاماً وبالتواطؤ مع محمد بن أبي عامر على إصدار قرار بتعيين أحد أبرز رجالات الدولة وهو القائد غالب الناصري والي أحد مدن الأندلس والقائد العسكري المرموق من رجالات الخليفتين الناصر والمستنصر، إلى أن يكون شريكاً للحاجب في منصب الحجابة الذي هو بمثابة رئاسة وزارة كما قلنا من قبل(١٠٢).

٨ - ولئن لم يتضح لنا - بجلاء - أن صُبحاً كانت وراء صدور قرار الخليفة هشام بتعيين محمد بن أبي عامر - بالإضافة لمناصبه - قائداً لجيش الحضرة، أي حضرة الدولة التي ربما يكون المقصود بها العاصمة قرطبة، ثم بعد قليل صدور قرار ثانٍ من الخليفة هشام بتعيينه صاحباً للمدينة، وذلك بمعرفة القائد غالب نكاية في المصحفي إلا أننا لا نستبعد أن تكون صبح قد حملت - هي أيضاً - ابنها الخليفة على ذلك، فصدر أمره بتعيين محمد بن أبي عامر في المنصبين الجليلين هذين علاوة على مناصبه السابقة، فزاد خطره وتعاظمت مسؤوليته(١٠٣).

٩ - لم تتوان - ولعل هذا قد يبعد عنها من وجهة نظرنا القالة السيئة التي قيلت في حقها - في أن تسعى في تزويج ابنة القائد غالب الناصر واسمها أسماء من محمد بن أبي عامر ومن ثم فسخ المصاهرة التي كادت أن تتم بين القائد غالب والحاجب جعفر المصحفي الذي خطب أسماء هذه لابنه محمد، فوافق غالب ولكن محمد بن أبي عامر أحس بالخطر من ذلك وعلى حد قول المقري (قامت قيامته) ولم يرتح له بال حتى تراجع غالب عن الإصهار لجعفر المصحفي وبادر فوافق على زواج ابنته من محمد بن أبي عامر، كل ذلك بموافقة وتأييد من السيدة صبح(١٠٤).

١٠ - لا نستبعد أبداً أن تكون وفي إطار إظهار رغبتها في تأييد محمد بن أبي عامر وبالتواطؤ مع ابن أبي عامر نفسه وراء صدور قرار الخليفة المغلوب على أمره هشام بصرف الحاجب جعفر من الحجابة، وتعيين محمد بن أبي عامر مكانه مع احتفاظه - أي ابن أبي عامر - بلقب الوزارة(١٠٥).

١١ - والخلاصة أنها (هي التي أوصلته إلى حيث وصل من الحال التي لم يتمكن لأحد قبله ولا بعده مثلها)(١٠٦).

وإذا كان ليس من غرض بحثنا تتبع الأساليب التي اتخذها محمد بن أبي عامر للتخلص من خصومه بسياسة انتهازية طاغية حتى غدا الحاكم الفعلي للأندلس، مبقياً للخليفة هشام المؤيد بالله السلطة الاسمية فقط(١٠٧) لا بل وخامرته في فترة من الفترات الرغبة في أن ينتزع الخلافة من الخليفة العاجز هذا، ولكنه نصح

من أقرب المخلصين له ألا يفعل ذلك ما دام أن الأمر كله بيديه، فأذعن وكف عن ذلك[١٠٨]، ثم أطلق على نفسه لقباً ملكياً هو المنصور بن أبي عامر، ثم زاد عليه بأن أمر أن يخاطب في ما بعد بالملك الكريم[١٠٩] فإن ما هو محل عنايتنا معرفة ردة الفعل لدى السيدة صبح بعد أن سلب محمد بن أبي عامر ابنها الخليفة من كل شيء، وافتن في اتخاذ الإجراءات والسبل المختلفة التي تبعده عن الناس وحجر عليه حجراً شديداً، ومستخدماً أساليب شتى كلها تضيّق الخناق على الخليفة وتظهره بمظهر العاجز الجاهل العيي[١١٠]. نتساءل كيف كانت ردة الفعل لدى السيدة صبح؟ الواقع أن هذه المرأة التي اندفعت بعيداً في تأييد محمد بن أبي عامر غير مدركة أنه سينقلب عليها، ويقلب لها ظهر المجن أفاقت متأخرة من سكرتها بنفس تضطرم حقداً عليه ورغبة في الانتقام منه، ولكن لات حين مناص، وتحدثنا المصادر أنها سعت – وقد انتزع منها محمد بن أبي عامر كل سلطة وسلطان – إلى اتخاذ جملة من الإجراءات وإن كانت لم تؤد إلى نتيجة. ومن هذه الإجراءات:

١ – إيغار صدر ابنها الخليفة المغلوب على أمره هشام على محمد بن أبي عامر قائلة له: (أما ترى ما يصنع هذا «الكلب»؟ فقال لها دعيه ينبح لنا ولا ينبح علينا)[١١١] وهذا يعني أنها لم تفلح في مسعاها، وهذا شيء طبعي، فالخليفة ليس في يديه شيء. ثم إنه أشيع عنه – بحق وبدون وجه حق – أنه كان غير كفء، ضعيف الرأي والشخصية، أقرب إلى الغفلة والجهل والحمق منه إلى الرشد والأهلية[١١٢].

٢ – شن حملة دعائية ضد محمد بن أبي عامر، وساعدها بعض الناقمين على محمد بن أبي عامر[١١٣].

٣ – راسلت والي بلاد المغرب الأقصى الذي كان يتبع سلطة الدولة الأموية آنذاك، وهو المعروف بـ: زيري بن عطية تحرضه على المنصور، وكان هذا الوالي نفسه يضمر الحقد للمنصور لحجره على الخليفة هشام، وقد شن هذا الرجل حرباً دعائية ضد المنصور، وأدى هذا إلى أن يشتبك المنصور معه في حرب انتهت بمقتل زيري بن عطية[١١٤].

٤ – استغلت فترة مرض المنصور، فعمدت – بمساعدة خصومه – إلى إخفاء أموال عامة كانت كبيرة لا بل والسعي إلى تهريبها خارج القصر. غير أن المنصور ما لبث أن عرف بذلك، فأرسل ابنه عبدالملك فأخذ الأموال جميعها على اعتراض واحتجاج صبح وكيلها الشتائم لعبدالملك بن المنصور[١١٥] وقد عاتب المنصور الخليفة هشاماً، فأنكر – ربما خوفاً وفرقاً – علمه بذلك وتبرأ منه، وبادر فأظهر تأييده للمنصور[١١٦].

بيد أن كل هذه الممارسات لم تسفر عن شيء بل على العكس من ذلك زاد المنصور قوة، وحصل من الخليفة المقهور هشام على التأييد الواسع العلني، ورأى هو نفسه أن يقطع على صبح كل ذريعة تستند إليها فأخرج الخليفة هشاماً للناس لأول مرة في موكب خلافي عظيم، وسعى هو وابنه عبدالملك بين يديه في قلب العاصمة قرطبة[١١٧] ولم تجد صبح بعد هذا بداً من الإذعان والاستسلام فانزوت بنفسها كاسفة البال كسيرة الفؤاد مسلوبة السلطة حتى أدركتها المنية سنة ٣٨٩هـ[١١٨]، وفي ظننا أن صبحاً فيما عدا محاولاتها في تخليص ابنها هشام من تسلط المنصور ابن أبي عامر – وهي محاولات مشروعة مفهومة – تمثل بإصرارها على تولية ابنها وإبعاد الأكفاء من أعمامه عن الخلافة صورة من صور التسلط النسوي في البلاط الأموي، وانضمت صبح – في رأينا – إلى أولئك النساء الطموحات المتنفذات اللاتي أقحمن أنفسهن معترك السياسة، ونجح بعضهن وأخفق البعض الآخر. ولعلها بنفوذها وتدخلها تذكرنا بحالات مماثلة لأمهات خلفاء مارسن أدواراً سياسية خطيرة مثل السيدة الخزيران بنت عطاء أم الخليفتين العباسيين: الهادي والرشيد، وزوجة الخليفة المهدي بن المنصور، ثم السيدة قبيحة أم الخليفة العباسي – أيضاً – المعتز بالله بن المتوكل، وكذا السيدة شغب وقيل غريب أم الخليفة العباسي – أيضاً وأيضاً – المقتدر بالله بن المنتصر بن المتوكل، وأخيراً السيدة رصد والدة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله[١١٩]. ولا نجد ما نختتم به حديث صبح أروع من عبارة الخليفة الهادي التي قالها لأمه السيدة الخيزران التي يتردد صداها كلما جاء الحديث عن التسلط السياسي النسوي وآثاره السلبية بعيدة المدى على ربانه وعلى من يلوذ

بهن من أبناء وخلافهم، لا بل وعلى الدولة نفسها بعد أن فاض به الكيل، وهو الذي خاطبها بألا تخرج (من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليك بصلاتك وتبتلك، ولك بعد هذا طاعة مثلك، فيما يجب لك): (ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم. أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك ما فتحت بابك لمسلم ولا ذمي) نعم وما زالت كلماته الأخرى ترن في الأسماع – وهي الأعنف –: (لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك)(١٢٠).

على أننا ونحن نسرد حال أمهات من ذكرنا من خلفاء بني العباس والفاطميين لا نستطيع أن نقول إن ثمة تطابقاً لحالاتهن وأبنائهن مع حالة صبح وابنها الخليفة هشام المؤيد بالله الذي يعد حالة متفردة لم يتح لها أن تمارس الحكم البتة على خلاف من ذكرنا من الخلفاء العباسيين والفاطميين مع أمهاتهم المذكورات آنفاً.

وإذا ما تركنا عهدي الخليفتين: الخليفة الحكم وابنه الخليفة هشام المؤيد بالله، وانتقلنا للحديث عن خلفاء عصر الفتنة، متتبِّعين منقِّبين عن مظاهر آثار نفوذ سياسي نسوي لأمهات هؤلاء الخلفاء وزوجاتهم فإننا لا نجد دليلاً على وجود أثر لنفوذ سياسي – أو غيره – مارسته أمهات هؤلاء الخلفاء وزوجاتهم. غير أننا – بالمقابل – عرفنا من خلال استقراء المصادر أن الخليفة الأول من خلفاء عصر الفتنة: الخليفة محمد المهدي بالله الذي كال له المؤرخون القدح والذم لسوء سيرته أحاط – وهو جزء من سوء السيرة والأحدوثة – نفسه بنساء لا ندري ما صلتهن به أو صلته بهن؟ إذ لم نتبين أنهن كن إماء له، مثل الجارية المدعوة بـ: بستان، والمرأة المدعوة بـ: واجد. فلقد كانت تصرفاتهما وتصرفاته المتمثلة في التهتك والخلاعة والمجون من أسباب التعجيل بالقيام عليه وبث الدعاية ضده على معايبه تلك(١٢١).

وأما الخليفة الأموي الرابع/ الخليفة محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن الناصر الملقب بـ: المستكفي بالله، والذي حمل عليه المؤرخون القدامى حملة شعواء

كما قلنا في التمهيد لسوء سيرته وتفاهة سياسته وهشاشة شخصيته، فقد دلَّتنا المصادر على أنه كان لزوجته: بنت سكرى المعروفة بـ: المرورية التي عرضنا لها في مبحث الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم في الفصل الأول دور سياسي سيئ في بلاط زوجها. غير أنه من أسف أننا لم نتبين كُنه ذلك الدور؟ واكتفى المؤرخون بالنعي على الخليفة المستكفي تصرفات زوجته تلك، وقارنوا بين ممارساتها وممارسات زوجة الخليفة العباسي المستكفي بالله. الذي قارن المؤرخون – أيضاً – بينه وبين الخليفة الأموي المستكفي بالله في سياستيهما وفي وجود قواسم مشتركة في شخصيتيهما معاً والمشاكلة بينهما في اللين والوهن والتخلف والضعف والاعتماد على رجال غير أكفاء، ثم في إتاحة الفرصة لزوجتيهما للعبث بمقدرات الدولة، وأخيراً المشاكلة في سوء السيرة والأحدوثة وسن كل واحد منهما المشابه للآخر وتطابق فترة الحكم لكل واحد منهما. وأنهى المؤرخون حكمهم عليهما بالقول: (وبالجملة فهما رذلا قومهما)(١٢٢).

ونصل إلى عهد الخليفة الأموي الخامس من خلفاء عصر الفتنة، وهو آخر الخلفاء الأمويين جملةً؛ الخليفة هشام بن محمد بن عبدالملك بن الناصر الملقب بالمعتمد بالله، الذي حمل عليه المؤرخون حملة شعواء أيضاً لمجونه وخلاعته وتهافت شخصيته، حيث وجدنا التنصيص على وجود آثار لتسلط نسوي مارسه في بلاطه نسوة لم يقدر لنا للأسف أن نعرف صلتهن بالخليفة المتهافت، وأغلب الظن أنهن إماء له. كما أننا ومع التنصيص على وجود دور سياسي لهؤلاء النسوة في بلاط الخليفة لم يتسن لنا للأسف تعرف هذا الدور، وأغلب الظن – أيضاً – أنه دور عبثي أسهم في تشكيل الصورة الباهتة لهذا الخليفة الذي أحاط نفسه مع ذلك ببطانة سوء غير جديرة. فأسهم هذا وذاك في تشكيل الصورة الباهتة عنه، ومن ثمَّ الرافضة لها والتي عَبَّر عنها وجهاء قرطبة وشيوخها في تقريرهم عدم صلاحية هذا الخليفة وكذا غيره من أبناء البيت الأموي، وتمثَّل ذلك في خلعه من الخلافة سنة ٤٢٢هـ كما قلنا سابقاً وإبعاد أبناء البيت الأموي عن مقدرات الأمور تماماً في الأندلس(١٢٣).

المبحث الثاني
دور حرائر الأمراء والخلفاء

عرفنا من قبل في حديثنا عن مبحث أعلام حرائر الأمراء والخلفاء الأمويين وسيرهن أن الأميرة فاطمة بنت المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط زوجة الخليفة عبدالرحمن الناصر الأثيرة والحظية لديه حظوة كبيرة ظلت تتمتع بها حتى فقدتها بعد ذلك بمكيدة دبرتها لها ضرتها الجارية مرجان والدة ابنه وولي عهده الحكم. غير أنه لم يتبين لنا أي دور سياسي كانت تمارسه – من موقعها الرفيع في قلب زوجها الخليفة أيام حظوتها عنده – يُضفي مكانة عالية ليس لها وحدها ولا لابنها الأمير المنذر، ولا لأحد من إخوتها أبناء الأمير المنذر. وهذا كما قلنا من قبل في حديثنا عن نفوذ الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم ودورهم، إذ يعد أمراً طبعياً في حالة شخصية سياسية بمثل حجم شخصية الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي تعب وشقي حتى أعاد تأسيس الدولة الأموية. نقول إن هذا يعد شيئاً طبعياً، ومع ذلك نستدرك فنقول إن ثمة إشارة وافانا بها ابن الأبار في كتابه: الحلة السيراء(١٢٤) تدُلُّنا على وجود دور لأحد إخوة الأميرة فاطمة؛ هو الأمير محمد بن المنذر بن محمد أخو الأميرة فاطمة لأبيها، حظي لدى الخليفة عبدالرحمن جراء المصاهرة التي أصهر بها الخليفة إليه – أي إلى هذا الأخ – وإلى إخوته بزواجه من أختهم الأميرة فاطمة ولكن ما كُنه هذه الحظوة التي ترتبت على هذه المصاهرة؟ ذلك ما لم يقله لنا ابن الأبار، وحرمنا من معرفة آثار تلك الحظوة أهي العهد له بمنصب سياسي أم أنها الحبوة بمورد مالي؟ لا ندري. ومع ذلك تظل لهذا الخبر قيمته دون شك، إذ لعله يمثل إمَّا الاستثناء الذي يثبت القاعدة بحسب ما قلنا في مبحث الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم من عدم سماح الخليفة الناصر لأي نفوذ سياسي يتسرب لدولته، وإمَّا أن تكون الحظوة التي حظي بها شقيق الأميرة فاطمة من قبيل المصلحة السياسية العليا داخل الأسرة الحاكمة، وليس عن تأثير أو دور ما لزوجته الأميرة فاطمة في ذلك.

وفيما عدا هذا الخبر لم نجد مظاهر نفوذ سياسي لحرائر الأمراء والخلفاء الأمويين اللائي سردناهن للقارئ في الفصل الأول، أعني الحرة اللخمية زوجة الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل، ثم الأميرة كنزة بنت عبدالملك بن عمر بن مروان زوجة الأمير الأموي الثاني هشام بن عبدالرحمن، ثم الأميرة أم سلمة بنت محمد بن الحكم زوجة الأمير الأموي الخامس محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل. ولا نجد تفسيراً لذلك سوى أنه الأمر الطبعي ما لم تخترقه قاعدة الاستثناء المبنية على معطيات سياسية وعاطفية ونفسية مجتمعة.

المبحث الثالث
دور بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم

المستطلع لمجريات الحياة السياسية للدولة الإسلامية بفضاءاتها المختلفة: سواء أكانت إمارة أم سلطنة أم خلافة لا بد أن يلفت نظره وجود أدوار سياسية لبنات الحكام وأخواتهم مارسنها من موقعهن، والأمر أعسر أن ندلل عليه. والبلاط الأموي في الأندلس في الفترة التي انتصبت فيها دولتهم وحتى سقطت نهائياً، عرف وجود مظاهر نفوذ لبنات الأمراء والخلفاء على الصعيد السياسي. غير أننا يجب ألا نذهب بعيداً في تضخيم ذلك النفوذ لا لشيء سوى أنه لم يكن كبيراً واضحاً ملفتاً للأنظار. ولعل في القليل من الإشارات لنفوذ سياسي نسوي مارسته بعض المتنفذات من البنات والأخوات في قصور آبائهن وإخوانهن ما يلقي الضوء على هذا المبحث.

في البدء ها نحن أولاءِ نجد إشارات موجزة توضح لنا أن أخت الأمير الأول المؤسس عبدالرحمن الداخل، وهي أم الأصبغ بنت معاوية التي عرضنا لها في الفصل الأول في مبحث بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم تسهم – وهي شقيقته بنت أمه – في التمكين لدولة أخيها التي أقامها بالأندلس من موقعها البعيد في المشرق وتحديداً بلاد الشام التي شهدت قيام دولة آبائها الأمويين على أرضها واتخاذ مدينتها الكبرى دمشق عاصمةً لهذه الدولة. ولنتعرف الآن ملامح الدور السياسي الذي اضطلعت به الأميرة أم الأصبغ لمساعدة أخيها الأمير عبدالرحمن الذي فر من وجه العباسيين متوجهاً إلى بلاد المغرب، ومنها إلى بلاد الأندلس حيث نجح في إعادة الدولة الأموية بها:

١ – أعلمها – أي الأميرة أم الأصبغ بنت معاوية – أخوها الأمير عبدالرحمن بن معاوية بتوجُّهِهِ نحو بلاد المغرب، وأمرها أن تلحق به غلامه (بدراً)[١٢٥] بما يصلحه إن كتبت له السلامة[١٢٦].

٢ – ألحقت به فيما بعد سالماً غلامها، وكان قد سبقه بدر غلامه يحملان (نفقة وشيء من جوهر فلحقاه حتى أتى إفريقية – المغرب الأدنى –)[١٢٧].

ولسنا نبالغ في أهمية هذا الدور الذي قامت به الأميرة أم الأصبغ، لكننا

بالتأكيد لا نقلل من شأنه، فقد كان عبدالرحمن آنذاك أحوج ما يكون إلى الأنصار والأموال. يبقى أن نشير إلى أن الأميرة أم الأصبغ وشقيقتها أمة الرحمن ثم الأخت الثالثة أم العباس حسبما عرفنا من قبل في الفصل الأول لم يقدمن على أخيهن عبدالرحمن الداخل في الأندلس. وقد سعى عبدالرحمن بعد أن استقرت الأمور له في الأندلس أن يستقدم أختيه: أم الأصبغ وأمة الرحمن، فأرسل لهما عالماً من علماء بلاد الشام الذي استقر بالأندلس وهو معاوية بن صالح الحضرمي (وبعث معه بمال فلما قدم عليهما قالتا له: السفر لا تؤمن آفته، وقد أمنَّا بحمد الله... وحسبنا أن نكون في عافية، فانصرف عنهما)[١٢٨].

ونمضي في حديث أدوار نفوذ بنات الأمراء والخلفاء الأمويين وأخواتهم فنطوي عهود الأمراء الأمويين: هشام والحكم وعبدالرحمن الأوسط ومحمد بن عبدالرحمن حيث لم يتبين لنا وجود أي أثر لنفوذ سياسي لبنات هؤلاء الأمراء، والأمر نفسه يقال عن أخواتهم بيد أنه يستوقفنا في عهد الأمير السابع الأمير المنذر ابن محمد خبرٌ له دلالته فيما نحن بصدده. فلقد ذكر ابن الأبار[١٢٩] أن ثمَّة أختاً للأمير المنذر وإن كان للأسف لم يسمها لنا مارست دوراً سياسياً في التأليب والتحريض على قتل الوزير الحاجب: هاشم بن عبدالعزيز بن هاشم، الذي كان وزيراً للأمير محمد بن عبدالرحمن والد المنذر ثم استحجبه الأمير المنذر لأشهر قليلة من إمارته، غير أنه كان يضمر له الحقد ويتحين الفرص للقضاء عليه. ويهمنا هنا أن أخت الأمير المنذر تلك قد أصاخت بسمعها لأحد رجالات الدولة من خصوم هاشم ابن عبدالعزيز؛ وهو الكاتب عبدالملك بن أمية، وكان تدخلها هذا سبباً من أسباب تعجيل الأمير المنذر بالتخلص من هذا الوزير الذي كان أحد رجالات الدولة الأموية البارزين في الأندلس. ومع أن ابن الأبار قد روى لنا هذا الخبر إلَّا أنه لم يرشدنا إلى طبيعة علاقة الأميرة أخت الأمير المنذر بالكاتب عبدالملك بن أمية. فهل كان كاتباً لها؟ لا ندري. وكل الذي نعلمه أنها أسهمت في إهدار دم هذا الوزير الخطير الجليل القدر عالي الهمة.

ونطوي عهد الأمير السابع الأمير عبدالله بن محمد إلى حيث عهد حفيده الأمير

فالخليفة عبدالرحمن الناصر، لنجد خبراً انفرد به ابن عذاري يوضح لنا جانباً من جوانب الصراع الذي كان يدور في أروقة البلاط الأموي. ولئن كانت صاحبة الحادثة التي سنسوقها على التو ليست بنتاً ولا أختاً – وهو ما ينتظمه المبحث الثالث هذا من الفصل الثاني – فإن مغزى الحادثة قمين بأن يشار إليه في فصلنا هذا الذي نسعى من خلاله لمعرفة مظاهر النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي. يقول ابن عذاري[١٣٠] في أحداث حوليته لسنة ٣٢٩هـ أنه في هذه السنة: (ماتت السيدة ابنة الإمام عبدالله لثمان بقين من ذي الحجة؛ وكانت قد نافرت أمير المؤمنين الناصر أيام حداثته وقبل إفضاء الخلافة إليه، وهو حينئذ وَلد في القصر بين يدي الإمام عبدالله جده؛ وطالبته وآذته عند أبيها عبدالله الإمام، فلما ولي الناصر لم تشكَّ في معاقبته لها، ومجاراته لسوء معاملتها فكان الأمر على خلاف ظنها؛ وقرَّب الناصر مكانها، ورفع منزلتها، واختصها في جملة من اختص من أهله وبنات أعمامه، حتى صارت أقربهن محلاً منه).

إذن فهذه عمة لأحد بني أمية في الأندلس وليست ابنة أو أختاً. ولعل قيمة هذا النص تكمن – كما نرى – في تعرف بعض ما كان يجيش به البلاط الأموي من صراعات، أما مسالة الصفح والغفران فهي مسألة ربما لا تستوقفنا كثيراً، فلها أشباه ونظائر. هذا شيء، والشيء الآخر أن هذه الحادثة دلتنا على جانب في شخصية الخليفة الناصر، هو جانب الخير في وقت قُوِّمَ فيه الناصر على أنه كان شخصيةً عنيفة في كثير من جوانب حياته، ولعلنا نذكر بما أورده ابن حيان في مقتبسه من وجود معايب للخليفة الناصر حسبما ذكرنا ذلك نصاً في موضعه من المبحث الأول.

ونختم حديثنا عن هذا المبحث بالقول: ترى لِمَ لَمْ نلحظ تدخلات سياسية نسوية من بنات الأمراء والخلفاء الأمويين وأخواتهم في شؤون الحكم – إن سلباً وإن إيجاباً – غير تلك الحالات النزرة اليسيرة التي أشرنا إليها؛ هل خلت بالفعل بلاطات الأمويين في الأندلس من تدخلات كرائمهم وأخواتهم في الشأن السياسي؟ أم أنه كانت هناك تدخلات وممارسات سياسية لم يبلغنا أمرها حيث ما زالت في عداد المفقود من تراثنا؟

إن مساحة الاستغراب لدينا تتسع، لأننا رأينا في الفصل الأول احتشاد

القصور الأموية بالبنات والأخوات، ويكفي أن نستدعي إلى الأذهان ما قلناه في حديثنا عن بنات الأمير الرابع عبدالرحمن الأوسط بن الحكم وأنهن بلغن ٥٠ بنتاً – على اختلاف في عددهن – نمضي فنتساءل هل أحكم الأمراء والخلفاء الأمويون قبضتهم على أزمة الحكم بحيث لم يسمحوا لبناتهم وأخواتهم بالتدخل في شؤون الحكم؟ وإذا كان الأمر كذلك فما بال تلك التدخلات التي اضطلعت بها المتنفذات من جواريهم وإمائهم؟ نعم نستدرك هنا فنقول إنه قد يكون لغياب الباعث دور في ذلك. أقصد أنه في حالة الجواري والإماء أمهات الأولاد اللائي كان لهن دور سياسي كان هناك باعث يحركهن يتمثل في الرغبة في التمكين للولد، وربما لتوافر أجواء الدسائس والمكائد بين الضرائر، وهذا ما لا تحتاج له البنات والأخوات.

هذا شيء والشيء الآخر لا نستطيع أن نسقط من اعتباراتنا أنه ربما كانت المعطيات التي سادت في بعض القصور المشرقية وأدت إلى تدخل بنات الخلفاء وأخواتهم لم تتوافر في البلاط الأموي. فالمعطيات التي سمحت – مثلاً – بوجود تأثير سياسي لأختي الخليفة هارون الرشيد؛ الأميرة العباسة، والأميرة علية في بلاط الحكم[١٣١] ثم المعطيات التي طفت وبرزت على الساحة السياسية في بلاط الدولة الفاطمية بمصر، أدت إلى تدخل السيدة/ ست الملك بنت العزيز بالله أخت الخليفة الحاكم بأمر الله في شؤون الحكم[١٣٢] والشيء الثالث ندرك تماماً أن التأثير السياسي النسوي – وربما غيره – يختلف باختلاف التكوين النفسي – لا بل وغيره – لشخوص رباته.

والخلاصة أننا لم نجد البلاط الأموي يشهد (خضات) سياسية كتلك التي شهدتها القصور المشرقية جراء تأثير النفوذ النسوي لبنات الأمراء والخلفاء الأمويين وإخوتهم. ولعلنا هنا نركز على جانب التأثير السياسي السلبي بالدرجة الأساسية، مع افتقادنا – إلى حد ما – التأثيرين معاً: السلبي والإيجابي كما قلنا في صدر حديثنا.

المبحث الرابع
دور جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم

في البدء نجد أنفسنا مدعوين إلى القول إن البواعث التي توجد وتفرز النفوذ السياسي لجواري الأمراء والخلفاء الأمويين وقهرماناتهم ووصيفاتهم بالأندلس توافرت في البلاط الأموي، وهي البواعث التي ذكرناها في أكثر من مبحث. ولا بأس من ترددادها هنا. أعني احتشاد قصور الأمراء والخلفاء بالخدم من الجنسين، ميل الأمراء والخلفاء إلى جواري المتعة أو اللذة والشغف بهن وبالتالي تحقيق رغباتهن.. إلخ. ونحن هنا لا نعني بالضرورة الجانب السلبي للنفوذ السياسي النسوي لجواري الخدمة وجواري المتعة فقط وإنما الجانب الإيجابي، إلى غير ذلك من البواعث.

نقول هذا على سبيل التقرير. أما الواقع فالحق أن الإشارات التي توافرت لدينا عن وجود نفوذ نسوي لجواري الأمراء والخلفاء ووصيفاتهم وقهرماناتهم نزرة يسيرة. ومن هذا النزر اليسير لحالات النفوذ، ذلك الذي أثبته المؤرخون لجارية خدمة أو قيمة للأمير الأول المؤسس عبدالرحمن الداخل، حسبما عرفنا من قبل في الفصل الأول، حيث اضطلعت هذه الجارية القيمة بدور سياسي في مسألة تدبير أمر اغتيال الأمير عبدالرحمن الداخل لأحد الثائرين عليه من خصومه، وهو أبو الصباح اليحصبي(١٣٣) ونعود لذكر حالات النفوذ النذرة اليسيرة لجواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم وذلك الدور الذي أثبته المؤرخون لجاريةٍ حظيةٍ من حظيات الخليفة العظيم عبدالرحمن الناصر، عنيت الجارية الزهراء. ومن أسف أننا لا نعرف شيئاً عن أصلها ومتى ولدت ومتى ماتت؟ واكتفت المصادر بتقديمها لنا على أنها جارية متعة من جواري الخليفة الناصر أحبها حباً شديداً. وعندما توفيت جارية للخليفة الناصر وتركت مالاً كبيراً، راودته جاريته الأثيرة الزهراء أن يبني لها بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها. ولما كان الخليفة كلفاً بها أشد الكلف فإنه – وهذا هو شاهدنا على تأثيرها ونفوذها في دولة زوجها الخليفة – لم يُخَيِّبْ

ظنها، فأصدر أوامره ببناء مدينة ملكية فخمة بنيت على بعد أميال يسيرة من العاصمة قرطبة. وحقق لها الخليفة مطلبها بإطلاق اسمها أي الزهراء على هذه المدينة التي بذل في بنائها كل غال ونفيس مما أطنب المؤرخون في ذكره والإشادة به، وما سطره الشعراء في وصفها – أعني المدينة – وقالوا فيها روائع الشعر. هذه المدينة الباذخة التي وجِّه فيها للخليفة النقد للتكلفة الباهظة التي تكبدتها الميزانية العامة للدولة. كل ذلك لتحقيق رغبة هذه الجارية الحظية عند سيدها ومولاها الخليفة(١٣٤)، وإن كان عدد من المؤرخين المحدثين يستبعد تماماً سبب بنائها على النحو الذي سطره المؤرخون القدامى، ويميلون إلى القول إن بناءها كان منطلقاً من بواعث الملك وسياساته ورغباته(١٣٥).

ونختم حديث جواري متعة الخليفة عبدالرحمن الناصر بالوقوف عند الدور الذي كانت تمارسه رسيس، تلك المرأة التي عرضنا لشيء من سيرتها في الفصل الأول، وقلنا وقتها إن أغلب الظن أنها كانت جارية متعة للخليفة الناصر لدين الله. وما لم نقله آنذاك وأرجأناه لموضعه هنا أن هذه المرأة التي كانت ذات حظوة لدى الناصر قد غلبت عليه إلى الدرجة التي أركبها في يوم سرور له (مكشوفةً في موكبه بقلنسوة وسيف تقلدته على بغل خلفه بينه وبين الأولاد، وشق – بها – قرطبة كما يقول ابن حزم في كتابه نقط العروس(١٣٦). ولقد ذم ابن حزم هذا الفعل من الناصر وعدّه من قبيل المجاهرة بالمعصية. ونحن عندما نورد هذا الخبر فلأنه يخيل إلينا أنه ينم عن دور ربما يكون – في غياب المعلومة الدقيقة – سياسياً أثار حفيظة ابن حزم وحمل فيه على الناصر.

وثمة دور سياسي اضطلعت به جارية أخرى استطعنا تعرفه من خلال كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لمحمد بن عبدالملك المراكشي فلقد ذكر محمد ابن عبدالملك المراكشي(١٣٧) في إطار ترجمته لعدد من نساء الأندلس، أن ثمة جارية تدعى أميمة الكاتبة، مارست دوراً سياسياً إبَّان الأحداث المؤسفة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ وحتى سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ، وهي

الأحداث التي انتظمها ذلك المسمى التاريخي: عصر الفتنة. أقول مارست هذه الجارية دوراً سياسياً في أحداث ذلك العصر يتمثل في أن أول خليفة من خلفاء عصر الفتنة وهو محمد المهدي بالله الذي بادر إلى خلع الخليفة الشرعي هشام المؤيد بالله سنة ٤٠٠هـ، على الرغم من أنه مات وأشهد شهوداً على ذلك، ولكن الحقيقة أنه أخفاه عن العيون ووضعه تحت الحراسة، فكانت هذه الجارية أميمة الكاتبة ممَّن اضطلع بحراسة الخليفة هشام أيام إخفائه، في دار سيدها، ويدعى الحسين بن حي الذي كان من الوجهاء والأعيان. وهذه معلومات مفيدة جداً تصب في قناة مبحثنا هذا، توضح لنا أن ثمة دوراً نسائياً سياسياً كان يمارس آنذاك طرفه هذه الجارية في فترة عصيبة من تاريخ الأندلس.

وثمة دور سياسي اضطلعت به جارية للخليفة هشام المؤيد بالله بن الحكم تدعى نظام. فقد أرشدنا محمد بن عبدالملك المراكشي كذلك(١٣٨) أن هذه الجارية حررت من إنشائها (الخطاب الذي عزَّى فيه الخليفة هشام الحاجب عبدالملك بن المنصور: محمد بن أبي عامر «٣٩٢-٣٩٩هـ» عن أبيه، وجدَّد له العهد بولايته في شوال سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة) وهذا خبر مهم جداً، إذ يدلنا على صورة من الأدوار السياسية التي اضطلعت بها المرأة في قصور الأمويين بالأندلس. وعلى كل حال فإذا كان الخبر يشكل لنا أهمية وقيمة في حد ذاته بوصفه يأتي في سياق عنوان فصلنا الثاني هذا فإنه يوضح لنا أي أهمية تشكلها كتب التراجم والطبقات بوصفها مصدراً من المصادر المساعدة للكتابة التاريخية، فهذا الخبر انفرد به محمد بن عبدالملك المراكشي، وجاء عرضاً في إطار ترجمته للنساء في كتابه. نعم رصد لنا المؤرخون خبر المرسوم الخلافي الذي أصدره الخليفة المقهور هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر سنة ٣٩٧هـ بإضفاء لقب ملكي على حاجبه وحاجره عبدالملك بن المنصور، وهو لقب المظفر، وأمر أن ينادى به في الكتاب والخطاب(١٣٩). ولكن لم نظفر البتَّة بخبر المرسوم الذي صدر عن الخليفة سنة ٣٩٢هـ يعزي فيه الخليفة هشام الحاجب عبدالملك في أبيه المنصور ويجدد الثقة في شخصه سوى عند محمد ابن عبدالملك المراكشي هذا.

ونعود إلى حديثنا عن أدوار جواري الخدمة وجواري المتعة ونفوذهن، فنختمه بالقول إننا فيما عدا من ذكرنا من الجواري وما مارسنه من أدوار إيجابية كما رأينا لم نجد أي دلائل على مظاهر آثار نفوذ نسوي سالب في البلاط الأموي اضطلعت به جواري الأمراء والخلفاء الأمويين وقهرماناتهم ووصيفاتهم. ولقد كنا نعتقد أول وهلة أن ثمة دوراً تسلطياً اضطلعت به جواري الخليفة هشام المؤيد بالذات يذكرنا بالدور الذي اضطلعت به جواري الخليفة العباسي المقتدر بالله نظراً لقواسم مشتركة بين عهديهما؛ أكده تدخل والدة كل منهما في شؤون الحكم وما تبعه من الاستعانة بالقهرمانات والوصيفات لتحقيق ذلك، ممَّا يدخل في نطاق التسلط والنفوذ كما حدث بالفعل في بلاط الخليفة المقتدر بالله[١٤٠]، بيد أن شيئاً من ذلك لم يحدث هنا في بلاط الخليفة هشام المؤيد بالله. كما أننا لم نعثر كما قلنا قبل قليل على أي دور سياسي سالب مارسته قهرمانات الأمراء والخلفاء الأندلسيين ووصيفاتهم ولعله من قبيل اللجاج أن نتعسف تفسيراً لذلك في ظل غياب المعلومة، كما أن من قبيل التعجل القول: إن انتفاء السبب أو الأسباب ربما هو الذي يفسر لنا عدم وجود آثار لنفوذ سياسي سالب أو موجب – عدا ما ذكرناه من حالات – في بلاطات الأمويين لجواريهم وقهرماناتهم ووصيفاتهم. فلربما يكون الأمر كذلك ولربما يكون طبيعياً لا يحتاج إلى نقاش أو تفسير.

الهوامش

(١) خاض عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين في مسألة ولاية عهد الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل عطفاً على النزاع والقتال الذي نشب بعد موته بين ولديه الأمير سليمان والأمير هشام الذي تولى الإمارة من بعده، واختلفت الأقوال في ذلك بين قائل إن الأمير عبدالرحمن لم يحسم أمر ولاية العهد وتركها غامضة وبتدبير دبَّره مع ابن ثالث له هو الأمير عبدالله، وقائل آخر بل حسم الأمير المؤسس الأمر فولى عهده في حياته لابنه هشام الذي رآه ذا كفاية للخلافة دون ابنه البكر سليمان.
عن هذا انظر إبراهيم ياس خضير الدوري: المرجع السابق، ص٣١٦–٣٢١ حيث ناقش مجمل الأقوال التي جاءت حول هذه القضية مناقشة جيدة.

(٢) انظر ابن حزم: الجمهرة، ص٩٥، حيث الإشارة إلى استبعاد الأمير هشام لابنه البكر عبدالملك من ولاية عهده لا بل ونكبه إياه ثم سجنه له في حياته، والعهد لابنه الحكم بالإمارة بعده.

(٣) انظر ابن حزم: الجمهرة نفسها، ص٩٨ حيث الإشارة إلى أن الأمير الحكم صرف الإمارة من ابنه البكر هشام إلى ابنه عبدالرحمن.

(٤) مؤلف مجهول، ص٢١.

(٥) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٧٩.

(٦) راجع أحمد إبراهيم الشعراوي: المرجع السابق، ص٢١٥–٢١٦، ص٢٦٩–٢٧١ – محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، ص٢٤٩–٢٥٠ حيث الحديث عن خصائص شخصية الأمير الحكم المختلفة عن شخصية أبيه الأمير هشام المسالمة الوادعة مما رصداه من أقوال المؤرخين القدامى والمحدثين عن الأمير الحكم.

(٧) مؤلف مجهول، ص١١٤–١١٥.

(٨) الحقيقة أن صاحب أخبار مجموعة الذي روى الخبر المشار إليه في المتن لم يسم لنا القاضي الذي خشي الأمير الحكم أن يموت فلا يجد بديلاً مثله في عدله وورعه لكننا وجدنا التنصيص على اسم القاضي عند ابن عذاري: نفسه،

الجزء الثاني، ٧٨ الذي قال: هو القاضي المصعب بن عمران قاضي الأمير هشام ثم ابنه الحكم من بعده.
وللوقوف على ترجمة القاضي المصعب بن عمران راجع ابن حارث الخشني: قضاة قرطبة، ص٢٧-٢٨، ص٦٧-٧٢.

(٩) انظر ترجمته عند ابن حارث الخشني: نفسه، ص٧٣-٨٨.

(١٠) ص٨٥-٨٦.

(١١) النباهي المالقي (ت بعد سنة ٧٩٣هـ): تاريخ قضاة الأندلس (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ت)، ص٥٥-٥٦.

(١٢) المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٩.

(١٣) دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، ص٢٧٨.

(١٤) الحاشية (١) ص١١٤ من الجزء الأول من كتاب ابن الأبار: الحلة السيراء في إطار تعليق حسين مؤنس على ما جاء في ترجمة ابن الأبار للأمير عبدالرحمن وجواريه.

(١٥) ص٥.

(١٦) انظر قبل مبحث جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم حيث أشرنا إلى هذه الجارية من جواري الأمير عبدالرحمن الداخل.

(١٧) المشهور: هشام لا هاشم. ولقد مضى المؤرخون على نعته بـ: هشام الثاني تفريقاً بينه وبين جده السابع الأمير هشام الرضا بن عبدالرحمن الداخل. ولعله خطأ من الناسخ، لأن ابن حزم في طوق الحمامة - في صفحات غير الصفحة التي نقلنا عنها - وفي مؤلفاته الأخرى درج على تسميته باسم: هشام.

(١٨) عن صلات أسرة ابن حزم بعامة وهو بخاصة بالأسرة الأموية انظر عبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ١٩٧٩م، ص٥١-٧١.

(١٩) انظر مثلاً لذلك ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس، ص١١٠. وعمَّا يشكله

وجود الجواري سواء أكن جواري خدمة أم جواري استبضاع ولد من تفشي ظاهرة الدسائس والمكائد في القصور والبلاطات الأموية. انظر أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٦٤ – عبدالحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، جمع مادته ونسَّقها أحمد إبراهيم الشريف وراجعه أحمد مختار العبادي، منشورات دار القلم، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ص٩١-٩٢.

(٢٠) ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس، ص٨.

(٢١) ابن حيان: نفس القطعة والصفحة.

(٢٢) طوق الحمامة، ص٥.

(٢٣) الحلة السيراء، الجزء الأول، ص١١٥-١١٦.

(٢٤) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٩٣.

(٢٥) الدَّنف: المرض المُثْقِل والمريض الذي لزمه المرض، ولا ندري هل ثمة كناية هنا في عبارة ابن عذاري: (..وكان بها دَنِفاً) توحي بأن حب الأمير جاريته طروب حباً أدنفه أي أمرضه؟ عن لفظة الدَّنف انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص٢٩٨.

(٢٦) المغرب في حلي المغرب، الجزء الأول ص٤٦-٤٧. وإذا كانت عبارة ابن سعيد منتقاة منه بدقة أي عبارة: ...التي هام بها فإننا هنا أمام حالة في ميل الأمير عبدالرحمن لجاريته طروب تتجاوز الحب والشغف إلى الهيام الذي يعني في اللغة المحبة الشديدة الوجد كما في المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين، الجزء الأول، ص١٠١٥.

(٢٧) انظر ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، الجزء الأول، ص٤٧، وانظر ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٧٧.

(٢٨) نفسه، الجزء الثالث، ص٦١٣.

(٢٩) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا ويختلف باختلاف العهود. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم السابق، الجزء الأول، ص٤٣.

(٣٠) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢٣ الذي أورد القصة من دون ذكر اسم

طروب – ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٩٢ – المقري: نفسه، الجزء الأول، ص٣٤٩–٣٦٠.

(٣١) ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس، ص٨.

(٣٢) انظر ابن حيان: القطعة الثانية نفسها، ص١٤، ١٠٢، ١٠٤.

(٣٣) انظر ابن حيان: القطعة الثانية نفسها، ص١١٠ حيث التنصيص على عدم كفاءة الأمير عبدالله بالقول: (...لم يكن حصيفاً وكذا: كان متخلفاً عن أخيه، مفتقراً لخصال الرياسة).

(٣٤) القطعة نفسها، ص١٠٤.

(٣٥) القطعة نفسها، ص١٠٥–١٠٦ مع الحواشي لا سيما الحاشية (١) التي عقدها المحقق محمود علي مكي ص١٠٥.

(٣٦) تعليق المحقق محمود مكي رقم ٢٤٩، ص٤٢٩ حيث عقد وتتبَّع ترجمة نصر الفتى في المظان الأندلسية المختلفة غير المقتبس لابن حيان.

(٣٧) القطعة نفسها، ص٨–٩.

(٣٨) يستخدم ابن حيان وغيره من المؤرخين الأندلسيين والمغاربة القدامى مصطلح الخلافة بالمعنى اللغوي لا المعنى الاصطلاحي في الإشارة إلى أمراء الدولة الأموية في عصر الإمارة كما جاء في القطعة الثانية نفسها من استخدام هذا المصطلح في الصفحة ٩ حيث النص وفي صفحات أخرى. وراجع – أيضاً ٠– ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٤٧، ٦١، ٦٨، ٨٠ وغير ذلك من الصفحات حيث الإشارة إلى ذات المعنى في الحديث عن أمراء الدولة الأموية.

(٣٩) النصان السابقان جرى نقلهما بتحوير يسير من القطعة الثانية نفسها من المقتبس، ص٩.

(٤٠) القطعة الثانية نفسه، ص١٠٦–١٠٧.

(٤١) القطعة الثانية نفسها، ص١٠٧.

(٤٢) ابن القوطية: المصدر السابق، ص٩١.

(٤٣) القطعة الثانية نفسها، ص١١٠.

(٤٤) ابن حيان: نفسه، ص١٠٧.

(٤٥) انظر ابن حيان: المصدر السابق، ص١٤، ١٠٧، ١١٠.

(٤٦) الحق أن ابن حيان أورد لنا تفاصيل المؤامرة بشكل دقيق معتمداً على عدة مصادر، فكانت روايته أوسع الروايات وأوفرها كما سلف القول. انظر القطعة نفسها، ص٨–١١ وص١٤–١٥ وقارن هذا بما ذكره ابن القوطية: المصدر السابق، ص٩١.

(٤٧) ابن حيان: المصدر السابق، ص١٨.

(٤٨) ابن حيان: نفسه، ص١٧٠.

(٤٩) انظر الحاشية (١) الجزء الأول من كتاب ابن الأبار: الحلة السيراء بتحقيق حسين مؤنس، ص١١٤.

(٥٠) انظر الحاشية نفسها والصفحة.

(٥١) لعله يصعب علينا حصر المصادر والمراجع التي تناولت هذه القضية بالشرح والتحليل، ونكتفي بإحالة القارئ إلى مرجع نعتقد أنه استوعب جوانب هذه القضية وأربى فيها على الغاية. هذا المرجع هو كتاب: نساء في التاريخ لأحمد خليل جمعة، منشورات اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م وعن ترجمة السيدة زبيدة عنده انظر: ص٢٣٩–٣٣٠ ثم انظر تحديداً موضوع ولاية العهد بين الأمين والمأمون ص٣٣٦–٣٤٣.

(٥٢) عن شجرة الدر أول امرأة في تاريخ المسلمين تتولى لحين من الوقت الحكم والملك ثم حياتها العاصفة من الخمول إلى التفرد بالسلطان والجبروت انظر أحمد خليل جمعة: نساء في قصور الأمراء، ص١٩٠–٢٢٩ – محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية شرقية وغربية، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ص٨٥–١١٥ – وفاء محمد علي: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية في العراق ومصر، منشورات دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٢٠٩–١٢٢ حيث استوعبت هذه المراجع أخبارها على الجملة بشكل واسع ودقيق مع تحليل نفسي وتاريخي جيد للغاية.

(٥٣) استغرقت رواية تلك الأحداث الصفحات الممتدة من ص١٠٦–١٢١ من

القطعة الثانية من المقتبس لابن حيان، وقد سرد فيها ابن حيان نقولاته عن أكثر من مصدر من مصادره التي اعتمد عليها في كتابه المقتبس. كما أن المحقق محمود علي مكي قام بإصلاح بعض الفقرات التي حدث فيها سقط وقطوع مستكملاً لها ما تأتى له من إيراد مصادر أخرى لخبر تولي الأمير محمد الإمارة مثل الجمهرة لابن حزم، وكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، وكتاب المغرب في حلي المغرب لابن سعيد المغربي، ثم ما يفرضه سياق الخبر من معنى أو معان.

(٥٤) انظر تحديداً ص١٠٨، ١٠٩، ١١٤-٢١٨، من القطعة الثانية من المقتبس.

(٥٥) القطعة نفسها، ص١١١.

(٥٦) القطعة نفسها، ص١١٢.

(٥٧) القطعة نفسها، والصفحة ذاتها.

(٥٨) القطعة نفسها، ص١١٣.

(٥٩) ابن حيان: القطعة نفسها، ص١١٠.

(٦٠) ص٣١٢.

(٦١) انظر ابن حيان: القطعة الثانية من المقتبس، ص١٠٥ مع الحاشية (١) التي عقدها المحقق وكذا ص١٥٦.

(٦٢) نفسه، الجزء الثاني، ص١٥٠-١٥١ وإن كان ابن حزم: نقط العروس، ص٨٧ يقول إن القاسم مات مسموماً على يد أخيه الأمير عبدالله.

(٦٣) انظر تشبيه ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٥٧ عبدالرحمن الناصر بجده الأعلى الأمير المؤسس الأول عبدالرحمن الداخل وانظر قبل التمهيد.

(٦٤) انظر تفاصيل ذلك عند ابن حيان: القطعة الخامسة، ص١٧-١٨ - ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢١٧، ٢٢٨، وانظر كذلك ص١٨١-١٨٢ من الجزء نفسه حيث الإشارة إلى قتله عدداً من أفراد البيت الحاكم من إخوة جده الخليفة وأبناء عمومته.

(٦٥) ابن حيان: القطعة الخامسة من المقتبس، ص١٠١-١٠٢ - ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص١٦٦.

(٦٦) القطعة الخامسة من المقتبس، ص١٦.

(٦٧) القطعة الخامسة نفسه، ص١٦-١٧.

(٦٨) القطعة الخامسة نفسها، ص١٧.

(٦٩) يخيل إلينا أن صواب العبارة هو: لتراضي أمر أبيه كيما يستقيم المعنى ومعلوم أن النَّحْبَ: المدة والوقت والأجل. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٩١٣. وهكذا فإن الجملة تعني أن الأمير الحكم أفنى وقته - عزباً - تحقيقاً لرغبة أبيه وطلباً لرضائه.

(٧٠) عن أسلوب ابن حيان انظر مقدمة محقق القطعة الثانية من المقتبس محمود علي مكي، ص١٢٩-١٣٢.

(٧١) الكهولة: السن الواقعة بين الثلاثين إلى الخمسين. ورجل كهل: الرجل الذي تجاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٨٠٩.

(٧٢) عن لفظة قَلَصَ التي من معانيها اللغوية: التناقص انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق نفسه، الجزء الثاني، ص٧٦١. أما كلمة: قابضة التي جاءت رديفة كلمة شهوة وكونت معها عبارة (...وشهوة قابضة) فالحق أن بدر وشالميتا ومن معه من محققي القطعة الثانية من المقتبس قاموا بوضعها بين حاصرتين لوجود سقط في الكلمة، فرمَّموها واستكملوها.

(٧٣) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٠٨.

(٧٤) عن مملكة نافاريا أو نافار (نبرة) ونشأتها، انظر محمد بعدالله عنان: دولة الإسلام من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، ص٢٠٨-٢١٢، ص٢١٣، ص٣٥٣-٣٦١ - الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص٤٠١، ٥٩٦-٦١٠ حيث التفصيل الواسع لنشأتها وعلاقتها بالدولة الأموية.

(٧٥) عن صلة القربى هذه انظر عبدالواحد ذو النون: قيام الممالك الأسبانية وعلاقتها مع العرب في الأندلس، ص٩٦-٩٧. وعن تفاصيل الزيارة وتحقيق

الناصر لمطلب الملكة تيودا (طوطة) انظر محمد عبدالله عنان: الخلافة الأموية ص٤٠٢-٤٠٣ حيث استوعب الحدث وحلَّله تحليلاً جيداً.

(٧٦) انظر محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية شرقية وغربية، ص٢٠٠.

(٧٧) تراجم إسلامية شرقية وغربية، ص٢٠٠.

(٧٨) ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٢٥.

(٧٩) ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٥٣.

(٨٠) ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٥٢.

(٨١) ابن حزم: طوق الحمامة، ص٥.

(٨٢) ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٥١ - المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٩٩.

(٨٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، الجزء الأول، ص٣١٦.

(٨٤) ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ): أعمال الأعلام أو تاريخ المغرب في العصر الوسيط، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، القسم الثالث من المخطوط، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م، ص٥٩.

(٨٥) السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الثاني، ص١٣٢-١٣٣ حيث يشير إلى وجود هذه الهدية العاجية التي أهداها الخليفة الحكم لزوجته صبح في متاحف أسبانيا وبريطانيا.

(٨٦) تراجم إسلامية شرقية وغربية، ص٢٠١.

(٨٧) انظر قبل مبحث الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم.

(٨٨) المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٩٩.

(٨٩) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٥١.

(٩٠) عن الإشارة لتولي محمد بن أبي عامر للمناصب الثلاثة والسنة التي تولاها وهي سنة ٣٥٦هـ انظر ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٤٣-٢٤٤ ثم انظر ص٢٤٩ عن توليّه منصب صاحب الشرطة بالإضافة لمنصب صاحب

المواريث. وص٢٥١ عن توليّه منصب قاضي قضاة غرب الأندلس ثم منصب صاحب الحشم.

(٩١) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٤٩.

(٩٢) هذا ما يقوله محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية شرقية وغربية، ص٢٠٤ وإن كنا لم نجد دليلاً على موضوع الوصاية في المظان التي عدنا إليها.

(٩٣) ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٥٣.

(٩٤) تراجم إسلامية شرقية وغربية، ص٢٠٤.

(٩٥) جعفر بن عثمان المصحفي، هو حاجب الخليفة الحكم المستنصر ووزيره وقد بلغت مكانته لدى الحكم المستنصر درجة رفيعة. انظر المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٨٢، ٣٨٧، ٣٩٨-٤٠٠.

(٩٦) انظرعن مقتل المغيرة، ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٦١.

(٩٧) هذا ما يقوله محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ص٢٠٤.

(٩٨) خاض عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين في تفسير العلاقة التي ربطت بين السيدة صُبح والدة الخليفة ومحمد بن أبي عامر العامري مذ بدأ نجمه يبزغ حتى وفاة الخليفة الحكم زوجها، واستمر ذلك قائماً لبضع سنوات.وذهب بعضهم إلى إساءة الظن بهما معاً، والقول إن العلاقة خرجت عن إطار خادم ومخدوم إلى الشغف والغرام لا بل وأبعد من ذلك. ولقد اتُّهِمَت السيدة صُبح في شرفها، وترددت أبيات من الشعر قيلت وقتذاك تذهب هذا المذهب، ولعلنا نكتفي فقط بإحالة القارئ إلى مصدرين ثم مرجع واحد وقفت عند هذا الأمر وتناولته - من خلال مصادرها - إمَّا بالإقرار وإمَّا بالإنكار. والمصدران هما: ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٠٤ وما بعدها وص٢٨٠ - المقري: نفسه، الجزء الأول، ص٣٩٩، ٦٠٢، ٦٠٣ - الجزء الثاني، ص٣٠٤ - الجزء الثالث، ص٨٨-٨٩ - وقد نقل المقري دفاع أحد مصادره عن العلاقة بين الاثنين - محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية شرقية وغربية، ص٢٠١-٢٠٩ ويذهب إلى تأييد تلك العلاقة.

(٩٩) المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٨٧.

(١٠٠) المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص٨٧.

(١٠١) نفس الجزء والصفحة. ولا ندري ما الذي يقصده المقري بعبارة: جميع الحرم الواردة في ذات النص اللهم إلَّا إذا كان المقصود بها أم الخليفة وأنها السيدة صُبح فكنى بها بالحرم. وهذا أمر شائع، فلفظة الحرم لغوياً مأخوذة من الحُرمة، وهي ما لا يحل انتهاكه من كل شيء وآكده حرمة الرجل وأهله. ومن هنا قيل الحريم للدلالة على ما حُرِّمَ فلا يُنتهك. وحريم الدار ما أضيفت إليها حقوقها ومرافقها. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص١٦٩. ونعود إلى لفظة الحرم في نص المقري فلا نفهم منها إلا أنها السيدة صبح ذاتها ولقد سبق لزوجها الخليفة الحكم نفسه أن نعتها بذلك كما أشار المؤرخون في معرض استغرابه الهدايا التي دأب محمد بن أبي عامر على بعثها لصبح. انظر مثلاً لذلك ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٥٣. هذا شيء والشيء الثاني أننا نعرف أنه لم يكن للخليفة الحكم سوى هذه الزوجة المتفردة.

(١٠٢) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٦٥ – المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٨٨-٩٢، حيث الإشارة والخبر وحيث ترجمة القائد غالب الناصري هذا.

(١٠٣) انظر ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٦٥، ٢٦٦. وعن منصب صاحب المدينة الذي يعني: محافظ المدينة انظر أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي – تاريخ وحضارة، ص٢٩٩-٣٠٠.

(١٠٤) راجع ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٦٧ – المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص٨٩ حيث الإشارة إلى ذلك وحيث الإشارة إلى عبارة (قامت قيامته) الواردة في المتن.

(١٠٥) راجع ابن عذاري: نفسه، ص٢٦٧ وما بعدها.

(١٠٦) ابن عذاري: المصدر السابق، ص٢٨٠.

(١٠٧) خاض عدد من المؤرخين المغاربة والأندلسيين القدامى في تتبُّع حال المنصور مذ قدم إلى قرطبة من مدينة الجزيرة الخضراء البعيدة حتى أصبح الآمر

الناهي ورجل الدولة والحُكْم ردحاً طويلاً من الزمن إلى أن أدركته المنية سنة ٣٩٢هـ والوسائل التي اتخذها في سبيل تحقيق حلمه بالتَّسود والحكم والسلطان، ومن هؤلاء مثلاً الفتح بن خاقان – ابن سعيد المغربي – ابن عذاري – ابن الخطيب – ابن خلدون – المقري. غير أننا لا نجد أمتع ولا أجمع لكل الأخبار عنه من تلك اللوحة التعبيرية التي رسمها ابن خلدون وقدمها لنا في قالب روائي مليء بالانبهار في كيفية بناء محمد بن أبي عامر لدولة عامرية له ولأبنائه في قلب الدولة والخلافة الأموية حتى استقام له الملك الفسيح والجاه العريض.

راجع ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٨٨–١٩٠.

(١٠٨) ابن حزم: نقط العروس، المجلد الثالث عشر، الجزء الأول، ص٧٦–٧٧.

(١٠٩) ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٧٩ عن تلقبه بلقب المنصور، ص٢٩٤ عن تلقبه بالملك الكريم.

(١١٠) انظر عن سبل حجر محمد بن أبي عامر على الخليفة هشام ابن عذاري: نفسه، الجزء الثاني، ص٢٧٦.

(١١١) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٩٥.

(١١٢) عن تقويم المؤرخين القدامى لشخصية الخليفة هشام المؤيد بالله وإجماعهم على أنه كان ذا شخصية ضعيفة مغفلة نكتفي باثنين فقط هما ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، نفسه، الجزء الأول، ص١٩٣–١٩٦ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٥٨ وإن كان ابن سعيد أشد قسوة عليه. ولا ندري كيف يحمل ابن سعيد على هشام وهو نفسه يورد جواب هشام المؤيد بالله لأمه الذي يدل على وعي سياسي؟

(١١٣) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص٧٣–٧٥ – المقري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٩٨–٩٩.

(١١٤) هذا ما يقوله محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية شرقية وغربية، ص٢٠٩–٢١٠، والواقع أننا لم نجد في المظان التي بين أيدينا ما يؤكد اتصال صبح بزيري بن عطية ونحن عندما نورد موضوع تحريض صبح لزيري بن

عطية بحسب قول محمد عبدالله عنان فإننا لا نستبعد أن يصدر من أم مكلومة مطعونة أي تصرف للانتقام من خصمها.

(١١٥) ابن بسام: نفسه، القسم الرابع، المجلد الأول، ص٧١-٧٣.

(١١٦) ابن بسام: نفسه، ونفس القسم والمجلد، ص٧٣.

(١١٧) نفسه، ونفس القسم والمجلد والصفحة.

(١١٨) عن وفاة السيدة صبح انظر ابن الفرضي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٣٥-١٣٦ وقد جاء ذلك في إطار ترجمة ابن الفرضي لعالم من علماء الأندلس الوافدين إليها وهو سعيد بن شعيب القيرواني الذي مات في نفس سنة ٣٨٩هـ التي ماتت فيها السيدة صبح. بل إن ابن الفرضي رصد لنا يوم وفاتها تحديداً وهو يوم الاثنين - الذي هو نفس يوم وفاة سعيد بن شعيب - فقال إنها كانت لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة سنة ٣٨٩هـ ودفنت في يوم الثلاثاء. وقيمة هذا الخبر أننا للمرة الثانية نجد في المصادر المساعدة من المعلومات والحقائق ما لم نجده في أمهات كتب التاريخ العام والخاص. وهنا في حالة صبح لم نجد في المصادر الأندلسية والمغربية إشارة إلى سنة وفاة صبح فضلاً عن تحديد اليوم والشهر وتاريخ الدفن الذي وجدناه في كتاب ابن الفرضي هذا، وهو من كتب التراجم والطبقات كما لا خفاء.

(١١٩) كتب الكثير عن هؤلاء السيدات المتنفذات في القصور الخلافية العباسية والفاطمية، ولعلنا نكتفي بإحالة القارئ إلى كتاب: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية في العراق ومصر لوفاء محمد علي حيث عقدت دراسة تاريخية وتحليلية مركزة عنهن استناداً إلى العديد من المصادر والمراجع في المباحث: الأول، ص٩-٦٥، الثاني، ص٧٧-٩٨.

(١٢٠) النصوص الواردة على لسان الخليفة العباسي الهادي (١٦٩-١٧٠م) أوردها عدد من المؤرخين نكتفي فقط بإحالة القارئ إلى الطبري (ت ٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك، منشورات دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ١٣ جزءاً، الجزء العاشر، ص٣٣.

(١٢١) انظر مثلاً ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٨٠.

(١٢٢) نكتفي فقط بإحالة القارئ إلى ابن بسام في ذخيرته، القسم الأول المجلد الأول، ص٤٣٣-٤٣٤ - الذي ينقل هذا القول عن ابن حيان في الجزء المفقود من المقتبس - نكتفي بإحالة القارئ إلى ابن بسام في ذخيرته وعنه ينقل الناقلون. وأما الخليفة العباسي المستكفي بالله: عبدالله بن المكتفي بالله علي بن المعتضد بالله أحمد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد (٣٣٣-٣٣٨هـ) فقد كان أحد خلفاء العصر العباسي الثاني الذي يعد عصر الضعف للخلافة العباسية. عن المستكفي بالله انظر مثلاً السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٧-٣٩٨. أما لفظة: رذلي التي أنهى ابن حيان فيما ينقله عنه ابن بسام حكمه على الرجلين معاً: المستكفي الأموي والمستكفي العباسي، أي قولة رذلي قومهما فإنها مأخوذة من الرذل أو الأراذل ومعناها: الدون الخسيس أو الرديء من كل شيء.
إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص٣٤١.

(١٢٣) نكتفي فقط بإحالة القارئ إلى ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٤٨-١٥٠.

(١٢٤) الجزء الأول، ص٢١٢.

(١٢٥) عن بدر مولى الأمير عبدالرحمن الداخل والدور السياسي الخطير الذي اضطلع به في التمكين لعبدالرحمن الداخل حتى أسس دولته انظر إبراهيم ياس خضير الدوري: المرجع السابق في صفحات متفرقات من الفصل الأول، والفصل الثاني، والفصل السابع، وانظر بصفة خاصة، ص٣٢٤-٣٢٦ حيث الحديث الواسع والدقيق عن تفاصيل تردي العلاقة بين عبدالرحمن الداخل ومولاه بدر وأسباب ذلك.

(١٢٦) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٥٥-٥٦ وهو صاحب عبارة: شقيقته ابنة أمه التي نقلناها في المتن - ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٤١ - المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٣٣، وعن سالم مولى أم الأصبغ ثم عبدالرحمن الداخل فيما بعد ودوره في قيام الدولة الأموية وعلاقته بالداخل انظر مؤلف مجهول: المصدر نفسه أعلاه، ص٥٧.

(١٢٧) مؤلف مجهول: نفسه، ص٥٦.

(١٢٨) ابن القوطية: المصدر السابق، ص٥٥ – ابن حارث الخشني: المصدر السابق، ص٥٢ وقد جاء عنده اعتذار أم الأصبغ لشقيقها بما نصه: (كبرت سني وأشرفت على انقضاء أجلي ولا طاقة بي على شق البحار والقفار وحسبي أن أعلم ما صار إليه من نعمة الله) – ابن الفرضي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٨٣٨ وقد أشار فقط إلى أن الأمير عبدالرحمن وجَّهه – أي معاوية ابن صالح – بكتاب إلى أخته أم الأصبغ. وعن ترجمة معاوية بن صالح نفسه انظر ابن حارث الخشني: نفسه، ص٥٠-٦٠ – ابن الفرضي نفسه، الجزء الثاني، ص٨٣٨-٨٤٠.

(١٢٩) الحلة السيراء، الجزء الأول، ص١٤٠ وانظر في ذات الجزء الترجمة الواسعة للوزير هاشم بن عبدالعزيز التي عقدها ابن الأبار له في كتابه هذا وشغلت الترجمة الصفحات ١٣٧-١٤٢ مع الحواشي القيمة التي عقدها محقق الكتاب حسين مؤنس.

(١٣٠) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٠٦ وراجع قبل ما قلناه عن الناصر وفتكه بالمقربين منه من جوار وأبناء وأبناء عمومة.

(١٣١) نحيل القارئ إلى مرجع استوعب أخبار الأميرتين العباسيتين: عُلية بنت المهدي وأختها العباسة. وهذا المرجع هو: نساء في قصور الأمراء، لأحمد خليل جمعة، ص٢٥١-٣٢١ عن عُلية، ص٣٢٢-٣٦٨ عن العباسة. وقد ناقش المؤلف كل ما قيل عن هاتين الأميرتين وتأثيرهما في بلاط أخيهما الخليفة هارون الرشيد وما التصق بهما من أقاصيص مكذوبة، فليراجع.

(١٣٢) نكتفي بإحالة القارئ إلى كتاب نفوذ النساء في العراق ومصر لوفاء محمد علي، ص٦٥-٧٦ حيث الحديث التاريخي الواسع والدقيق عن هذه السيدة وتأثيرها في بلاط أخيها العزيز، ثم بلاط ابن أخيها الحاكم بأمر الله التي دبرت مؤامرة لقتله حاكتها بدهاء بالغ.

(١٣٣) انظر مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٧ ثم انظر الحديث الواسع عن هذا التأثر في الكتاب نفسه، ص٧٨، ٨٢-٩٧.

(١٣٤) انظر مثلاً – ولعله يكفي عن غيره – المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٥٢٠، ٥٢٣–٥٥٢. وعن الفخامة التي تميزت بها مدينة الزهراء حتى غدت تحفة معمارية من آنق التحف المعمارية للمدن في العصور الإسلامية، انظر السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الأول، ص٢٣٩–٢٥٧ حيث عقد دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية لهذه المدينة الملكية الفخمة.

(١٣٥) الفصلة السابقة، المجلد الثالث عشر، الجزء الأول، ص٧٣–٧٤.

(١٣٦) راجع السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص٢٣٣–٢٣٧، محمد عبدالله عنان: الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص٤٣٦.

(١٣٧) القسم الثالث، الترجمة رقم ٢٤٧، ص٤٨٣ حيث الترجمة لها والإشارة إلى سيدها الحسين بن حي.

(١٣٨) القسم الثالث نفسه، الترجمة رقم ٢٨٠، ص٤٩٣.

(١٣٩) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٥–١٨.

(١٤٠) عن دور جواري الخليفة المقتدر بالله العباسي وقهرماناته ونفوذهن في المعترك السياسي انظر وفاء محمد علي: المرجع السابق، ص٥٤–٥٨ حيث عالج الموضوع معالجة تاريخية قيمة.

الفصل الثالث

مظاهر النفوذ الاجتماعي للمرأة
في البلاط الأموي

- توطئة.
- المبحث الأول – دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم.
- المبحث الثاني – دور حرائر الأمراء والخلفاء.
- المبحث الثالث – دور بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم
- المبحث الرابع – دور جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

الفصل الثالث
مظاهر النفوذ الاجتماعي للمرأة في البلاط الأموي

توطئة:

لعلنا بادئ ذي بدء نقصد بتتبعنا لآثار النفوذ الاجتماعي للمرأة في البلاط الأموي في المحددات الزمنية التي توخيناها – أي ١٣٨ – ٤٢٢هـ – إسهامات نساء البلاط الأموي في الحياة الاجتماعية مؤثرةً أو متأثرة، عناوينها الرئيسة: تلمس لاحتياجات المجتمع لمرافق تعبدية ومدنية تفاعلاً وتعايشاً معها – رغبات ذاتية محضة في تسجيل حضور فاعل في الأعمال الخيرية بغية الأجر والمثوبة من المولى عز وجل – استغلال مكانتها أو موقعها: في البلاط الأموي في الانتظام في عداد الممجَّدات الخالدات ببذلهن وعطائهن، من نساء المسلمين ينظر إليه على أنه استغلال موجب بلا مراء.

على أنه لا يمكن لهذه الأبعاد أن تتحقق إلا وسط توافر بحبوحة اقتصادية واسعة. ولعله ليس غائباً عن أذهان الباحثين ما بلغته الأندلس من ثراء في ظل الدولة الأموية في عصري الإمارة والخلافة. وكيف فاض المال في أيدي الخلفاء والأمراء فيضاً واسعاً اجتذب اهتمام المعاصرين من الرحالة زوار الأندلس؟[١].

في أجواء ذلك الثراء الذي عرفته الأندلس بعامة والبلاط الأموي بخاصة، وفي أجواء الإغداق السخي لأمراء الدولة الأموية وخلفائها على سيدات قصورهم: زوجات وأمهات وأخوات وربما جوارٍ، وفي أجواء الرغبة في تسجيل حضور فاعل ومؤثر في أعمال الخير والبر لدى أولئك السيدات إما بالدافعية التلقائية التي ذكرناها آنفاً وإما بالرغبة في التأسي – كما نظن – بسيدات القصور في المشرق – والسيدة زبيدة بنت جعفر زوج الخليفة هارون الرشيد مثلٌ يحتذى في إسهام امرأة بلاطات الحكام في أعمال البر والعطاء[٢].

في أجواء هذه المعطيات التي تبدت لنا كان لعدد كبير من سيدات قصور الأمويين: سواء كن متنفذات أم لا إسهاماتهن في الحياة الاجتماعية، وتمثل توالي نساء البلاط الأموي في:

- تَعَهُّدِ المرافق التعبدية (المساجد – الجوامع) تشييداً وإصلاحاً علاوة على كتابة المصاحف وتحبيسها.
- تَعَهُّدِ المرافق المدنية (المنى[٣] – المقابر – المباني الوقفية) بالاهتمام والرعاية.
- تَعَهُّدِ أحوال الفقراء والمحتاجين بالهبات والتبرعات المختلفة.

المبحث الأول
دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم

إن جهد التقصي الذي بذلناه بحثاً في النتف التي بين أيدينا من سير أمهات الأميرين الأولين من أمراء الدولة الأموية وزوجاتهما، أعني الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام ثم ابنه الأمير هشام الرضا بن عبدالرحمن لم يسعفنا في الحصول على آثار نفوذ أو أدوار لهن على الصعيد الاجتماعي. أما سيدات بلاط الأمير الثالث الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل فقد وجدنا إشارات تاريخية لدور اجتماعي وقفت وراءه زوجة الأمير وحظيته الأثيرة الجارية عجب التي عرضنا لسيرتها ولدورها على الصعيد السياسي من قبل. فقد أنشأت عجب منية كبيرة(٤) في العاصمة قرطبة وجنوبيها تحديداً عرفت بـ: منية عجب. ثم لا تكتفي بذلك وإنما تشيِّد مسجداً كبيراً سمي باسمها؛ أي مسجد عجب في العاصمة قرطبة ذاتها يلبي حاجة المجتمع ويخلد لها ذكراً(٥).

وثمة أعمال خيرية أخرى أسهم بها عدد من زوجات الأمير الأموي الرابع الأمير عبدالرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام. هذا الأمير الذي أكثر من التزوج على النحو الذي عرضنا له في الفصل الأول، وقد أمدتنا المصادر بأخبار عن إسهام زوجاته: طروب والشفاء وفجر واعتزاز في تشييد المساجد وبنائها. نعم حفظ لنا المؤرخون خبر المسجد الذي ابتنته طروب والدة ابنه الأمير عبدالله في قرطبة(٦). ولعل هذا الخبر يسهم في التقليل من قتامة الصورة التي رسمت لهذه الزوجة جراء ممارساتها السياسية غير المسؤولة التي عرضنا لها من قبل في الفصل الثاني. أما زوجته الشفاء والدة ابنه الأمير المطرف ذات الحظوة والمكانة لديه – أيضاً – حسبما وقفنا على أخبارها في الفصل الأول، فقد ابتنت هي الأخرى مسجداً انتصب في حي الربض(٧) الغربي من قرطبة(٨). ومما يجدر ذكره – ولا ندري هل يعد هذا أثراً في علو ذوق المجتمع النسوي في الأندلس آنذاك؟ – أن هذه الزوجة الحظية الأثيرة عند زوجها ومولاها الأمير عبدالرحمن الأوسط قد استأثرت – دون ضراتها – بذلك

العقد الثمين الذي عرف بعقد زبيدة، أعني زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد، ذلك العقد الذي جلبه التجار إلى الأندلس على إثر مقتل ابنها الخليفة محمد الأمين، والأحداث التي وقعت في بغداد آنذاك، فاشتراه الأمير عبدالرحمن لجاريته الشفاء وأهداها إياه كيما تتهادى به بين ضراتها وسيدات المجتمع الأندلسي[٩].

وللجارية الشفاء إسهامات اجتماعية أخرى، فلقد ذكر ابن الأبار[١٠] أن الشفاء كانت من أكثر ربات البلاط الأموي أوقافاً على المساجد والمرضى والضعفاء. وإن كنا لا ندري ما كُنه هذه الأوقاف، هل هي دور مثلاً أوقفت ليصرف ريعها على المساجد والمرضى والضعفاء أم أنها أراضٍ زراعية، أم هي مرافق خدمية أخرى خصصت لهذه الغاية؟ لا ندري وكل الذي ندريه أنها خلدت لها بذلك ذكراً في الخالدين.

وأما الجارية فجر – وقد عاد السياق إلى إسهامات زوجات الأمير عبدالرحمن الأوسط بن الحكم – أما الجارية فجر والدة ابنه الأمير بشر بن عبدالرحمن، فقد ابتنت – هي أيضاً – مسجداً كبيراً نسب إليها؛ هو المعروف بـ: مسجد فجر الواقع بحي الربض الغربي من قرطبة كذلك[١١] وأسهمت جارية الأمير عبدالرحمن: اعتزاز أم ولده الأمير المغيرة حسبما عرفنا من قبل ببناء مسجد كان يقع كذلك بالعاصمة قرطبة، ولقد نسب إليها فقيل مسجد اعتزاز[١٢] وأخيراً هذه جارية الأمير عبدالرحمن: مؤمرة والدة ابنه الأمير المنذر حسبما عرفنا من قبل تنشئ بالعاصمة قرطبة مقبرة نسبت إليها[١٣].

ولا تسعفنا المصادر بمعلومات ثرة عن أدوار اجتماعية لزوجات الأمير الخامس، الأمير محمد بن عبدالرحمن أمهات أولاده اللائي ذكرناهن من قبل في الفصل الأول سوى ما أمدنا به ابن بشكوال في صلته من إسهام حظية الأمير جاريته غزلان أم بنيه: عثمان والقاسم والمطرف ببناء مسجد كان يقع في قلب العاصمة قرطبة، وعرف بمسجد غزلان نسبة إليها[١٤].

على أن ثمة خبراً له دلالته في الشأن الاجتماعي يرويه لنا ابن حيان[١٥] عن

جارية حظية من جواري الأمير محمد هي: فينان أم ولده الأمير الأصبغ التي أشرنا إليها من قبل. ولعل دلالة الخبر تكمن في عَدِّه أمراً مؤطراً لتقليد اجتماعي أحدثته هذه الجارية داخل البلاط الأموي. ومن يدري فلربما احتذاه المجتمع الأندلسي بعد ذلك؟ هذا الخبر ومن ثم هذا التقليد يتمحور في أن الأمير الأصبغ ابن هذه الجارية اعتبط(١٦) شاباً لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره. وقد تركت وفاته رنة أسى بالغة لدى أبويه، وعمدت أمه فينان إلى تضميخ(١٧) جسده بالطيب بكثرة ملحوظة، وهو الطيب المعروف بالغالية(١٨) الذي يعد أفخر أنواع الطيب. ولقد قال ابن حيان – فيما يمكن عدُّه دليلاً واضحاً على أوَّليتها في تكريس ذلك التقليد – (...ولما اتخذ له النعش... أدخل إلى والدته فينان... فضمَّخته بالغالية... وهي التي أحدثت تضميخ نعوش من مات من خلفائهم(١٩) – أي الأمراء الأمويين – بالغالية) ومن أسف أن ابن حيان الذي ختم حديثه عن هذه الجارية بقوله: (...ولها أخبار حسنة)(٢٠) لم يفصِّل القول في أعمال هذه الجارية التي كانت في نساء بني أمية بالأندلس: (عقيلة موصوفة بالسَّرو والجلالة والصلاح والعفة والحصافة وبعد الهمة(٢١)).

ونترك عصر الإمارة الأموية وسيداته من الإماء أمهات الأمراء وأولادهم – حيث لم يتضح لنا أية معلومات عن إسهامات اجتماعية لوالدتي الأميرين: المنذر وعبدالله، أو لزوجاتهما أمهات أولادهما – إلى الحديث عن سيدات عصر الخلافة من الإماء أمهات الخلفاء وأولادهم. وما أن نطالع هذا العصر إلا وتبهرنا العديد من الأعمال الاجتماعية الكبيرة التي اضطلعت بها جارية الخليفة العظيم عبدالرحمن الناصر، أعني الجارية مرجان أو مرجانة والدة ابنه وولي عهده الحكم، تلك السيدة الفاضلة التي وقفنا معها ملياً في الفصل الأول نتحدث عن المكيدة التي دبرتها لضرتها الأميرة فاطمةبنت المنذر بن محمد، وما أسفرت عنه مكيدتها من رفع أسهمها عالية لدى زوجها الخليفة حتى غدت صاحبة النفوذ الأقوى بين سيدات قصره على النحو الذي فصَّلناه من قبل. ولقد قلنا آنذاك إن حق الإنصاف لهذه السيدة الفاضلة يقتضي الإشارة إلى أنها لم تستغل مكانتها أو نفوذها في ممارسة

دور أو أدوار سياسية في بلاط زوجها الخليفة الناصر، وإنما ركزت جهودها على الجانب الاجتماعي الخيري الذي أولته كل عنايتها. وها نحن أولاء هنا نفصِّل هذا الإسهام في الشأن الاجتماعي الذي تنادت إليه. يقول ابن حيان بعد أن روى عن مصدره قصة المكيدة واتضاع مكانة الأميرة فاطمة وارتفاع مكانة الجارية مرجان بالمقابل: (... وفازت ضرتها مرجان بالفضل دونها بالذي تخلَّفت من صالح الآثار في سبيل البر التي لم يَلْحَقْ شأْوها فيه أحد من نساء الناصر لدين الله:

- بصدقات أفشتها.
- وزلفات قدَّمتها.
- ومساجد ابتنتها.
- وأحباس في سبيل الله وقفتها)[٢٢].

هل نحن أمام أعمال بر وخير مختلفة المناحي اضطلعت بها هذه السيدة وسجلت لها في الخالدين ذكراً؟ أجل هذا ما نعنيه. ولنتابع الآن إسهاماتها في حقل المرافق التعبدية، وتأتي المساجد بالطبع على رأسها، فابن حيان الذي أكَّد لنا أن مرجان أو مرجانة ابتنت العديد من المساجد، استوقفه ذلك المسجد الكبير الذي ابتنته في قرطبة. يقول ابن حيان[٢٣]: (...ومن أشهر آثارها كان المسجد الكبير المنسوب إلى السيدة بالربض الغربي – من قرطبة بالطبع – الذي عفَّى الخراب اليوم عليه – أي في زمن ابن حيان وعصره – وقد كان أوسع مساجد قرطبة بناءً وأحسنها عمارة يتكفَّل بمصالحه وأحواضه وسدنته وغاشي[٢٤] وفوده عليه وقفها الجليل الذي وقفته عليه وعلى غيره من مساجدها من أحقالها[٢٥] العظيمة القدر الوافية الغَلَّة بطرف قرطبة الغربي، مستمر الإنفاق عليه وعلى غيره من وافي غلَّتها مرَّ السنين على أوسع الأقسام المحدودة في أصل عقدها).

ولم تكتف السيدة مرجان ببناء المساجد والإنفاق عليها فقط، وإنما أولت جوانب أخرى في الأعمال الخيرية الاجتماعية عنايتها تمثلت في إنشاء صدقات وزلفات على الضعفاء والمحتاجين، كانت ترجمة لوصيتها التي تركتها لابنها ولي

العهد الأمير الحكم. وننظر إلى ابن حيان[٢٦] يسرد لنا بأسلوبه المتفرد خبر الوصية. قال بعد أن ختم حديثه عن المسجد الكبير الذي ابتنته وما أوقفت عليه من أموال: (...إلى وصية لها من المال عظيمة المقدار، سبَّلتها في وجوه زكية من أبواب البر، وقلدتها ابنها الأمير ولي العهد الحكم، نَعَشَ[٢٧] الله بها خلقاً وأبقى لها في الصالحين ذكراً رحمة الله عليها).

وإذا ما تركنا الجارية مرجانة أو مرجان أم الحكم ودورها في الأعمال الخيرية الاجتماعية بمختلف أوجهها إلى عهد ابنها الذي تولى الخلافة بعد موتها بفترة من الزمن حيث ندلف إلى دور زوجته الوحيدة الحظية الغالبة على أمره أم ولده وولي عهده هشام، السيدة صبح البشكنشية صاحبة النفوذ السياسي الطاغي في عهد زوجها الحكم ثم عهد ابنه الخليفة هشام من بعد، وإن كان ذلك النفوذ ما لبث أن انحسر على النحو الذي عرضنا له من قبل، فإننا سنجد إسهاماً للسيدة صبح تمثل في إنشائها مسجداً بالعاصمة قرطبة، عرف بـ: مسجد أم هشام[٢٨]. ثم لا نجد بعد هذا أية إشارات تدلنا على إسهامات ما للإماء أمهات خلفاء عصر الفتنة وزوجاتهم إذ أهملت المصادر تبيان ذلك.

المبحث الثاني
دور حرائر الأمراء والخلفاء

لا نجد – من خلال التقصي الدقيق الذي أجريناه – ما يدلنا على آثار مظاهر نفوذ أو أدوار لحرائر الأمراء والخلفاء الأمويين على الصعيد الاجتماعي اللهم إلا ما ذكر من إنشاء الأميرة أم سلمة بنت محمد بن الحكم زوج الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم مسجداً كان يقع شمالي العاصمة قرطبة، وقد أطلق عليه اسمها أي مسجد أم سلمة. كما ابتنت الأميرة أم سلمة مقبرةً كانت تقع في شمالي العاصمة قرطبة كذلك، وقد أطلق عليها اسمها أي مقبرة أم سلمة(٢٩).

المبحث الثالث

دور بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم

من أسف أن المصادر لم تسعفنا البتة في تعرف آثار مظاهر نفوذ أو أدوار بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم على الصعيد الاجتماعي اللهم إلا ما تسرب إلينا من آثار نفوذ لسيدتين من أخوات بني أمية وبناتهم في الأندلس. أما الأولى فهي الأميرة أم الأصبغ شقيقة الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل. ولقد عرفنا من قبل أن أم الأصبغ قد أسهمت بدور سياسي في قيام دولة أخيها، كما عرفنا أنها قد اعتذرت هي وشقيقتها أمة الرحمن عن القدوم إليه في الأندلس لكبر سنهما. بيد أن تأثير أم الأصبغ في بلاط أخيها الأمير عبدالرحمن لم يتوقف، فقد أورد المقري[٣٠] خبراً له دلالته في الشأن الحضاري – ولربما جاز لنا كما يتراءى لنا عده متصلاً بالصعيد الاجتماعي – ذلك هو أن الأميرة أم الأصبغ دأبت على إرسال الغرائب من الشام إلى أخيها عبدالرحمن في الأندلس، ومن ذلك (الرمان العجيب الذي أرسلته إليه من دمشق الشام)[٣١] ويذكر المقري أيضاً[٣٢] أن أم الأصبغ شقيقة الأمير بعثت إليه بذلك الرمان مع رجل يدعى سفر. ولقد ذاع صيت هذا الرمان الذي غرسه الأمير عبدالرحمن في منيته المشهورة في الرصافة شمالي قرطبة ذيوعاً واسعاً.

أما الأميرة الثانية فهي الأميرة البهاء بنت الأمير عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل، وقد سبق لنا أن عرضنا لذكرها في الفصل الأول، فلقد أورد لنا ابن عبدالملك المراكشي صاحب كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة في إطار ترجمته للأميرة البهاء أن هذه الأميرة كانت امرأة صالحة خيرةً زاهدةً متبتلةً شديدة الرغبة في الخير. وقد ابتنت مسجداً بحي الرصافة نسب إليها. ومن أوجه البر التي دأبت الأميرة البهاء على فعلها هو الإنفاق على المصاحف الشريفة وحبسها أو وقفها على المساجد. وهذه – كما لإخفاء – جهود خيرية تطوعية تحسب لهذه السيدة الفاضلة التي توفيت سنة ٣٠٥هـ فلم يتخلف عن حضور جنازتها أحد كما يقول ابن عبدالملك المراكشي أيضاً في كتابه الذيل والتكملة[٣٣]المشار إليه آنفاً.

المبحث الرابع
دور جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم

لم يتسن لنا أن نعرف شيئاً عن جواري الأمراء والخلفاء الأمويين وقهرماناتهم ووصيفاتهم، اللهم إلَّا ما ذكر عن تشييد الجارية متعة جارية الأمير عبدالرحمن الأوسط، وقد عرفناها في الفصل الأول جارية لذة حسية، أقول إلاَّ ما ذكر عن تشييد الجارية متعة لمسجد في مدينة قرطبة كان يقع في شمالها نسب إليها[٣٤] وينسب للجارية متعة أيضاً المقبرة المعروفة باسمها أي مقبرة متعة الواقعة في العاصمة قرطبة[٣٥].

وهكذا يتضح لنا أن المرأة في البلاط الأموي في الأندلس في المحدد الزمني الذي تقصَّدنا لم تقصِّر أو لنقل لم تتخلَّف عن رصيفتها في قصور الإمارة والخلافة بمشرق الدولة لا بل وفي مغربها أعني بلاد المغرب في الإسهام في الحياة الاجتماعية بأعمال البر والإحسان الجليلة[٣٦] بيد أنه تستوقفنا ملحوظة وهي أن المصادر المغربية والأندلسية بقدر ما كانت ضنينةً علينا في مدِّنا بمعلومات عن المرأة في البلاط الأموي على الصعد التي حددناها مجالاً موضوعياً للبحث، فضلاً عن ضآلة المتسرِّب إلينا من سيرتها حسبما أكدنا في الفصل الأول كانت المصادر المشرقية بالمقابل سخية في الحديث عن امرأة القصور: الأموية المشرقية عامة وإن كان بدرجة أقل، والعباسية خاصة بدرجة أوسع وأوعب ولا ندري سبباً لذلك، فهل كانت ثمة سياسة لدى بني أمية للتكتم على أحوال حرم أو حريم قصورهم الخيرية، أو لعل الأمر ليس كذلك وإنما يمكن تفسيره بفقداننا للكثير من التراث الأندلسي حسبما ذكرنا ذلك أكثر من مرة؟ لا ندري ولكن الذي ندريه أننا من أسف لم نظفر بأخبار إسهام نساء القصور في عصري الإمارة والخلافة يوازي أو يماثل إسهام رصيفتها في قصور الإمارة والخلافة بالمشرق.

إن الإسهامات الاجتماعية المنسوبة للجارية مرجانة أم الخليفة الحكم المستنصر على النحو الذي ذكرناه آنفاً – وهي في تقديرنا تمثِّل ذروة البذل والعطاء،

ما يحفظ لها مكان الريادة لسيدات البلاط الأموي في الأندلس – لا تمثل شيئاً أمام ما أمدتنا به المصادر المشرقية عن سيدات القصور العباسية حيث التفصيل الواسع عن أخبارهن وثرواتهن وإسهاماتهن في جوانب الحياة الاجتماعية. خذ إليك مثلاً السيدة الخيزران زوج الخليفة المهدي ووالدة الخليفتين الهادي والرشيد فقد زادت غلتها في العام عن مئة وستين مليوناً من الدراهم، وقد أنفقت أموالاً عظيمة في رحلة حجها استعصت على الحصر(٣٧) ثم خذ السيدة زبيدة بنت جعفر وأعمالها الواسعة في البر والإحسان ولا سيما في بلاد الحرمين الشريفين وكيف أنفقت على إنشاء العين المنسوبة إليها بمكة أي عين زبيدة ما يزيد عن مليون وسبعمائة ألف دينار، ثم إنفاقها في بعض حجاتها مليون دينار مما يعطي مؤشراً واضحاً عن مقدار ثروتها(٣٨). ثم خذ السيدة شجاع والدة الخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم وكيف كانت ذات ثراء فاحش، وقد قدرت ثروتها عند وفاتها بخمسة ملايين دينار عدا الجوهر الذي زادت قيمته عن مليون دينار(٣٩) ثم إليك السيدة قبيحة أم المعتز بن المتوكل التي ذكر أن ثروتها كانت تزيد عن مليوني دينار غير الجوهر، هذا علاوة على نفوذها الطاغي على الصعد الأخرى(٤٠) وحسبنا أخيراً أن نقف على خبر السيدة أم الخليفة المقتدر بالله ونفوذها وخبر غلَّتها التي كانت تقدر سنوياً بمليون دينار وجهودها في صعيد العمل الاجتماعي، هذا علاوة على نفوذها السياسي الطاغي كذلك(٤١).

هذه نماذج من أخبار نفوذ وثروات، ومن ثمَّ أوجه البر والإحسان التي قامت بها مجموعة من سيدات القصور المشرقية والمغربية في الفترة المعاصرة التي رفلت امرأة القصور الأموية خلالها والتي نظن ظناً يصل حد اليقين أنها لم تقصِّر البتة عن رصيفتها المشرقية والمغربية في البذل والإنفاق بالإسهام في الحياة الاجتماعية الأندلسية وإن كان الذي تفلت من الأخبار هو ذلك الذي جاءك على النحو الذي سطرناه آنفاً. ولا ندري إلى من نحمل التّبعة: أإلى الأمراء والخلفاء الأمويين الذين ذهبنا ظناً أنهم ربما كانوا ينتهجون سياسة التكتم على أعمال حريمهم الخيرية أم إلى ضياع كثير من جوانب تاريخ الأندلس وحضارتها في جملة ما ضاع أو فقد حسبما

ردَّدنا في أكثر من موضع وموطن؟ ولعله يحسن بنا أن نشير ختاماً لهذا الفصل إلى حالة وحيدة عرفنا خلالها مقدار ثروة سيدة من سيدات البلاط الأموي في الأندلس هي الجارية صبح زوج الخليفة الحكم المستنصر ووالدة الخليفة هشام المؤيد بالله فقد صادر الحاجب المنصور بن أبي عامر إبان الصراع بينه وبين صبح حسبما عرفنا في الفصل الثاني أموالها التي بلغت خمسة ملايين درهم وسبعمائة ألف دينار[٤٢].

الهوامش

(١) عن النشاط الاقتصادي والرخاء في الدولة الأموية في عصري الإمارة والخلافة انظر ما قلناه في مبحث حرائر الأمراء والخلفاء من الفصل الأول، سير ربات البلاط الأموي مع الحواشي.
وانظر كذلك ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٦ حيث التنصيص على أن جباية الدولة الأموية في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط بلغت مليون دينار سنوياً.

(٢) عن السيدة زبيدة انظر خليل جمعة: نساء من التاريخ، ص٢٩٩-٣٤٤ حيث استوعب سيرتها استيعاباً جيداً عن المظان المختلفة التي عاد إليها.
وانظر تحديداً ما قيل عن ثروتها وأعمال البر والإحسان التي أسهمت بها، ص٣٠٨-٣١٠.

(٣) المنى جمع منية، وهي الحديقة، وهي كلمة مستعارة من اليونانية (والقبطية أيضاً) راجع إبراهيم ياس خضير الدوري: المرجع السابق، ص٢٨٩ حيث استوعب معاني الكلمة من عدة مراجع لم يتسن لنا الوصول إليها.

(٤) عن هذه المنية انظر مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢٦ وراجع السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص١٦٨ وما بعدها حيث الحديث الواسع الجيد عن تصميم هذه المنية وغيرها ومميزاتها المعمارية.

(٥) عن مسجد عجب انظر محمد عبدالوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي – الخامس الهجري، ص٥٠ حيث استوعب حديث المسجد استيعاباً جيداً من المصادر المختلفة التي عاد إليها.

(٦) عن مسجد طروب انظر المقري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٢٦ وانظر السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الأول، ص١٨٠ مع الحواشي.

(٧) عن أحياء قرطبة ومسمياتها انظر أحمد فكري: المرجع السابق، ص١٦٧-١٧٨ – محمد عبدالوهاب خلاف: المرجع السابق، ص١٨-٢٠ – السيد

عبدالعزيز سالم: نفس المرجع أعلاه، الجزء، ص١٦٣–١٨٠ – حيث المعالجة التاريخية والمعمارية القيمة التي أجراها هؤلاء المؤرخون المحدثون وعن الربض الذي يعني في اللغة: الناصية من الشيء وكذا: ما حول المدينة. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص٣٢٣ وأما معنى الكلمة في المصطلح العمراني الأندلسي فهو أيضاً: الضاحية أو الحي والجمع أرباض انظر أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٢١ – السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الأول، ص١٧٧–١٧٨ حيث الحديث الواسع عن أرباض قرطبة.

(٨) عن مسجد الشفاء انظر القطعة الثانية من المقتبس بتحقيق محمود علي مكي، ص٥٠ مع الحاشية (١) من نفس الصفحة وانظر كذلك: المقتبس في أخبار الأندلس – قطعة تتحدث عن ٥ سنوات غير كاملة من عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله من سنة ٣٦٠–٣٦٤هـ، حققها عبدالرحمن علي الحجي، منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٦.

(٩) عن عقد زبيدة وقصة دخوله الأندلس وشراء الأمير عبدالرحمن الأوسط له وتقديمه هدية لحظيته الشفاء انظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٩٢ – ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٦.

(١٠) فيما نقله محقق القطعة الثانية من المقتبس محمود علي مكي من كتاب التكملة لكتاب لابن الأبار في القطعة التي نشرها كل من المستشرق جونثاليث بالثينا والمستشرق آلاركون بمدريد سنة ١٩١٥م، وضمَّنها – أي محمود علي مكي – القطعة الثانية من المقتبس (انظر حاشية (١) ص١٠٥). وسبق لنا أن قلنا في جزئية الإماء أمهات الأمراء والخلفاء الأمويين وأولادهم من الفصل الأول، إننا لم نعثر في كتاب التكملة لابن الأبار الذي حققه إبراهيم الأبياري ونشر ضمن المكتبة الأندلسية على ما يشير إلى بعض الأخبار. ونعيد هنا القول نفسه مع التساؤل نفسه، وهو هل هذا يعني أن النسخة التي حققها إبراهيم الأبياري ونشرت ضمن المكتبة الأندلسية لم تستوعب كل كتاب الكتملة لابن الأبار؟ أما القطعة التي نشرها جونثاليث بالنثيا وآلاركون في مدريد سنة ١٩١٥م فقد أعياني العثور عليها.

(١١) ابن بشكوال: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٢٤٠.

(١٢) هذا ما أورده محمد عبدالوهاب خلاف في كتابه تاريخ القضاة في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ص١٠٥ نقلاً عن ابن الأبار في كتابه التكملة، وتحديداً في الترجمة رقم ١٩٤ المعقودة لأحد زهاد قرطبة ويدعى خلصة. وقد أشار الباحث إلى أن هذا النص هو مما احتوته طبعة المستشرق الأسباني كوديرا لكتاب التكملة المطبوع بمدريد سنة ١٨٨٧م. ومن أسف أننا لم نجد في طبعة كتاب التكملة لابن الأبار الذي حققه ونشره إبراهيم الأبياري ضمن المكتبة الأندلسية كما قلنا آنفاً ما يشير إلى ترجمة هذا. ولعلنا نكرر التساؤل هنا وهو هل هذا يعني أن طبعة إبراهيم الأبياري لكتاب التكملة لم تستوعب كل مباحث الكتاب؟

(١٣) ابن بشكوال: نفسه، الجزء الأول، ص١٩، ٢٣ وانظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٢٥٢.

(١٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٩، ١٧٤.

(١٥) القطعة الثانية من المقتبس، ص٢١٣-٢١٤ مع الحواشي.

(١٦) اعتُبط: مات بغير علَّة. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٥٨٦-٥٨٧.

(١٧) الضَمْخُ في اللغة: التَّلَطُّخُ. وضمخ جسده بالطيب وغيره ضمخاً: لطَّخة به في كثرة. وضمَّخ: المبالغة في التضميخ، أي سكب الطيب بكثرة على الجسد. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الأول، ص٥٤٥.

(١٨) الغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر. إبراهيم مصطفى وآخرون: الجزء الثاني، ص١٦٦.

(١٩) سبق أن نبهنا في الفصل الأول إلى أن عدداً من المؤرخين القدامى يطلقون لفظة مصطلح خلفاء على أمراء بني أمية في شق دولتهم الإماري بالمعنى اللغوي لكلمة خلفاء لا بالمعنى الاصطلاحي.

(٢٠) القطعة الثانية من المقتبس، نفسها، ص٢١٤.

(٢١) انظر القطعة الثانية نفسها أعلاه والصفحة. أما عن اتِّصاف الجارية فينان

بالسراوة ومعناها اللغوي: الشرف فانظر إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الأول، ص٤٣٠.

(٢٢) القطعة الخامسة من المقتبس بتحقيق شالميتا، ص١٣.

(٢٣) القطعة نفسها، ص١٣-١٤.

(٢٤) الغاشية في اللغة: الغطاء. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٦٦٠ ولعل ابن حيان كنَّى هنا بكلمة (غاشٍ) عن أن نفقات المسجد يغطيها ريع الوقف الذي أوقفته السيدة مرجانة على المسجد من الأرض الزراعية التابعة لها.

(٢٥) الأحقال: مفردها حقل الذي هو الأرض الفضاء الطيبة يُزرع فيها. وتجمع كلمة الحقل على حقول، وأما الحقال ومفردها: الحقلة، وهي الجزء من الحقل، فتجمع على: أحقال.
إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم السابق، الجزء الأول، ص١٨٨.

(٢٦) القطعة الخامسة نفسها، ص١٤.

(٢٧) نَعَشَ الشيء – نعشاً: أنهضة وأقامه. ويقال: نَعَشَ فلاناً جبره بعد فقره أو تداركه من ورطة (ولعل هذا ما قصده ابن حيان بقوله: نعش الله بها خلقاً، وقد يعني ابن حيان بكلمة نَعَشَ: الرفعة، وهي من معاني الكلمة اللغوية أيضاً. أي ارتفع بالأموال التي أوصت بها السيدة مرجانة أقوام).
انظر عن كلمة نَعَشَ ومعانيها اللغوية إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الثاني، ص٩٤٢.

(٢٨) انظر محمد عبدالوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية، ص٥٢ حيث الإشارة إلى هذا المسجد وعدم تمكن الباحث من معرفة موقعه من جهات قرطبة الأصلية وحيث الإشارة إلى المصدر الذي نقل منه هذه المعلومة.

(٢٩) المقري: المصدر السابق، المجلد الثاني، ص١٣.

(٣٠) نفسه، المجلد الثاني، ص٦٤٦، المجلد الثالث، ص٨١٠.

(٣١) نفسه، المجلد الأول، ص٥٤٦.

(٣٢) نفسه، المجلد الأول، ص٤٦٦-٤٦٨، وقد ذكر المقري كيف توسَّع الناس في

غرس الرمان هذا الذي عرف بالسفري نسبة إلى أحد رجال الأمير عبدالرحمن وهو سفر بن عبيد الكلاعي، الذي اجتهد في استنباته بالأندلس بطريقة زراعية مبتكرة فجاء مشابهاً للرمان الذي حُملت غرسته إلى الأندلس من الشام.

(٣٣) ص٤٨٤، وانظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٧٢ حيث النص على ذكر المسجد المنسوب إلى الأميرة البهاء.

(٣٤) انظر محمد عبدالوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية، ص٥٠ - تاريخ القضاء في الأندلس ص١١٨، ٥٨٥ حيث التنصيص والتحقيق الجيد لهذا الموضوع نقلاً عن المصادر التي عاد إليها. وقارن هذا بما قاله أحمد فكري: المرجع السابق، ص١٨٦.

(٣٥) ابن الفرضي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤١٦، وانظر السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الأول، ص٢٢٦ حيث التنصيص على موقعها.

(٣٦) لتعرف دور امرأة القصور المغربية ونفوذها على الصعد المختلفة ومنها الاجتماعي، وهو الأمر الذي سقناه في المتن للتدليل على عناية المؤرخين بهذه المرأة. حسبنا أن نكتفي بالإشارة إلى عدد من سيدات الدولة الزيرية أو الصنهاجية التي أقامها الفاطميون في بلاد المغرب لحُكمِه نيابة عنهم بعد رحيلهم وتحديداً في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٢هـ. فقد أفاضت المصادر في ذكر أميرات صنهاجيات كان لهن ذكر وصيت وأعمال بر وإحسان مثل السيدة أم ملال بنت المنصور أخت الأمير باديس بن المنصور، والأميرة أم العلو بنت باديس بن المنصور شقيقة الأمير المعز بن باديس، والأميرة زليخا زوجة المعز بنت باديس، والأميرة بلَّارة بنت تميم بن المعز بن بادريس.
وللمزيد من أخبارهن راجع ابن عذاري: نفسه، الجزء الأول، ص٢٦١، ص٢٦٤-٢٧٣ - عمر رضا كحالة: أعلام النساء، الجزء الأول، ص١٣٩-١٤٠، الجزء الثاني ص٣٦-٣٧، عن الأميرة زليخا والأميرة بلَّارة حيث تتبَّع ترجمتيهما في المظان التي ترجمت لهما.

(٣٧) انظر عمر رضا كحالة، أعلام النساء، الجزء الأول، ص٣٩٥-٤٠١ - وفاء محمد علي: المرجع السابق، ص٢٤ حيث استوعبا نفوذ الخيزران وأخبارها وأعمالها في مجالات البر والإحسان من المظان المختلفة.

(٣٨) انظر عمر رضا كحالة: نفسه، الجزء الثاني، ص١٧-٣٠ - أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، ص٢٩٤-٣٤٣، حيث الاستيعاب الواسع لنفوذها وأخبارها وحيث الإشارة إلى أعمال البر والإحسان التي رعتها وأنفقت عليها.

(٣٩) انظر عمر رضا كحالة: أعلام النساء، الجزء الرابع ص ١٨٤ - ١٨٧ - وفاء محمد علي: نفسه، ص ٤١ - ٤٩، حيث استوعبا أخبارها على الجملة.

(٤٠) انظر عمر رضا كحالة: أعلام النساء، الجزء الثاني، ص٢٨٦ - أحمد خليل جمعة: نساء في قصور الأمراء، ص١٨٧-١٨٩ حيث استوعبا ولا سيما أحمد خليل جمعة أوجه البر والإحسان التي وقفت وراءها هذه السيدة الجليلة.

(٤١) انظر عمر رضا كحالة: نفسه، الجزء الخامس، ص٦٧-٧٠ - وفاء محمد علي: المرجع السابق، ص٤٩-٦٣، حيث استوعبا أخبارها على الجملة ولا سيما وفاء محمد علي التي فصَّلت - اعتماداً على المظان التي عادت إليها - مقدار ثروتها الهائلة وكذا نفوذها السياسي الطاغي أيضاً.

(٤٢) ابن حيان: المصدر السابق، القسم الرابع، المجلد الأول، ص٧٢-٧٣.

الفصل الرابع

مظاهر النفوذ الثقافي للمرأة في البلاط الأموي

- توطئة.
- المبحث الأول – دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم.
- المبحث الثاني – دور حرائر الأمراء والخلفاء.
- المبحث الثالث – دور بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم
- المبحث الرابع – دور جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم.

الفصل الرابع
مظاهر النفوذ الثقافي للمرأة في البلاط الأموي

توطئة:

لعلنا بادء ذي بدء نقصد بتتبعنا لآثار النفوذ النسوي في البلاط الأموي على الصعيد الثقافي في المحددات الزمنية التي استهدفها البحث – أي من سنة ١٣٨–٤٢٢هـ/ ٧٥٥–١٠٣٠م إسهامات المرأة في البلاط الأموي في الحياة الثقافية: ملهمةً مرةً، ومشاركةً مؤثرةً في الساحة الثقافية بمختلف أوجهها مرةً أخرى. وليس خافياً أن الحياة الثقافية ازدهت وازدهرت في عهد الدولة الأموية ازدهاراً واسعاً[١] وكان لأمراء بني أمية وخلفائهم دور كبير فيما بلغته الساحة الثقافية الأندلسية بفضل تشجيعهم للأدباء والشعراء ورموز الثقافة[٢] فضلاً عن أنهم كانوا هم أنفسهم أدباء شعراء مثقفين[٣].

وفي أجواء هذه المعطيات كان للمرأة في البلاط الأموي حضورها القوي: ملهمة كما قلنا للشاعر والأحاسيس من جهة، ومشاركة مؤثرة تأثيراً مباشراً من جهة أخرى.

المبحث الأول
دور الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم

إن جهد التقصي الذي بذلناه بحثاً في الشذرات التي بين أيدينا عن سير أمهات الأمراء الثلاثة الأُول وزوجاتهم: الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل بن معاوية ثم ابنه الأمير هشام الرضا ثم حفيده الأمير الحكم بن هشام لم يسعفنا في الحصول على آثار نفوذ أو أدوار لهن على الصعيد الثقافي. أما سيدات بلاط الأمير الرابع؛ الأمير عبدالرحمن الأوسط بن الحكم فقد حفظت لنا المصادر أن جاريته وحظيته الغالبة عليه طروب أم ولده عبدالله أشاعت جواً من الأدب والثقافة في بلاط الأمير تأتَّى من طريق غير مباشر، إذ ألهب حب زوجها الأمير لها مشاعره وأحاسيسه فانطلقت نفسه تنظم شعراً رقيقاً عذباً كانت هي – أي طروب – واسطة عقده. مر بنا من قبل في الفصل الثاني أن الأمير أهدى ذات مرة عقداً غالي الثمن لجاريته طروب، وقد لامت خاصة الأمير من رجال البلاط الأمير عبدالرحمن في ذلك، فرد عليهم قائلاً إن مكانة صاحبته عنده أرفع قدراً من ذلك العقد. وما لم نعرض إليه هناك وأرجأناه لموضعه هنا في الفصل المتعلق بالصعيد الثقافي أن هذه المحاورة بين الأمير وخاصته أوقفتنا على شاعرية الأمير عبدالرحمن، تلك الشاعرية التي كان ذلك الموقف أو الحدث ملهماً لها ومفجراً، فلقد ذكرت المصادر أن الأمير قال لهم: (إن لابسه – أي العقد – أنفس منه خطراً وأرفع قدراً. ولئن راق من هذه الحصباء(٤) منظرها ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهراً يغشى الأبصار ويذهب بالألباب، وهل على وجه الأرض من زبرجدها(٥) وشريف جوهرها أقر لعين، وأجمع لزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن ونضرته وألقى عليه الجمال بهجته؟)(٦) ثم توجه نحو أحد شعراء بلاطه الذي كان حاضراً ومستمعاً لتلك المحاورة بين الأمير وخاصته، وهو الشاعر عبدالله بن الشمر بن نمير القرطبي(٧) قائلا له: (هل يحضرك شيء في المعنى؟) فأنشد:

أتقرن حَصْباءُ اليواقيتِ والشَّذرْ ... بِمَنْ يَتَعالى عن سَنَا الشَّمْس والبَدْر

بِمَنْ قد بَرَتْ قِدَماً يَدُ الله خَلْقَهُ ولَمْ يَكُ شَيْئاً قَبْلَهُ أَبَداً يَبْري
فَأَكْرِمْ به مِنْ صيغةِ الله جَوْهَراً تَضَاءَلَ عنهُ جَوْهَرُ البَرِّ والبَحرِ

فأعجبت الأمير الأبيات، وطرب لها طرباً شديداً وأنشد مرتجلاً:

قَرِيضُكَ يابْنَ الشَّمْر عفَّى على الشِّعْر وجَلَّ عن الأوهامِ والذِّهْنِ والفِكْرِ
إذا شافَهَتْهُ الأُذْنُ أَدَّى بِسِحْرِها إلى القلبِ إبداعاً فَجَلَّ عن السِّحْرِ
وهَلْ بَرَاَ الرَّحمنُ مِنْ كُلِّ مَا بَرَا أقَرَّ لِعَيْنٍ من مُنعَمَّة بِكْرِ
تَرَى الوَرْدَ فَوْقَ اليَاسَمِين خَدَّها كَمَا فُوِّفَ الرَّوْضُ المُنَعَّمُ بالزَّهرِ[٨]
فَلَوْ أَنَّني مُلِّكْتُ قَلْبي وَناظِري نَظَمْتُهُمَا مِنْها على الجِيدِ والنَّحْرِ[٩]

هذه القطعة الجميلة هي أثر من آثار الجارية طروب التي استنطقت بمحاسنها حس الأمير، فأبدع هذه القطعة. غير أن هذه الحادثة ليست الوحيدة فثمة خبر رواه أكثر من مؤرخ أندلسي مفاده أن خيال هذه الأميرة طروب بسحرها وجاذبيتها لم يكن يفارق الأمير، ولقد خرج ذات مرة للغزو، فطاف به خيالها، فتشوَّق إلى رؤيتها ناظماً البيت التالي:

شاقَكَ من قرطبةَ السَّاري باللَّيْلِ لَمْ يَدْرِ بهِ الدَّارِي

ثم طلب من شاعره عبدالله بن الشمر أن يجيزه فأجابه:

زارَ فَحَيَّا في ظلامِ الدُّجَى أهْلاً بهِ مِنْ زَائِرٍ سارِي

فهيَّجه ذلك وشوَّقه إلى جاريته وحظيته طروب هذه، فلم يكن منه إلَّا أن ترك على الجيش ابنه الحكم وعاد إلى قرطبة، مُرَدِّداً (وهو من مشهور شعره):

فَقَدْتُ الهَوى مُذْ فَقَدْتُ الحبيبا فما أقطعُ الليلَ إلَّا نَحيبا
إذا ما بَدَتْ ليَ شَمْسُ النَّهارِ طالِعَةً ذَكَّرَتْني طَرُوبَا
فيا طُولَ شَوْقِي إلى وَجْهِهَا ويا كبداً أورثْتُها نُدُوبا
ويا أحسنَ الخلقِ في مقلتي وأوفَرهم في فؤادي نصيبا
لئن حالَ دونَكِ بُعْدُ المزا رِ مِنْ بَعْدِ أَنْ كُنْتِ مني قريبا
لقد أورثَ الشوقُ جسمي الضنى وأَضْرَمَ في القَلْبِ مني لهيبا

فتاةٌ تَحَلَّت بحلى الشِّمال رقى بها العين ظبياً ربيبا
عدانيَ عنكِ مَزَارُ العِدَا وقَوْدِي إليهم لُهَاماً مهيبا[١٠]
ألاقي بوجهي حرَّ الهجيرِ إذا كادَ منهُ الحَصى أن يذوبا[١١]

ونصل إلى الامير الأموي الخامس؛ الأمير محمد بن عبدالرحمن فنجد خبراً عن جاريته غزلان أم بنيه: القاسم وعثمان والمطرف مفاده أنها: (كانت مغنية بديعة محسنةً، عوادة – أي تضرب على العود – أديبة)[١٢] ولا شك أن الجارية غزلان بهذه الصفات التي تحلَّت بها قد أشاعت جواً من الثقافة والأدب في بلاط سيدها الأمير محمد بن عبدالرحمن.

ونترك عصر الإمارة – حيث نفتقر إلى المعلومة عن أدوار الإماء أمهات بقية الأمراء وأولادهم ونفوذهن – إلى حيث عصر الخلافة والخليفة الذهبي عبدالرحمن الناصر وجاريته الأثيرة الحظية الغالبة عليه مرجان أو مرجانة التي عرضنا لها من قبل في الفصول الماضية فيستوقفنا من أخبار مرجانة التي سردنا نتفاً منها، أنه كان لها فضل أدب[١٣] وإن كنا للأسف لم نتعرف ماهية هذا الأدب؟ كما يستوقفنا – أيضاً – أنها تميزت: (بعذوبة المنطق وملاحة الإشارة)[١٤] وإضافة إلى هذا فقد كانت ذات مهارة في الغناء واستخدام آلة العود ونظم الشعر. وليس أدل على هذا من ذلك البيت الجميل الذي نظمته ارتجالاً وهي تكيد لضرتها الأميرة فاطمة بنت المنذر حسبما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول نعني عندما نصبت شراك خداعها لها بشأن تمجيد الليلة التي وعد الأمير فاطمة زوجها وابن عمها الخليفة عبدالرحمن الناصر أن يخصِّصها لها فقالت مرجان لها بعد أن رفعت عقيرتها مغنية والعود بيدها:

يا ليلةً لو أنها تبتاع لي أو تشترى شريتها بكل ما أطلب من المنى[١٥]

والحق أن الحوار الذي دار بين الضرَّتين يؤكد لنا بجلاء توافر النفس الأدبي عندهما معاً، ولا سيما مرجان فقد كان نصاً أدبياً عالياً بلا ريب[١٦].

المبحث الثاني
دور حرائر الأمراء والخلفاء

لم يقدر لنا العثور على ما يروي غلتنا من أخبار إسهام حرة البلاط الأموي في عصري الإمارة والخلافة في الشأن الثقافي سواء بشكل مباشر أو غير مباشر أي لا على صعيد كونها ملهمة للمشاعر الأدبية ولا على صعيد كونها مشاركة مؤثرة تأثيراً فعلياً مباشراً. وغاية ما يمكن أن نشير إليه ولا ندري هل يصح عده مظهراً من مظاهر نفوذ أو دور على الساحة الثقافية لحرة من حرائر الدولة الأموية بالأندلس؟ هو الخبر عن الأميرة كنزة بنت عبدالملك بن عمر بن مروان بن الحكم التي كانت زوجة للأمير الأموي الثاني هشام الرضا بن عبدالرحمن الداخل حسبما مر بنا في الفصل الأول. فلقد فتَّق إصهار الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل إلى الأمير عبدالملك بتزويجه ابنته كنزة من ابنه هشام قريحته – أي الأمير عبدالملك – فأنشأ مقطوعة شعرية يتحدث فيها عن هذا الزواج وعن العروسين معاً. يقول عبدالملك بن عمر مزهواً:

لعَمري لقد أهديتُ بيضاءَ حُرَّةً ... إلى خيرِ مَن أغلى بأثمانِها المهرا
لها حَسَبٌ يَأبى على كُلِّ مُقرِفٍ(١٧) ... ويَرْضى لها تلك الخضارمة الزهرا(١٨)
وآل أبي العاصي هُم نظراؤها(١٩) ... فأَكْرِمْ بشمسٍ أُنْكِحَتْ قَمَراً بدرا(٢٠)

المبحث الثالث
دور بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم

يتملَّكنا الأسى ونحن نقلِّب صفحات المصادر فلا نجد أثراً لحرائر الأمراء والخلفاء الأمويين بالأندلس من البنات والأخوات – ويستوي في هذا الحرائر من الزوجات – يدل على إسهامهن في الحياة الثقافية ببلاطات آبائهن – والأندلس عموماً – سواء على صعيد التأثير غير المباشر المتمثِّل في إلهاب الشاعرية وإذكائها أو على صعيد المشاركة الفعلية المباشرة، ولعله لأمر مثير للدهشة والاستغراب ألَّا نجد لبنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم اللائي أحصيناهن فبلغن أزيد من مائة وثلاثين بنتاً وأختاً[٢١] – يضاف إليهن الحرائر من الزوجات – سوى ما دلَّتنا عليه المصادر عن حُرَّتين من البنات تحديداً، كانت إحداهما ملهمة مهيِّجة للشاعرية هي الأميرة حبيبة بنت الخليفة سليمان المستعين بالله، والأخرى مشاركة مؤثرة في الساحة الثقافية تأثيراً مباشراً هي الأميرة ولادة بنت الخليفة عبدالرحمن المستكفي بالله. وفي الحق أنه ليصعب علينا التَّسليم بأنه لم يكن هناك أثر لسيدة البلاط الأموي من بنات وأخوات الأمويين – والحرة من الزوجات قبلهن – على صعيد الحياة الثقافية. ذلك أننا نوقن أن كل دواعي وجود أثر أو دور ثقافي لسيدة البلاط الأموي بنتاً كانت أم أختاً لا بل وحرة زوجة متوافرة. فالأسرة الأموية في الذؤابة من عراقة المحتد العربي الذي تكون فيه الروح الأدبية غريزية، سليقة في النفس، ولعله لا يعزب عنا أن الجدَّة الأموية لبنات وأخوات أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس التي عايشت الجاهلية والإسلام كانت أديبة شاعرة بطبعها، وهل لنا مثلاً أن نتجاوز (أميمة بنت عبد شمس بن عبد مناف، وسبيكة بنت عبد شمس، وأم جميل بنت حرب بن عبد شمس، وعصماء بنت مروان الأموية، وكلهن استقررن في التاريخ على أنهن شواعر من عصر الجاهلية، ثم أم حكيم بنت يحيى الأموية، وهند بنت عتبة بن ربيعة، وأم عمر بنت مروان بن الحكم، وأم محمد بنت مروان بن الحكم، والثريا بنت علي، وكلهن استقررن في التاريخ على أنهن إما شواعر أو ملهمات للشاعرية عشن في العهد الإسلامي)[٢٢].

هذا أمر والأمر الثاني أن البيئة المحيطة بهؤلاء السيدات، بيئة أدب وعلم تتمثل في الآباء والإخوان، وأبناء العمومة[٢٣]، والأمر الثالث أن البيئة الأندلسية ذاتها كانت بيئة تحرِّض على انطلاق الروح الأدبية وتستفزها[٢٤]، ثم إن المرأة الأموية هي بنت بيئتها العربية، وما أجمل ما قاله باحث مغربي محدث هو محمد المنتصر الريسوني[٢٥] وهو يسرد حديث الشعر عند المرأة العربية فيقول: (إن العرب أمة شاعرة، تبرعمت معطياتها الشعرية، ففاح أريجها في كل صقع من أصقاع البسيطة، فأثَّرت وتأثرت، وطبعي – والأمة هذه تمتلك نبوغاً شعرياً فذاً وأدباً عملاقاً حتى نزل الوحي الإلهي الكريم يتحدى لسنها وأعز ما تعتز به – أن يكون للنساء في هذا المضمار نصيب له وزنه، لذلك راحت بجانب الرجل تستندي القريحة لتهمس بالشعر، فهمست به همسات رائعة ملذة أثبتت قدرتها على الخلق الجميل والإبداع الحسي الخالد الذي جعلها تتفوق في بعض الأحيان على الرجل، والدلائل على ذلك لا تحصى).

من هنا يصعب علينا التسليم بأن نساء البلاط الأموي من بنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم كنّ عريات الأثر في الشأن الثقافي الأندلسي في المحدد الزمني موضوع البحث. مع أننا نسلِّم بالمقابل بأن الشعر النسوي في مجمله (شعر عزيز الوجود نادر جداً بالنسبة إلى الشعر الرجالي في كل اللغات) كما يقول عبدالله كنون في تقديمه لكتاب الشعر النسوي في الأندلس لمحمد المنتصر الريسوني[٢٦].

بيد أننا – من كل بد – لا نتردد أبداً في موافقة محمد المنتصر الريسوني، الذي أرجع سبب إهمال مؤرخي الأدب غفلة أو تغافلاً لما أبدعته المرأة الأندلسية – وحرة الأمراء والخلفاء من البنات والأخوات جزء منها – إلى عدة اعتبارات، منها ضياع الكثير من الشعر النسوي الأندلسي، وكذا التعصب لشعر الرجال ضد شعر المرأة المحكوم بأحكام جاهزة سلفاً تدور حول ضعف نتاجها الأدبي.. إلى غير ذلك من الاعتبارات الأخرى.

وخلاصة الأمر أن زادنا من أخبار أثر أو دور سيدة البلاطات الأموية: بنتاً أو أختاً زاد يكاد يكون معدوماً أين منه زادنا الوفير من أخبار سيدات بلاطات العباسيين من البنات والأخوات مثلاً، حيث نتملَّى – من خلال كتب التراث – بأخبار أديبات

شاعرات عباسيات كـ: علية بنت المهدي وشقيقتيها: العباسة وعائشة، وكذا عائشة بنت هارون الرشيد، وخديجة بنت المأمون بن الرشيد، وعائشة بنت المعتصم بن الرشيد، وكلهن كن معاصرات لبنات الخلفاء الأمويين في الأندلس وأخواتهم(٢٧).

وكيفما كان الأمر فلنعد إلى ما ذكرناه في صدر هذا المبحث، وهو أننا لم نعثر في المصادر إلا على أخبار أميرتين من بنات الأمويين في الأندلس كان لهما ذكر ودور في الشأن الثقافي في البلاط الأموي بخاصة وفي الأندلس بعامة.

أما الأميرة الأولى، فهي الأميرة حبيبة بنت سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر الملقب بالمستعين بالله كما قلنا سابقاً أحد خلفاء عصر الفتنة. ولقد عرضنا لذكرها من قبل في الفصل الأول وقلنا وقتها إن ابن عمها عبدالرحمن ابن هشام بن عبدالجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله، الذي تولى الخلافة في عصر الفتنة، وكان أحد خلفاء هذا العصر، خطبها من أبيها، غير أن ما لم نشر إليه آنذاك وتركناه لموضعه هنا في الفصل الرابع لمناسبته للمقام، هو أن زوجة الخليفة المستعين بالله المدعوة شنف أو مشنف، أَلْوَتْ(٢٨) وسوَّفت بعبدالرحمن المستظهر بالله، فارتفعت عقيرته تصدح بشعر رائق رائع: سبكاً ومعنًى، هو أثر دون ريب أشعلت جذوته في نفسه أميرته الأموية ابنة عمه، فكانت بهذا ملهمةً مفتِّقةً لشاعرية هذا الخليفة من خلفاء العصر الذي تقصدناه بالبحث مما يندرج ضمن حديث مظاهر نفوذ ربات البلاط الأموي على الصعيد الثقافي. يقول الخليفة عبدالرحمن المستظهر الذي جنت عليه السياسة حسبما عرفنا في التمهيد مع علو كعبه في دولة الأدب. يقول معاتباً شنف أم الأميرة حبيبة التي نشأ وإياها:

وجالبةٍ عُذْراً لِتَصْرِفَ رغبتي ... وتَأْبَى المعالي أنْ تُجيزَ لها عُذْرا
يُكَلِّفُها الأهلونَ رَدّى جَهالةً ... وهل حَسَنٌ بالشَّمْسِ أن تمنَعَ البَدْرا؟
وماذا على أُمّ الحبيبة – إذْ رأتْ ... جلالةَ قَدْرِي – أن أكونَ لها صِهرا؟
ربيبة ملك (..... ....) ... (..... ....) حبه نكرا(٢٩)
جعلتُ لها شرطاً عليَّ تَعَبُّدِي ... وَسُقْتُ إليها في الهَوَى مُهْجَتِي مهرا

تَعَلَّقْتُهَا من عبدِ شمسٍ غَرِيرَةً ... مُحَدَّرَةً من صيدِ آبائِهَا غُرا

حمامةُ عُشّ العَبشمِيين[٣٠] رَفْرَفَتْ ... فَطِرْتُ إليها مِنْ سراتهمُ صقرا

تَقِلُّ الثريا أن تكونَ لها يداً ... ويرجو الصباحُ أن يكونَ لَنا نَحْرا

لقد طالَ صَوْمُ الحبِّ عنكَ، فما الذي ... يَضُرُّكِ منهُ أن تَكوني لهُ فِطْرا

وإنّي لأَسْتَشْفِي بِمَرّي بداركُم ... هدوءاً وأَسْتَسْقي لساكِنها القَطْرا

وألصقُ أحشائي بِبَرْدِ تُرابِها ... لأُطْفِئَ من نارِ الأسى بكُمُ جَمْرا

فإنْ تَصْرِفيني يا ابنةَ العمِّ تصرفي ... – وعَيْشِكِ – كُفأ مَدَّ رغبتَهُ سترا

وإنّي لأرجو أن أُطَوِّقَ مَفْخَري ... بملكي لها وهيَ التي عَظُمَتْ فَخرا

وإنّي لَطَعَّانٌ إذا الخيلُ أقْبَلَتْ ... جرائدُها[٣١]، حتّى تَرَيْ جونها[٣٢]

ومُكرِمُ ضيفي حين ينزل ساحتي ... وجاعِلُ وَفْري عندَ سائلهِ وَفْرا

وإنّي لأَوْلى النَّاسِ من قومِها بها ... وَأَنْبَهُهُمْ ذِكراً وأرْفَعُهُمْ قَدْرا

وعِندي ما يُصْبِي الحليمة ثَيّباً ... وينسي الفتاةَ الخوْد[٣٣] عُذْرتها البِكْرا

جمالٌ وآدابٌ وخُلْقٌ مُوَطّأ ... وَلَفْظٌ إذا ما شِئْتِ أسمعكِ السحرا[٣٤]

وما زالت الأميرة حبيبة بنت المستعين تلهب مخيلة الخليفة عبدالرحمن المستظهر الشاعرية، فقد لمحها ذات يوم فأومأ إليها بالسلام، فلم ترد عليه خجلاً، فانطلق يقول:

سلامٌ على من لم يجد بِكَلامِهِ ... ولم يَرَني أهْلاً لِرَدِّ سلامِهِ

سلامٌ على الرّامي الذي كُلَّما رَمَى ... أصابَ فُؤادي عامِداً بسهامِهِ

بنفسي حبيبٌ لم يَجُدْ لِمُحِبِّهِ ... بِطَيْفِ خَيالٍ زائرٍ في مَنامِهِ

ألم تعلمي يا عَذْبَةَ الاسْمِ أنَّني ... فَتًى فيكِ مَخْلُوعٌ عِذارُ لجامِهِ

وأنّي وَفِيٌّ حافِظٌ لأذِمّتي ... إذا لم يَقُلْ غيري بِحِفْظِ ذمامه

يُبَشّرُ ذاكَ الشّعْرُ شعريَ أنَّهُ ... سَيُوصَلُ حبلي بعد طُولِ انصرامِهِ

وما شكَّ طَرْفي أنَّ طَرْفَكِ مُسْعِدي ... ومُنْقِذُ قَلْبي من حبالِ غرامِهِ

عليكِ سلامُ اللهِ من ذي تَحِيَّةٍ ... وإنْ كانَ هذا زائِداً في احترامِهِ[٣٥]

وتمعن الأميرة حبيبة في إغراء مخيلة ابن عمها الأديب، ها هو ذا ينظم مقطوعة جميلة ويشبِّب بها فيها ويتغزل. ها هو ذا يقول وهو من أعذب الشعر وأروعه:

تبسَّمَ عن دُرٍّ تَنَضَّدَ في الوَرْسِ[٣٦] وأَسْفَرَ عن وَجْهٍ يَتِيهُ على الشمسِ
غـزالٌ بَـراهُ اللـهُ مـن نُـورِ عَـرْشِـهِ لتقطيعِ أنفاسي وليسَ من الإنسِ
وهبتُ له روحي وملكي ومُهجَتي ونفسي، ولا شيءٌ أَعَزَّ منَ النَّفسِ[٣٧]

وإذ نفرغ من حديث الأميرة حبيبة بنت الخليفة المستعين بالله ودورها مؤثِّرة ملهمة لشاعرية ابن عمها الخليفة المستظهر وما كسبته الساحة الثقافية الأندلسية من ذلك الإلهام إلى حيث حديث الأميرة الأموية الثانية التي احتفظت لنا المصادر بذكر دورها في النشاط الثقافي لا في البلاط الأموي فحسب وإنما في الأندلس عموماً. أعني الأميرة ولادة بنت المستكفي. هذا الدور الذي كانت فيه ومعه ولادة مشاركة مؤثرة من نحو، ملهمة ملهبة للشاعرية من نحو آخر. ولعل أميرتنا الأموية هاته أرادت من حيث لا تدري أن تعوضنا بدوريها: المشارك الفاعل من جهة، والمؤثِّر الملهم من جهة أخرى، عما افتقدناه من إسهام ثقافي لأميرات البلاط الأموي من البنات والأخوات.

وفي الحق فإن المرء يحار في كيفية تقديم هذه الأميرة للقارئ. فقد اهتم بها مؤرخو الأدب من المشارق والأندلسيين اهتماماً شديداً، أكدوا من خلاله على تأثيرها ودورها المؤثِّر في مساحة النشاط الثقافي الأندلسي[٣٨] ولم يقصِّر مؤرخو الأدب المحدثون من عرب وأجانب[٣٩] وقد استهوتهم سيرة هذه الأميرة وسحرها أن يقفوا محللين إبداعاتها الشعرية من نحو، وما نظمه فيها الشاعر الأندلسي المحلق أحمد ابن زيدون من نحو آخر، لا بل وأوردوا لنا كيف لقيت قصائد ابن زيدون التي نظمها متغزلاً كلفاً بولادة، إعجاب العديد من الأدباء المحدثين الذين عارضوا قصائده تلك[٤٠] بل إن قصة ولادة وابن زيدون – وهي في تسلسلها وأحداثها قمينة بقولنا إنها قصة – أقول بل إن قصة وإن شئت قلت: ملحمة ولادة وابن زيدون حيث الذكريات والوله وحيث الشجن والعتاب والأسى، كانت مبعث حبك المسرحيات الشعرية، وهي من أقانيم الأدب في العصر الحديث[٤١].

لقد أطبق المؤرخون القدامى والمحدثون أولئك على أن الأميرة ولادة أشاعت جواً ثقافياً كبيراً في الأندلس وقتذاك. وحسبنا أن نورد شذرات منتقاة مما قاله عدد من مؤرخي الأندلس في حقها. في البدء هذا ابن بسام[٤٢] يقول عنها: (كانت في نساء زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد[٤٣] وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة، منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو[٤٤] أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعر والكتاب على حلاوة عشرتها، على سهولة حجابها، وكثرة منتابها؛ تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب وطهارة أثواب... ولها مع أبي الوليد بن زيدون[٤٥] أخبار طوال وقصار، يفوق إحصاؤها ويشق استقصاؤها.

ولا يختلف ابن بشكوال[٤٦] في نظرته للدور الثقافي الذي مارسته ولادة عن سابقه زمنياً ابن بسام. لننصت إليه يقول عنها – أي ولادة – (أديبة، شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، كانت تمالط[٤٧] الشعراء، وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء).

أما المقري[٤٨] وهو واحد من أعظم مؤرخي الحضارة الأندلسية لا بل وتاريخها، فيقدمها لنا بقول (الأديبة الشهيرة) ثم يقول عنها في موضع آخر: (...كانت واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة الحاضرة، مشكورة المذاكرة... وفيها خلع ابن زيدون عذاره وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات) ويعود المقري[٤٩] فيثني على ولادة موازياً بينها وبين أبيها الخليفة المستكفي بالله الذي عرضنا في التمهيد إلى ما قاله عنه المؤرخون من تهافت شخصيته وتهالكها، فيقول: (كان أبوها المستكفي بايعه أهل قرطبة... وكان جاهلاً ساقطاً وخرجت هي في نهاية من الأدب والظرف... وأنها بالغرب – أي غرب الدولة الإسلامية: بلادي المغرب والأندلس – كعُلية[٥٠] بالشرق إلا أن هذه تزيد عنها بمزية الحسن الفائق، وأما الأدب والشعر والنادرة، وخفة الروح فلم تكن تقصِّر عنها، وكان لها صنعة في الغناء، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك) وفي موطن آخر يورد المقري[٥١] مقارنة بين ولادة بنت المستكفي

واعتماد[٥٢] الريميكية زوجة المعتمد بن عباد الإشبيلي ملك إشبيلية في عصر الطوائف، إذ يؤكد أن ولادة (أبدع منها – أي اعتماد زوجة المعتمد – مُلَحاً، وأحسن افتناناً وأجل منصباً... وكان أبوها أمير قرطبة ويلقب بالمستكفي بالله، وأخبار أبي الوليد بن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة).

وبعد هذا التطواف مع سيرة ولادة نتتبع الآن دوريها الاثنين: شاعرة وأديبة، ملهمة ومؤثرة على الصعيد الثقافي.

ولادة شاعرة وأديبة:

لنبدأ بشاعريتها، فقد تركت ولادة آثاراً شعرية، هي وإن لم تكن غزيرة، إلا أنها تعطي الدليل على أن صاحبتها تعد في نظر النقد الشعري (أديبة ذُلِّلَتْ لها قطوف البلاغة تذليلاً، بصيرة بالأساليب الشعرية، متمكنة من أسرار اللغة العربية)[٥٣] وفوق ذلك كانت (ناقدة شاعرة)[٥٤].

ولقد طرقت ولادة – في القليل النزر الذي تركته من شعرها – غرضين شعريين، هما الغزل والهجاء. أما غزلها فهو غزل (يفيض بالعاطفة في لحظة الانشراح مع جنوح إلى المبالغة)[٥٥] والأبيات التالية توضح الغرض الشعري هذا. في البدء هذه مقطوعة احتفظ بها لنا المقري[٥٦] تقول فيها ولادة:

ألا هَل لنا من بعد هذا التفرُّقِ	سبيلٌ فيشكو كلُّ صَبٍّ بما لَقِي
وقد كنتُ أوقاتَ التزاورِ في الشتا	أبيتُ على جَمرٍ من الشوقِ مُحْرِقِ
فكيفَ وقد أمسيتُ في حال قَطعة	لقد عجَّلَ المقدورُ ما كنتُ أتَّقِي
تمرُّ الليالي لا أرى البَيْنَ ينقضي	ولا الصبرَ من رقّ التشوُّقِ مُعْتِقي
سقى الله أرضاً قد غَدَتْ لك منزلاً	لكلّ سكوبٍ هاطل الوَبْل مُغْدِقِ

ولقد راسلت ولادة بهذه الأبيات الشاعر ابن زيدون الذي انتقد عليها ما جاء في بيتها الأخير: سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا..........[٥٧]، وأما شعرها الهجائي فقد وصفه محمد المنتصر الريسوني بأنه عبارة عن فحش وقذارة مما تعفف معه ابن بسام – صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – من روايته ورواه المقري[٥٨].

ومن هذا الشعر الذي نشير إليه انتقاءً، ذلك الذي لقبت فيه ولادة صاحبها ابن زيدون بالمسدس عند غضبها منه حيث قالت:

ولقبت المسدس وهو نعت ... تفارقك الحياة ولا يفارق
.... وقرنان[٥٩] وسارق[٦٠]

وكذا قولها فيه في غضبها منه:

إنَّ ابن زيدون على فضْلِهِ ... يغتابني ظلماً ولا ذنب لي
يلحظني شزراً إذا جئتُه ... كأنَّني جئتُ لأ...... علي[٦١]

وأيضاً مما قالته فيه وهي في لحظة غضب بيتان في غاية الإقذاع والفحش، وهما من الأدب المكشوف دون شك[٦٢] وهجت ولادة مرة أحد رجالات الأندلس ويدعى الأصبحي، فقالت:

يا أصبحيُّ اهنأ فكم نعمةٍ ... جاءتك من ذي العرش ربِّ المننْ
قد نلتَ با...................... ... .[٦٣]

ومن أقوالها – ولعله يدخل في عِداد غرض الهجاء – تلك الأبيات التي عاتبت فيها صاحبها ابن زيدون، الذي ظهر لولادة ذات مرة أنه مال إلى جارية لها، وكانت جارية (سوداء) بديعة المعنى، فكتبت إليه هذه الأبيات التي رواها المقري[٦٤]:

لو كنتَ تُنْصِفُ في الهوى ما بيننا ... لم تهوَ جاريتي ولم تتخيَّر
وتركتَ غُصْناً مثمراً بجمالِهِ ... وجنحتَ للغصنِ الذي لم يُثْمر
ولقدْ عَلمتَ بأنَّني بَدْرُ السما ... لكن دُهيْتُ لشقوتي بالمشتري[٦٥]

على أن أيام ولادة مع ابن زيدون لم تكن كلها غضباً وعتاباً وهجاءً أيضاً، فقد عرفت تلك الأيام ساعات صفو يشهد بها هذان البيتان اللذان كتبتهما له بعد طول تمنع:

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتي ... فإنِّي رأيتُ الليلَ أكتمَ للسِّرِ
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا ... وبالليل ما أدجى وبالنجمِ لم يسْرِ[٦٦]

ولا ندري هل شهد ذلك اللقاء الذي تم بالفعل بينهما ذلك النقد الذي وجهته ولادة إلى ابن زيدون عندما خانه اللفظ في استخدام مفردة غير مباشرة لمقاييس الشعر والبلاغة، وذلك في إطار هجائه لأحد معاصريه ويدعى ابن القلاس[٦٧] فقد قال ابن زيدون مخاطباً إياه:

أصخْ لمقالتي واسْمع ... وَخُذْ في ما تَرى أو دَعْ

فلما وصل إلى قوله:

فإنَّ قُصارَكَ ألدّهْليزْ ... حين سواك في المَضْجَع

تحرك حس ولادة النقدي، وهي التي عرفنا من قبل أنها كانت ناقدةً بصيرة باللغة والشعر، فقالت لابن زيدون، قل:

فإنَّ قُصارَكَ الاصْطَبْلُ ... حين سواك في المَضْجَع

لا ندري هل تمّ هذا في هذا اللقاء أم في غيره من اللقاءات؟[٦٨] ولئن كانت ولادة – في شعرها النزر اليسير – قد أفصحت عن شاعرية عالية فإنها في تمثُّلِها للشعر وتذوقه واستخدامه في موضعه في ذات المستوى الثقافي العالي الرفيع. ولقد روى ابن بسام[٦٩] وجاراه في ذلك المقري[٧٠] أنها مرت ذات يوم بأحد رجالات الأندلس وهو الوزير ابن عبدوس[٧١] وكان يميل إليها فتصده، كان واقفاً وقتها وسط بركة من الماء ولّدتها كثرة الأمطار، تكوّرت – أي البركة – أمام منزل ابن عبدوس الذي (نشر عن كمَّيْه ونظر في عطفيه وحشر أعوانه إليه) فقالت له:

أنت الخصيب[٧٢] وهذه مصرُ ... فتدفَّقا فكلاكما بحرُ

ونختم حديث المشاركة الفعلية لولادة في الحياة الثقافية للبلاط الأموي لا بل والأندلس عموماً بالبيتين اللذين اشتهرا شهرة واسعة؛ أعني البيتين اللذين ذكر المؤرخون أن ولادة كتبتهما بالذهب على عاتقي ثوبها، وهما:

أنا والله أَصْلحُ للمَعَالي ... وأمشي مِشْيَتي وأتيهُ تيها

وأمْكنُ عاشِقِي مِنْ صَحن خَدّي ... وأُعْطي قُبْلَتي مَنْ يَشْتَهِيْها[٧٣]

هذان البيتان اللذان التصقا بولادة جرَّا عليها النقد اللاذع من عدد من مؤرخي

الأدب من القدامى والمحدثين وعدَّوهما دليلاً واضحاً على تهتكها وانحلال سيرتها. ولعلهما – بل هو المؤكد – هما سبب تقاطر أقوال القدامى فيها من أنها كانت سهلة الحجاب كما أوردنا من قبل عن ابن بسام، ونزيد هنا فنورد قولةً أخرى له هي – وتأتي استكمالاً للشذرات التي نقلناها عنه سابقاً –: (..على أنها – سمح الله لها وتغمد زللها – اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها)[٧٤].

وينقل ابن بشكوال في صلته عن شيخ من شيوخ القراءات واللغة، هو جعفر بن محمد بن مكي المكنى بأبي عبدالله[٧٥] قوله في ولادة وكانت معاصرة له، بل أتته ذات مرة تعزيه في أبيه. ينقل ابن بشكوال[٧٦] عن هذا الشيخ الذي هو شيخ له أيضاً قوله عنها: (قال لي – أي شيخه – لم يكن لها تصاون يطابق شرفها) أما المقري[٧٧] مؤرخ التاريخ والحضارة الأندلسية المتأخر زمنياً عن ابن بسام وابن بشكوال فقد أورد البيتين وعطف بعد ذلك مباشرة قائلاً: (وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف).

أما مؤرخو الأدب الأندلسي المحدثون فقد تفاوتت أقوالهم بين مؤيد لنسبة البيتين إليها ومعارض، مثل محمد المنتصر الريسوني وجودت الركابي، إذ يؤيدان نسبة البيتين إليها، ولا يبديان استغرابهما من نسبة البيتين إليها لما عرف عنها من ميل للتهتك، بل إن الريسوني كان في أشد درجات القسوة على ولادة، إلى درجة أنه انتهى من خلال قراءته النقدية لسيرتها ولشعرها كما يقول إلى أنها كانت مصابة بـ: الجنسية المثلية، أي ميل المرأة إلى جنسها والرجل إلى جنسه، ويزيد فيصفها بـ (السادية) التي تعني حب الإنسان تعذيب الجنس الآخر وتحميله الآلام. ويخيل إلينا أن محمداً المنتصر الريسوني يبدو هنا مبالغاً في أقواله، فلا النزر اليسير من شعرها الذي تناهى إلينا يسمح بالخروج بهذا الرأي، ولا أشعار ابن زيدون فيها ما يدل على ذلك.

وأما جودت الركابي فقد ذهب بأخذه بنسبة البيتين إليها أنهما نتيجة طبيعية لحياة العبث التي تحياها ولادة[٧٨] – وأما الفريق المعارض، فقد استنكر أن يحدث ذلك من أميرة حرة ذات حسب ونسب مثل أحمد خليل جمعة[٧٩]. ووقف مصطفى الشكعة

موقفاً وسطاً[٨٠]، فهو وإن لم يسلِّم تسليماً واضحاً بمجمل قضية التفلُّت الأخلاقي لولادة – وفي طياته موضوع بيتي الشعر – إلا أنه يرى بالمقابل أن طبيعة المناخ العام المحيط بولادة كان له دور في حدوث ذلك إن حدث، وهو مع ذلك يحمل ولادة التبعة، ويقول وهو الباحث الأديب النابه (إن الذي يضع نفسه موضع الريبة لا بد له من أن يناله شيء من شبهتها) وعلى كل حال فالقضية – شأن القضايا المشابهة – لا تعدو الاجتهاد بالرأي. ولا ننسى أن نشير إلى الجملة التحوطية التي ختم بها ابن بسام[٨١] النص الذي أوردنا بعضه في صدر المبحث، ثم أوردنا شذرةً منه قبل قليل، لا ننسى أن نشير إلى عبارته التحوطية التي ختم بها ذلك النص، فقد قال بعد أن أورد البيتين المذكورين: (...هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه)، وهي الجملة التي لم ترق لمحمد المنتصر الريسوني[٨٢] وعزاها إلى روح ابن بسام الطيبة التي منعته من أن يقر إقراراً باتاً بمباذل ولادة.

وكيفما كان الأمر فختماً للدور المشارك الفاعل لولادة في مسيرة الحياة الثقافية بالأندلس واقتضاء لأهمية إفصاح الباحث عن رأيه في قضية من القضايا الواردة في بحثه، أقول إنني أجد نفسي ميالاً إلى ما ذهب إليه ابن بسام من قبل ثم مصطفى الشكعة في عصرنا من أن ولادة أوجدت السبيل إلى ذاتها أن تتهم بالتفلت الأخلاقي مع استبعادنا أن تصل بها الجرأة والإسفاف حدا تكتب فيه على عاتقيها بيتي الشعر المبتذلين ابتذالاً شديداً.

ولادة ملهمة للشاعرية:

ذكرنا في صدر المبحث أن ولادة أهدت إلى مسيرة الحياة الثقافية دورين اثنين؛ دور المشاركة الفاعلة ودور الملهمة المفجرة للشاعرية. ولعله مما عَمَّ وطم أن ولادة قد أذكت شاعرية الأديب الأندلسي المحلق أحمد بن زيدون، فقال فيها أعذب القصائد والمقطوعات السائرة الشائعة حتى يوم الناس هذا. وإذا كان ليس من غرض بحثنا أن نورد هذه القصائد والمقطعات أو المقطوعات جملة ونخضعها للدراسة التحليلية بوصف ذلك من مهام مؤرخي الأدب، وهو ما وقفوا عليه بالفعل، فإننا نكتفي هنا بالتأكيد على أن أميرتنا الأموية ولادة بنت المستكفي باتصال ابن زيدون بها قد أوقدت جذوة الأغزال

الزيدونية الرائعة الرائقة الخالدة المخلدة في دنيا الأدب والثقافة. وما أروع ما قاله محمد المنتصر الريسوني[٨٣] من أن الآثار الزيدونية – وهو ما فضل أن يستخدمه عن نتاج ابن زيدون الشعري الذي فجرته ولادة في نفسه – قد (أوحت له بقصائد ساحرة، صاغ وتدها المفروق ووتدها المجموع، وسببها الخفيف وسببها الثقيل من شرايين نفسه، وأوتار فؤاده، فكان ذلك نعمة وأي نعمة على الأدب) ونزيد على ما قاله محمد المنتصر الريسوني بالتذكير بالرسالة الهزلية التي بعثها ابن زيدون لخصيمه وشريكة في الهيام بولادة أعني الوزير ابن عبدوس، تلك الرسالة الأدبية الهزلية التي تهكم وسخر فيها ابن زيدون من ابن عبدوس، والتي هي أثر من آثار ولادة دون شك، فبسببها جاءت الرسالة الهزلية، وبسببها كسبت دنيا الثقافة والأدب الأندلسي تياراً أدبياً زاخراً رفيعاً[٨٤].

قلنا إننا لسنا معنيين بتضمين قصائد ومقطوعات ابن زيدون في ولادة غير أنه حسبنا أن نشير إلى أشهرها، فمن تلك المقطوعات المقطوعة الجميلة الآتية السائرة بين الناس:

ودَّعَ الصَّبرَ مُحِبٌّ ودَّعَكْ	ذائعٌ من سره ما استودَعَكْ
يقرعُ السِّنَّ على أنْ لم يكنْ	زادَ في تلك الخُطى إذ شيَّعَكْ
يا أخا البدرِ سناءً وسناً	حفظَ اللهُ زماناً أطلَعَكْ
إن يطُلْ بعدك ليلى فلكَمْ	بِتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ معكْ[٨٥]

ومما يجدر ذكره أن المقري[٨٦] انفرد بالقول إن هذه المقطوعة صاغتها ولادة نفسها في ابن زيدون ولكن مؤرخي الأدب المحدثين[٨٧] يرون أنها من أشعار ابن زيدون، ففيها نفسه الأدبي وطبيعة شعره.

ثم نثني بالقصيدة القافية[٨٨] (الرقيقة المشهورة التي استودعها ما استطاع أن يودع من أسرار نفسه وروعة شاعريته بين حسن إيقاع وسحر نغم) كما يقول مصطفى الشكعة[٨٩]، ولعلنا نورد مطلعها مع بيتين اثنين فحسب:

إني ذكرتك بالزَّهراءِ مُشتاقا	والأُفْقُ طَلْقٌ ووَجْهُ الأرضِ قدْ راقَا
وللنسيمِ اعْتِلالٌ في أصائِله	كَأَنَّما رَقّ لي فاعْتَلَّ إشْفاقا
والرَّوْضُ عَنْ مائِهِ الفضِّيّ مُبْتَسِمٌ	كَما شَقَقْتِ عن اللبَّاتِ أطواقا[٩٠]

ونثلِّث – وهو الختام – بالقصيدة الأشهر؛ القصيدة النونية التي (تعتبر من عيون الشعر العربي مشرقيِّه ومغربيِّه على مدى التاريخ) القصيدة التي يمكن القول عنها (إنها الينبوع الصافي الزلال المتفجر بالمعاني والعواطف والأساليب والألفاظ والموسيقى والإيقاع والنفس الطويل العذب والغوص العميق الصعب) القصيدة التي (ما أكثر من قلدها من الشعراء المجيدين ولكن بغير استطاعة أن يلحقوا بغبارها وإن استطاع بعضهم أن يستضيء بنارها) كما يقول مصطفى الشكعة[٩١] أيضاً. ولعلنا نورد مطلعها مع عدة أبيات منها:

أضحى التنائي بَديلاً عن تَدانينَا ... ونابَ عن طِيبِ لُقيانا تَجافِينا

بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابْتَلَّتْ جَوانِحُنَا ... شوقاً إليكمْ ولا جَفَّتْ مآقينا

ألا وقدْ حانَ صُبْحُ البينِ صبَّحَنا ... حينٌ فقامَ بيننا للحَيْنِ[٩٢] ناعينا

مَنْ مُبْلِغٌ المبلسينا بانتزاحِهِمُ ... حُزْناً مع الدَّهْرِ لا يَبلى ويُبْلِينَا

إنَّ الزَّمانَ الذي ما زالَ يُضْحِكُنَا ... أُنْساً بِقُرْبِهم قد عادَ يُبْكِينَا

غيظَ العِدَا مِنْ تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نُغَصَّ فقالَ الدَّهْرُ آمينا[٩٣]

أثر أدبي آخر لولادة ملهم:

لا يمكننا أن نغادر حديث دور ولادة في النشاط الثقافي في الأندلس في المحدد الزمني لبحثنا دون أن نشير إلى أثر من آثارها، تأتَّى من علاقة حميمة كانت ثم ساءت بينها وبين شاعرة من شواعر الأندلس معاصرة لها لا بل أثيرة قريبة منها، فقالت تلك الشاعرة، وهي مهجة بنت التياني القرطبية[٩٤] تهجو صديقتها ولادة:

ولادةٌ قـــد صِــــرْتِ ولَّادَةً ... مِنْ دونِ بَعْلٍ، فَضَحَ الكاتِمُ

حَكَتْ لَنا مَرْيَمَ لكنَّهُ ... نَخْلَةُ هَذِي....................[٩٥]

وبعد، أوَلَسنا محقين عندما قلنا إن ولادة بما أحدثته من تيار أدبي وثقافي زاخر في الأندلس في الفترة موضوع البحث، كأنها أرادت أن تعوضنا من حيث لا تدري عن الأثر الثقافي الذي افتقدناه لبنات الأمراء والخلفاء الأمويين وأخواتهم. النصفه تقول: بلى.

المبحث الرابع
دور جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم

لعل ما يبعث على المسرَّة أن بضاعتنا من أخبار أدوار جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم ونفوذهن على الصعيد الثقافي بضاعة موفورة. فلقد تكاثر إسهام نساء البلاط الأموي على صعيدي الإلهام أو الإلهاب للمشاعر والتأثير الفاعل المشارك على الساحة الثقافية في هذه الفئة أكثر منه في الفئات الأخرى للمرأة في البلاط الأموي؛ أي الحرائر وبنات الأمراء والخلفاء وأخواتهم، وإلى حد متفاوت الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم. وهذا شيء طبيعي إذ توفَّر للجارية سواء كانت جارية متعة أو جارية خدمة من الأسباب ما لم يتوافر للمرأة الحرة حسبما قلنا من قبل في حديثنا في الفصل الأول. والمستطلع للكتب التي أرَّخت للحضارة الإسلامية يلحظ هذا بجلاء، ولعله من المستحسن أن نعيد إلى الأذهان ما قلناه في الفصل الأول مما فسَّر به مؤرخو الحضارة الإسلامية من الباحثين المحدثين، عرباً وأجانب هذا الأمر، وتأكيدهم على أن وضعية الجارية (القانونية إن صح هذا القول) والاجتماعية تدفع إلى أن يكون حضور الجارية على الساحة الثقافية بالذات حضوراً كبيراً طاغياً لافتاً، هذا مع التأكيد على أن هذا التأطير الذي أوردناه عام وليس خاصاً بالأمويين في الأندلس فحسب. وليس خافياً أن من صميم مسألة إعداد الجواري للبيع، تثقيفهن ثقافة عامة واسعة تزيد في ثمنهن.

نقف بادئ ذي بدء في حديث جواري الأمراء والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم وأدوارهن على الساحة الثقافية مع الأمير المؤسس؛ الأمير عبدالرحمن الداخل وجواريه. نقف ها هنا فنستدعي إلى الأذهان ما قلناه في الفصل الأول عن جاريتي الأمير: الدعجاء والعجفاء. أما الدعجاء فقد عرفنا أنها كانت مغنية أعجب بها الأمير إعجاباً شديداً، ولعلها بهذا قد أشاعت جواً ثقافياً في بلاط سيدها الأمير بتعضيد الأمير نفسه وتأييده[٩٦] أما العجفاء وقد أشرنا من قبل إلى أن الأمير المؤسس عبدالرحمن كان يهيم بها، كانت في الأصل جارية مدنية حسنة الغناء، ثم

اشتريت للأمير عبدالرحمن فحملت إليه، ولقيت مكانة عالية عنده، وأسهمت في النشاط الثقافي في بلاطه[٩٧].

وننتقل إلى الأمير الأموي الثالث الأمير الحكم بن هشام – حيث لا نملك أية معلومة عن أدوار لجواري خدمة وجواري متعة للأمير الثاني هشام الرضا – فتطالعنا إشارات عن وجود أثر ثقافي تأتَّى عن طريق غير مباشر، تمثَّل في وقوفنا على شاعرية عالية للأمير الحكم فجَّرها في نفسه خمس جوارٍ كان متيماً بهن. ألهبن مشاعره وحسه الأدبي، فانطلق يقول فيهن شعراً رقيقاً يفيض عذوبة وحلاوة. يقول المؤلف المجهول لكتاب الأخبار المجموعة إن الجواري الخمس غلبن على الأمير، وحلن بينه وبين سائر نسائه، فأراد يوماً أن يدخل عليهن غيرهن فتأبَّين عليه، وقمن متغاضبات، فلما ولَّيْنَ عنه صَرَفهن إليه وعمل في استرضائهن وأنشأ يقول:

قُضْبٌ من البانِ ماسَتْ فوقَ كُثْبان ... وَلَّيْنَ عَنِّي وقد أزْمَعْنَ هِجراني

ناشدتهنَّ بحقِّي فاعتَزَمنَ على الـ ... عِصْيانِ لمَّا خَلَا منهنَّ عِصْياني

مَلَكْنَني مَلْكاً ذَلَّت عزائِمُهُ ... للحُبِّ ذُلَّ أسيرٍ موثقٍ عالي

من لي بمغتصباتِ الرّوْحِ من بَدَني ... يَغْصِبْنَني في الهَوَى عِزِّي وسُلْطاني

على أن جواريه هؤلاء الخمس ما لبثن أن عُدْنَ عليه بالوصل، فقال:

نِلْتُ كُلَّ الوِصَالِ بعدَ البُعادِ ... فكأنّي مَلَكْتُ كُلَّ العِبادِ

وتَناهَى السُّرورُ إذْ نِلْتُ ما لَمْ ... يُغْنِ فيهِ تَكاثُفُ الأَجْنَادِ[٩٨]

ويورد المؤلف المجهول صاحب الأخبار المجموعة أيضاً[٩٩] مقطوعة رائعة للأمير الحكم قالها في جواريه الخمس أولئك هي:

ظَلَّ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ مَمْلُوكا ... ولقد كانَ قبلَ ذاكَ مَليكا

إن بَكَى أو شَكا الهوى زيد ظُلْماً ... ببعادٍ أدْنى حِماماً وَشِيكا

تَرَكَتْهُ جآذرُ[١٠٠] القَصر صَبَّاً ... مُسْتَهاماً على الصَّعِيدِ تَريكا

يَجعلُ الخَدَّ واضِعاً فوقَ تُرْبٍ ... للَّذِي يَجْعَلُ الحَريرَ أريكا

هكذا يحسُنُ التَّذَلُّل للحُـ ... ـرِّ إذا كانَ في الهَوى مَمْلُوكا

وننتقل إلى عهد الأموي الرابع، الأمير عبدالرحمن الأوسط بن الحكم فنجد ثبتاً لعدد من جواري المتعة سطعت بهن الحياة الثقافية في بلاطه، وبالتأكيد فله في ذلك الفضل والمنَّة. ها هي ذي المصادر تحدِّثنا عن ثلاث جوارٍ أشعن جواً ثقافياً في قصر الأمير؛ أولهن الجارية قلم وقد سبق لنا أن عرضنا لذكرها اقتضاباً في الفصل الأول، لكننا هنا نفصِّل في ذكرها معتمدين على المقري الذي قدمها لنا على أنها: (أديبة، ذاكرة، حسنة الخط، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الأدب) وعاد فقدَّمها لنا في موضعٍ آخر من كتابه على أنها ثالثة ثلاث تشكَّلت منهن الدار المعروفة بـ: دار المدنيات، وهي دار انتصبت في قصر الأمير المثقَّف المولع بالسماع المؤثر له على جميع لذاته، وهي عبارة المقري نصاً. نعم هي ثالثة ثلاث تشكلت منهن دار المدنيات بالقصر، وهن: الجارية فضل والجارية علم ثم قلم هذه. وقد سميت الدار بدار المدنيات لأن الجواري الثلاث هؤلاء جُلِبْنَ من المدينة المنورة إلى الأندلس، فاشترين للأمير عبدالرحمن الأوسط وحللن بقصره يرفلن برعايته وحدبه، ويشعن فيه أدبهن وظرفهن. يقول المقري إن قلماً هذه كانت أندلسية الأصل أسبانية من سبي البشكنش. وهم سكان إقليم الباسك كما سبق أن ذكرنا من قبل (حملت صبية إلى المشرق فوقعت بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعلمت هنالك الغناء فحذقته)(١٠١).

والجارية الثانية من جواري المتعة اللائي سطعت بهن الحياة الثقافية لا في بلاط الأمير عبدالرحمن فحسب وإنما في الأندلس بعامة، هي الجارية فضل، وتعرف بفضل المدنية وقد عرضنا من قبل للجارية فضل باختصار، غير أننا هنا نصغي إلى المقري(١٠٢) يقدمها لنا تفصيلاً فيقول: (فضل المدنية، كانت حاذقة بالغناء، كاملة الخصال، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، ونشأت وتعلمت ببغداد، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فازدادت ثمَّ طبقتها في الغناء، هنالك للأمير عبدالرحمن – أي عبدالرحمن الأوسط – صاحب الأندلس مع صاحبتها علم المدنية وصواحب غيرها، إليهن تنسب دار المدنيات بالقصر، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن، ونصاعة ظرفهن، ورقة أدبهن) إذن ها نحن أولاءِ مع جارية متعة للأمير عبدالرحمن، أسهمت بسحرها وأدبها وظرفها في إضفاء جو ثقافي في البلاط الأموي استلفت نظر الباحثين وزاد من تقديرهم للأمير المثقف الجليل(١٠٣).

وثالثة جاري المتعة، وهي في ذات الوقت ثالثة جواري دار المدنيات اللائي جاء التنصيص عليهن نصاً، هي الجارية علم المدنية وقد قدمها لنا المقري[١٠٤] – كذلك – غير أنه لم يزدنا شيئاً عن أخبارها سوى تأكيده على أنها من جواري دار المدنيات بقصر الأمير. غير أنه من الواضح أنها لم تكن لتقل أدباً وظرفاً وحذقاً للغناء من زميلتيها: فضل وقلم.

وثمة جارية رابعة من جواري الأمير عبدالرحمن الأوسط اللائي انطلقن – بتشجيع من الأمير وحدبه – إلى إشاعة جو ثقافي في بلاطه، هي الجارية متعة، ولقد سبق لنا كذلك أن ألمحنا إليها من قبل بصورة خاطفة. والجارية متعة كانت جارية للمغني المشرقي زرياب[١٠٥] الذي حل بالأندلس وأضفى عليها بهاءً أدبياً عالياً ورونقاً فنياً كبيراً كما أكد مؤرخو الأندلس. ولقد بالغ زرياب في تأديب جاريته متعة، وجهد أن يعلمها أحسن أغانيه، وكانت ذات جمال كما يقول المقري[١٠٦] الذي نقلنا عنه هذا، وقد أوقفنا المقري على السبب الذي آلت الجارية متعة به إلى الأمير عبدالرحمن الأوسط، فغدت من ثمّ جارية من جواريه، فلقد دفع زرياب بمتعة إلى مجلس الأمير عبدالرحمن، وأبدى الأمير إعجابه بها. فلما فطنت إلى ذلك اندفعت تنشده مقطوعة جميلة رصدها لنا المقري وهي:

يا من يُغَطِّي هواهُ   من ذا يُغَطِّي النهارا؟
قد كنتُ أملكُ قَلْبي   حتى علِقْتُ فطارا
يا ويلتا أتراهُ   لي كان أو مستعارا
يا بأبي قُرَشيٌّ   خلعتُ فيه العِذارا[١٠٧]

ولم يجد زرياب بداً من أن يهديها إلى الأمير حيث حظيت عنده. على أن متعة قد جهدت أن تخلد لها في أعمال البر والإحسان ذكراً؛ ولذلك رأيناها تبني مسجداً ومقبرة على النحو الذي عرضنا له في الفصل الثالث.

ولا نترك عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط بألقه الأدبي والثقافي، هذا الألق الذي أشاعه عدد من جواريه بإسهامهن – بتأييد منه بالطبع حسبما عرفنا وأكّدنا – ثم

أيضاً ذلك الأثر الأدبي والثقافي الذي أشاعته زوجته طروب حيث كانت ملهمة لشاعريته ومفجرة لها لا نترك عهد الأمير عبدالرحمن - دون الإشارة إلى أقوال عدد من المستشرقين والباحثين المحدثين الذين أبدوا إعجابهم بالأمير المثقف والجو الثقافي الذي أضافه على بلاطه بخاصة ومملكته بعامة. يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال إن أولئك الجواري (خلقن في عاصمة أسبانيا الإسلامية جواً مهذباً إن صح التعبير مطبوعاً بطابع الشرق)[١٠٨].

أما غرسيه غومس في كتابه: الشعر الأندلسي فإنه يقول إن أولئك الجواري - يقصد جواري الأمير عبدالرحمن وغيرهن ممَّن قدمن من المشرق - (قد نقلن شعر بغداد إلى الأندلس وأنغام الشرق)[١٠٩] ومن الباحثين العرب المحدثين، نجد السيد عبدالعزيز سالم يثني على الأمير عبدالرحمن وينظر إليه على أنه: (الفنان رقيق المشاعر والأحاسيس، شديد التأثر بالفنون الجميلة)[١١٠] ويثني أحمد خليل جمعة - كذلك - على الأمير عبدالرحمن الأوسط، ويرى أن بلاطه - والأندلس عموماً - شهدت نهضة فنية بسبب تشجيع الأمير نفسه[١١١].

وبطي حديث جواري الأمير عبدالرحمن الأوسط وقهرماناته ووصيفاته، نطوي حديث جواري عصر الإمارة وقهرماناته ووصيفاته، حيث إننا لم نجد ما يشير إلى إسهامات جواري الأمراء: محمد - المنذر - عبدالله في الشأن الثقافي. نستدرك فنقول إن ثمة لبساً وقع للسيد عبدالعزيز سالم[١١٢] والباحثة راوية حسانين شافع[١١٣] في الإشارة إلى جارية تعشقها الأمير المنذر لجودة غنائها وحسن أدائها أهديت إليه، فأخذت بمجامع قلبه هي الجارية طرب. والحقيقة أن الجارية طرب كانت للأمير المنذر بن عبدالرحمن الأوسط[١١٤] وليست للأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الذي كان أميراً للأندلس من سنة ٢٧٣-٢٧٥هـ.

على أننا وجدنا خبراً عند ابن الأبار[١١٥] عن جارية للأمير عبدالله بن محمد ابن عبدالرحمن الأوسط تدعى جيجان، كانت مغنية، وكان الأمير عبدالله يسمعها في إمارة أبيه الأمير محمد قبل توليه الإمارة. ولقد هام أحد الثائرين على الأمير عبدالله

بعد أن غدا أميراً وهو سعيد بن جودي السعدي[١١٦] في الأحداث التي وقعت وأفرزت عصر الطوائف الأول حسبما مر بنا في التمهيد. وقد ألهبت الجارية جيجان شاعرية هذا الثائر، فقال متغزلاً:

سمعي أبى أن يكون الروحُ في بدني ... فاعتاض قلبي منهُ لوعةَ الحزن

أعطيتُ جيجان روحي عن تذكرها ... هذا ولم أرها يوماً ولم تَرَني

فقل لجيجان يا سؤلي ويا أملي ... اسْتوْص خيراً بروح زال عن بدن

كأنني واسمها والدمعُ منكب ... من مقلَتي راهبٌ صلى إلى وثن[١١٧]

وإن كانت هذه الجارية قد ألهبت مشاعر الثائر هذا فقال هذه المقطوعة إلَّا أنه كان (شاعراً مفلقاً، يضرب في صنعة الشعر بسهمة وافرة كما يقول ابن الأبار)[١١٨] والتبس على الباحثة راوية حسانين – أيضاً – أمر حُرة من حرائر الأندلس، وهي ابنة أحد وزراء الأمير المنذر بن محمد؛ الوزير تمام بن عامر الثقفي[١١٩] هذه الابنة التي تدعى رقية، فقد ذكرت الباحثة أن رقية بنت تمام كانت كاتبة للأمير المنذر بن محمد[١٢٠] أما أنها كانت كاتبة فذلك حق، وأما أنها كانت كاتبة للأمير المنذر بن محمد ابن عبدالرحمن الأوسط الأمير السادس فذلك هو اللبس الذي نعنيه، إذ الحقيقة أن رقية كانت كاتبة لبنت من بنات الأمير لا كاتبة للأمير نفسه، وهو ما ذكره ابن عبدالملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة[١٢١] الذي عادت إليه الباحثة وعدنا إليه نحن.

وعلى كل حال يبقى للخبر دلالته دون شك حتى ولو لم تكن رقية تلك كاتبة للأمير المنذر، إذ يوقفنا على جانب من النشاطين الأدبي والأسري، عرفنا من خلاله أن بنات الأمراء الأمويين – وربما بنات الخلفاء – كن يوظفن موظفات يتولين لهن الكتابة.

ويظلنا عصر الخلافة، فنجد أنفسنا مع مشاركات ثقافية متنوعة ثرَّة لجواري الخلفاء الثلاثة الأُول: عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر وحفيده هشام المؤيد بالله. أما الخليفة الأول المؤسس عبدالرحمن الناصر، فقد شاركت جارية له تدعى راضية بقدر في الحياة الثقافية في بلاطه ولنصغ إلى ابن بشكوال[١٢٢] يقدمها

لنا قائلاً: (راضية مولاة الإمام عبدالرحمن بن محمد الناصر لدين الله، تدعى بـ: نجم، ممن أعتقها الحكم عن أبيه) ثم يردف ابن بشكوال قائلاً[١٢٣]: (إنها كانت تقرأ وتكتب وأنه روى عنها أحد علماء الأندلس، وهو العالم المعروف بـ: أبي محمد بن خزرج[١٢٤] الذي ذكر أنه يحتفظ ببعض كتبها) وقد توفيت راضية عن سن عالية، إذ نيَّفَت على مئة عام بنحو سبعة أعوام كما يقول ابن بشكوال أيضاً[١٢٥] ولا ندري هل كانت الكتب التي تركتها الجارية راضية من تأليفها أم أنها كانت كتباً مملوكة لها؟

ثم ها هنا جارية ثانية للخليفة عبدالرحمن الناصر أسهمت – هي الأخرى – بقدر في الحياة الثقافية لبلاط الخليفة، هي الجارية مزنة، ويقدمها لنا ابن بشكوال كذلك في صلته[١٢٦] على أنها كانت: (كاتبة الخليفة الناصر لدين الله، كانت حاذقة بالكتابة من أخط النساء، توفيت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة).

ثم ها هنا ثالثاً الجارية كتمان، وقد عرضنا لاسمها في الفصل الأول، وقدمها ابن عبدالملك المراكشي لنا على أنها من (جواري قصر الخلافة بقرطبة المتصفات بالفهم، وهي كانت الكاتبة عند الناصر عبدالرحمن)[١٢٧].

وأما الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبدالرحمن الناصر، فقد عرفنا وجود جاريتين من جواري الخدمة اضطلعتا بوظيفة الكتابة عنده. ولقد سبق لنا أن عرضنا لهاتين الجاريتين من قبل في الفصل الأول باقتضاب، غير أن المقام يقتضي هنا التوسع في حديثهما بحكم مشاركتهما في مسيرة الحياة الثقافية في بلاط الخليفة الحكم. في البدء نقف مع الجارية لُبنى التي عرضنا لها من قبل لنجد المصادر تقدمها لنا على أنها: (شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم لم يكن في قصرهم – أي الأمويين – أنبل منها، وكانت عروضية، خطاطة جداً، وتوفيت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة)[١٢٨].

وثمة جارية أخرى للخليفة الحكم، جهد الخليفة أن يصقل ثقافتها صقلاً زائداً. ذكر ابن عبدالملك المراكشي[١٢٩] أن الخليفة الحكم المستنصر بالله (أخرج من قصره وصيفة غلامية، ذكية، كاتبة، فهيمة، فأمر القاسم سليمان بن أحمد بن

سليمان الأنصاري المعروف بالرصافي وبالقاسمي[١٣٠] أن يعلمها التعديل[١٣١] وخدمة الإسطرلاب[١٣٢] وما يجري مجرى هذا فقبلت ذلك وحذقته، وساعدتها قريحتها في ذلك، فأتقنت علمه في ثلاثة أعوام أو نحوها، وأعجب الحكم بها، وألزمها خدمة ما تعلمته في داره، ووصل سليمان بصلة سنية وضاعف له التكرمة).

ونختم حديث جواري الخلفاء الأمويين الثلاثة الأول بالوقوف عند الجارية نظام، جارية الخليفة هشام المؤيد بالله، وقد عرضنا في الفصل الثالث أي فصل مظاهر النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي لاسمها ودورها السياسي في تحرير الخطاب الذي عزَّى فيه الخليفة هشام الحاجب عبدالملك بن المنصور، وجدد له العهد بولايته، وها نحن أولاء نضيف هنا – لمناسبته للمقام – قول ابن عبدالملك المراكشي[١٣٣] إنها – أي الجارية نظام – (كانت كاتبة، بليغة، مدركة، محبِّرة للرسائل).

إن إسهامات جواري الخلفاء الأمويين الثلاثة الأول في شأن الكتابة بالذات لهو أمر مثير حقاً له دلالته ومغزاه، فعدا عن أنه يوضح من وجه إسهام هؤلاء في إثراء الساحة الثقافية للبلاط الأموي بخاصة والأندلس بعامة فإنه يوضح لنا من وجه آخر أن الخلفاء لم يكتفوا بالاستعانة بكتَّابهم المبرِّزين، وإنما اعتمدوا على جوارٍ لهم يسندون إليهن الكتابة التي كانت خطة أو وظيفة مرموقة لا في الأندلس فحسب وإنما في مشرق الدولة الإسلامية كذلك. والمستطلع للكتب والرسائل العلمية التي ألفت عن الحياة الثقافية في الأندلس يلمس القدر الكبير الذي أولاه الأمويون بالذات لخطة الكتابة ولرجالاتها. فقد عدّوها من أجل الخطط بحكم كون متوليها أقرب للأمير أو الخليفة الأموي مطلعاً على أسرار الدولة، وهي لا تقل أهمية عن منصب الوزارة. ولقد كانت في البلاط الأموي خطة متوارثة في بيوتات لها عراقة اجتماعية وعلمية، ولها – أي الكتابة – رسومها الخاصة بها[١٣٤] من هنا يتضح لنا أن إسهام امرأة البلاط الخلافي المتمثل في أولئك الجواري إنما يعد أمراً له مغزاه وأهميته البالغة وسط حرص أمراء بني أمية وخلفائهم على أن تكون خطة الكتابة في المكانة الرفيعة التي أرادوها لها. على أننا وإن كنا قد أوردنا أقوال المؤرخين وتنصيصهم على الجواري

الكاتبات أولئك لا نعلم إلى أي مِنْ قسمي خطة الكتابة تنتمي تلك المجموعة من الجواري: أإلى كتاب الرسائل أم إلى كتاب الزمام (الجهبذة)؟[١٣٥] وأغلب الظن أن كاتبات الخلفاء الثلاث هن كاتبات زمام أي كن يقمن بضبط الشؤون المالية لأسيادهن الخلفاء، هذا فيما عدا ما قلناه عن اضطلاع الجارية نظام جارية الخليفة هشام المؤيد بالله بدور كتابي يدخل في نطاق الفصل الثاني من الدراسة. ونحن عندما نذهب إلى أن الجواري الكاتبات اللائي سردناهن ربما يكن كاتبات زمام، نستحضر ما قلناه من قبل في حديث مظاهر النفوذ السياسي للمرأة في البلاط الأموي من وجود قهرمانات لزوجات الخليفة عبدالرحمن الناصر كن يقمن بشؤون الأحوال المالية لزوجات الخليفة.

ونصل في حديثنا إلى خلفاء الفتنة وجواريهم بعد أن وقفنا على حديث جواري الخلفاء الثلاثة الأول في عصر الخلافة نقف – حيث لم نجد ما يفيدنا عن عهد الخليفة الأول من خلفاء الفتنة، الخليفة المهدي – أقول نقف عند الخليفة الأموي الثاني من خلفاء الفتنة؛ الخليفة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر المتلقِّب بـ: المستعين بالله حسبما عرفنا من قبل في التمهيد. نحل بساحة هذا الخليفة الذي كانت له في دولة الأدب راية عالية، غير أن السياسة جنت عليه وجنى هو على نفسه[١٣٦] فيتبين لنا أنه كان من الذين استنفرت شاعريتهم جواريهم تماماً مثلما عرفنا من قبل عن جدَّيه: الأمير الحكم بن هشام والأمير عبدالرحمن الأوسط ابن الحكم، فلقد احتفظ لنا المؤرخون الأندلسيون بقصيدة عالية السبك، رفيعة المستوى، استنطقها في نفسه جوارٍ ثلاث كن له، دأبن على التمنُّع عليه والتدَلُّل؛ فارتفعت قريحته تنشد شعراً رائقاً رائعاً تضمنته هذه القصيدة المذكورة التي نذكر جيدها على التو[١٣٧]:

عجباً أيهابُ الليثُ حَدَّ سناني	وأهابُ لَحْظَ فواتِرِ الأجفانِ
وأُقارِعُ الأهوالَ لا مُتَهيباً	منها سوى الإعراض والهجرانِ
وتملَّكَتْ نفسي ثلاثٌ كالدُّمى	زُهْرُ الوجوهِ نواعمُ الأبدانِ

ككواكب الظَّلماءِ لُحْنَ لناظري   من فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ
هذي الهلالُ وتلكَ بنتُ المشتري   حُسْناً، وهذي أختُ غصنِ البانِ
حاكمتُ فيهنَّ السُلوَّ إلى الصِّبَا   فقضى بسلطانٍ على سلطاني
فَأَبحنَ من قلبي الحِمَى وتركنني   في عزِّ مُلْكي كالأسير العاني
لا تَعْذِلُوا مَلِكاً تَذَلَّلَ للهوى   ذُلُّ الهوى عز ومُلك ثانِ
إن لم أُطَعْ فيهنَّ سلطان الهوى   كَلَفاً بهنَّ فلستُ من مروانِ

هذه القطعة الرائعة الرائقة التي رأى فيها المؤرخون الأندلسيون معارضةً للمقطوعة الجميلة التي حُفظت عن الخليفة العباسي هارون الرشيد التي يقول فيها:

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عناني   وحَلَلْنَ من قلبي بكلِّ مَكانِ
مالي تُطاوِعُني البريةُ كُلُّها   وأُطيعُهنَّ، وهنَّ في عِصياني؟[١٣٨]
ما ذاكَ إلَّا أَنَّ سُلطانَ الهوى   - وبه قوين - أعزُّ من سلطاني

ومع أن مؤرخي الأندلس المشار إليهم سابقاً قد اعترفوا أن قصيدة الخليفة المستعين بالله هي تالية في معانيها لقصيدة الرشيد ومعارضة لها، إلا أن واحداً منهم وهو ابن بسام المتحيز لقطره الأندلس يكاد يصرح أن قصيدة المستعين التي (شعشعت بها الكؤوس وتهادتها الأنفاس والنفوس) هي أرفع قدراً من حيث بناؤها الشعري من مقطوعة الرشيد[١٣٩] ولئن كان ليس من مهامنا النقد الأدبي فإن ما نلحظه هنا أن قصيدة المستعين تتضمَّن بلا شك نفساً أدبياً رفيعاً، وهي إن لم تكن أرفع مستوى منها فلا تقل عنها، ثم هي - أعني قصيدة المستعين - تذكرنا بنفس معاني المقطوعة التي نظمها جده الكبير: الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل في جواريه الخمس وسبكها، فالنفس الأدبي فيهما واحد، وكذا الشأن بخصوص تطابق المعاني في القصيدتين كما يخيل إلينا. وكيفما كان الأمر فإنه ما كان لهذه القصيدة الجميلة أن ترى النور وتأخذ بالألباب لولا أنها كانت أثراً من آثار نساء البلاط الأموي غير المباشر، متمثلاً في جواري الخليفة المستعين الثلاث. ذلك الأثر غير المباشر الذي ألهب حس الخليفة الأديب فترك لنا هذه القصيدة كيما تكون دليلاً على

الدور الذي اضطلعت به سيدة البلاط الأموي؛ ملهمة أو مشاركة تأثيراً مباشراً في النشاط الثقافي.

ونطوي بحديث قصيدة الخليفة المستعين بالله في جواريه، حديث مظاهر النفوذ الثقافي للمرأة في البلاط الأموي، هذا الحديث الذي سرنا فيه مع المظان المختلفة في رصدها لدور المرأة في البلاط الأموي في الشأن الثقافي في البلاط بخاصة والحياة الثقافية الأندلسية بعامة، غير أنه لا يعزب عنا أن ذلك الدور دور نزر يسير قياساً على دور المرأة في القصور المشرقية وعلى رأسها العباسية مثلاً. هذا من جهة ومن جهة أخرى لم تعرف الساحة الثقافية للمرأة في البلاط الأموي أوجه نشاطات ثقافية أخرى غير كونها ملهمة ملهبة للمشاعر، ومشاركة أديبة كاتبة راوية حافظة، أعني لم نعرف جوانب تأليف الكتب وعقد المنتديات الأدبية والمناظرات والمساجلات، اللهم إلا ما يمكن عزوه لولادة بنت المستكفي بالله التي كانت في ربات البلاط الأموي حالة متفردة حسبما عرفنا وسطرنا من قبل، ومع ذلك فليس بين يدينا نص تاريخي عن تلك المجالس، وإنما الذي بأيدينا هو مجرد خبر ذكره ابن بسام والمقري، وعنهما نقل الناقلون.

الهوامش

(١) أفاضت المصادر والمراجع التي اهتمت بالأندلس في تبيان الحياة الثقافية في الأندلس وازدهارها على أيدي الأمويين. ولعلنا نكتفي فقط بثلاثة مراجع نعتقد أنها استوعبت حديث الثقافة والفكر في عهد الدولة الأموية في عصري الإمارة والخلافة، هي بحسب الترتيب الهجائي لأصحابها: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة، ضمن سلسلة تتحدث عن الأدب الأندلسي في العصور الأندلسية المختلفة، منشورات دار الثقافة، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م، ص١٩–٨٩ – آنخل جنتالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي – نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، ١٩٥٥م، ص٤٠–٧٧، ١٦٩–٢٠٦، ٢٦٧–٣٠٢ – مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص٢١–١٠٩.

(٢) الأمر أعسر من أن نحصيه، وحسبنا أن نشير إلى قدوم عدد من المشارقة للأندلس وإضفاء الأمراء والخلفاء الأمويين عليهم حدبهم وتشجيعهم ثم تسنم هؤلاء مكانة عالية في المجتمع الأندلسي ك: زرياب وأبي علي القالي صاحب الأمالي مثلاً. انظر انخل جنتالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٥٢–٥٥، ١٧٢–١٧٤ للوقوف على ذلك التشجيع، وهو تشجيع شمل رموز الأندلس أيضاً من أدباء وشعراء ومفكرين، ثم انظر محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م، ص٣٠–٣٢ حيث التأكيد على تشجيع بني أمية لدولة الأدب والعلم.

(٣) فيما عدا خلفاء عصر الفتنة: المهدي – المستكفي بالله – المعتمد بالله، بالإضافة لهشام المؤيد بالله، فقد ضرب أمراء بني أمية وخلفاؤها في الفترة موضوع البحث بسهم وافر في الحياة الثقافية. ولعلنا نكتفي بإحالة القارئ إلى كتاب ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص٣٥–٤٩، ١١٣–١٢٠، ١٩٧–٢٠٦ – الجزء الثاني، ص٥–١٦ حيث تناثرت ترجمات أمراء بني أمية وخلفائهم، حيث نماذج من آثارهم الشعرية والنثرية.

(٤) أي العِقْد، والحصباء في اللغة: صغار الحجارة. ومقصود الأمير عبدالرحمن الأوسط في قوله هنا، وهو التكنية بكلمة الحصباء الإشارة إلى حلق العقد

(حجاره الصغيرة الكريمة التي ينتظمها هذا العقد الذي أهداه لزوجته طروب) عن المعنى اللغوي للحصباء انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص١٧٧.

(٥) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرد، وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الأول، ص٣٨٩.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٩٢.

(٧) عن ترجمة الشاعر عبدالله بن الشمر انظر: ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٤٢-١٢٧.

(٨) الفُوفُ: الحبة البيضاء في باطن النواة تنبت منها النخلة. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٧١٣، لعله هنا يقصد بُرْدٌ مفوفٌ موشى أي مزخرف.

(٩) ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٩٢.

(١٠) اللُّهامُ أو اللُّهمومُ: الجيش العظيم. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الثاني، ص٨١٩.

(١١) انظر مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٧٧ - ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٦-٤٧ وهو صاحب العبارة التي وضعناها بين حاصرتين - ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص١١٤-١١٥ - المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٤٩ وإن كانت القطعة الشعرية التي صاغها الأمير عبدالرحمن، وقبلها البيتان الشعريان اللذان صاغهما الأمير، ثم شاعره ابن الشمر، قد اختلفت بعض ألفاظها بين هؤلاء المؤرخين الأربعة.

(١٢) عن غزلان والإشارة إلى أدبها وإتقانها للغناء وغير ذلك انظر المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٥٨١.

(١٣) ابن حيان: القطعة الخامسة من المقتبس، ص٩.

(١٤) ابن حيان: نفس القطعة أعلاه والصفحة.

(١٥) ابن حيان: نفسه، ص١٠-١٢.

(١٦) راجع ابن حيان: نفسه.

(١٧) أَقْرَفَ الرجل: كان أحد أبويه عربياً والآخر غير عربي، ومن معانيه كذلك: الشيء داناه وخالطه. انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٧٣٥. وعلى هذا فالأمير عبدالملك بن عمر يريد هنا بقوله: يأبى كل مُقْرِفٍ أن يذكِّر بأن لابنته حسباً وعلو نسب يأبى أن يدانيه أو يخالطه كل ما فيه (هُجنة). فأبواها – أي الأميرة كنزة – عربيان صميمان.

(١٨) الخَضارِمَةُ جمع خَضْرَم – والخَضْرَمُ: السيد الْحَمولُ الجواد الكثير العطاء والمعروف. والمعنى هنا واضح بيِّن. انظر عن الخضارمة والخضرم إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الأول، ص٢٤٠.

(١٩) أبو العاصي المقصود هنا، هو أبو العاصي بن أمية بن عبد شمس، الجد الأعلى لبني مروان. ومن المعروف أن مروان هو مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس انظر ابن حزم: الجمهرة، ص٨٢-٨٩.

(٢٠) ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص٥٧.

(٢١) من مجموع بنات الخلفاء الأمويين بدءاً بالأمير المؤسس الجد عبدالرحمن الداخل حتى آخر خليفة أموي أندلسي علاوة على أخوات الأمير المؤسس عبدالرحمن نفسه الثلاثة اللائي عرضنا لهن من قبل.

(٢٢) عن هذه الثلة من سيدات بني أمية في الجاهلية والإسلام انظر عمر رضا كحالة: أعلام النساء، الجزء الأول، ص٩٢، ١٨٣، ٢٠٨، الجزء الثاني، ص١٤٩ – الجزء الثالث، ص٢٨٤-٢٨٥، ٢٤٤-٢٤٥ – الجزء الخامس، ص٣٠، ٢٣٩، ٢٤٦ حيث وردت تراجم هؤلاء النسوة التي استقصاها المؤلف من المظان المختلفة.

(٢٣) راجع للمثل لا الحصر ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزءان الأول والثاني في صفحات متناثرات، حيث الحديث عن الأدباء والشعراء من أفراد البيت الأموي الأندلسي بدءاً بجد هذا البيت الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل.

(٢٤) راجع حول هذا الموضوع مثلاً لا حصراً: مصطفى الشكعة: المرجع السابق،

الباب الأول حيث الإشارة إلى جمال البيئة الأندلسية وأثرها في إطلاق الشاعرية والروح الأدبية من عقالها، ص٢١-٤٥ - جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، منشورات دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٥م، ص٦٣ وما بعدها.

(٢٥) في كتابه الشعر النسوي في الأندلس، ص٢٣-٢٤.

(٢٦) ص١٣.

(٢٧) راجع عمر رضا كحالة: أعلام النساء، الجزء الأول، ص٢٤٠ - الجزء الثالث، ص١٣٣، ١٩١، ١٩٣، ٢٢٨، وما بعدها، ص٣٤٣ وما بعدها للوقوف على سير وتراجم هذه الكوكبة من بنات أمراء بني العباس وخلفائهم، وقد استوعب حديثهن جملةً استيعاباً واسعاً من المظان المختلفة.

(٢٨) أَلْوَى الرجل بكلامه: خالف به عن جهته، وألوى بالشيء ذهب به: إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٨٥٥.

(٢٩) هكذا جاء هذا البيت في القصيدة التي أوردها ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الثاني، ص١٤ وقد علق المحقق حسين مؤنس أنه لم يجد هذا البيت لدى ابن بسام: المصدر السابق، الذي أورد هو الآخر القصيدة بتمامها عدا هذا البيت.

(٣٠) هذا نحت لكلمتي عبد شمس، وهو ضرب من ضروب اللغة معروف ك: عبدري، أي عبدالدار وخلافه.

(٣١) الجرائد جمع جريدة، والجريدة: الخيل التي لا رجَّالة فيها. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص١١٦.

(٣٢) الجَوْن: الأسود، وكذا الأبيض، والنور وكذا الظلمة، وهو من أسماء الأضداد. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الأول، ص١٤٩.

(٣٣) الخَود: الشابة الناعمة الحسنة الخلق، والجمع خود وخودات.
إبراهيم مصطفى وآخرون، نفسه، الجزء الأول، ص٢٦٠.

(٣٤) استقينا القصيدة من مصدرين، هما الذخيرة لابن بسام، القسم الأول، المجلد الأول، ص٥٦-٥٧ والحلة السيراء لابن الأبار، الجزء الثاني، ص١٤-١٥ مع وجود اختلاف يسير في الألفاظ بين المصدرين.

(٣٥) كذا سقنا الأبيات هذه عن المصدرين ذاتهما الصفحات بذاتها مع الاختلاف الطفيف كذلك في بعض الألفاظ.

(٣٦) نبتة من الفصيلة البقلية والفراشية تنبت في بلاد العرب والحبشة والهند وثمرتها قرن مغطى عند نضجه بغدد حمراء، كما يوجد عليه زغب يستعمل لتلوين الملابس الحريرية لاحتوائه على مادة حمراء. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الثاني، ص١٠٣٦.

(٣٧) معوَّلنا في هذه المقطوعة أيضاً المصدران السابقان ذاتهما مع الاختلاف الواقع أيضاً بينهما في الألفاظ.

(٣٨) الأمر أعسر من أن نحصيه – أعني ورود ترجمة ولادة عند مؤرخي الأدب الأندلسيين والمشارقة، وحسبنا أن نشير إلى الأندلسيين والمغاربة مما رصدوه وأوردوه عنها، فقد ترجم لها: ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٢٩-٤٣٣ – ابن بشكوال: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٩٩٦ – الضبي: نفسه، الجزء الثالث، ص٧٣٣ – ابن خاقان: المصدر السابق، ص٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٥ – ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، ص٥-١٠ – عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص٥٧، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠ – ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٦٥، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ – المقري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٣٧، ٦٣٠، الجزء الثالث، ص٢٠٨، ٢٧٥، الجزء الرابع، ص٢٠٥-٢١١، ٢٧٢، ٢٩٣.

(٣٩) انظر ما قاله عن ولادة وصاحبها ابن زيدون إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين، منشورات دار الثقافة، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م، ص٧٤، ١٣٩، ١٦١-١٦٦ – مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص١٧٧-٢١٢ – محمد المنتصر الريسوني: المرجع السابق، ص٧٣-٨٧ – جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص٦٣، ٩٨، ١٢٢، ١٦٦-١٧٩، ص ١٨٥-٢٣٧ – أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، ص٤٠٤-٥٢٦ (دراسة تحليلية واسعة جداً لشخصيتها وعلاقتها بالأديب ابن زيدون الأندلسي) ومن المستشرقين انظر مثلاً: آنخل جنثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٨٠-٨٤.

(٤٠) انظر أحمد خليل جمعة: المرجع السابق، ص٤٣٠، ٤٤٧، ٤٤٨ حيث الإشارة إلى من عارض قصائد ابن زيدون في ولادة ولا سيما القصيدة الأشهر المعروفة بالقصيدة النونية من شعراء العرب المحدثين وشواعرهم.

(٤١) انظر أحمد خليل جمعة: نفسه، ص٤٧٠-٤٨٢ حيث الإشارة إلى المسرحية الشعرية التي دبَّجها الشاعر المصري المحدث أحمد رامي.

(٤٢) المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٢٩-٤٣٠.

(٤٣) الآبدة: الأمر العجيب يستغرب له والجمع أوابد، وأوابد الكلام: غريبه وعجيبه، إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الأول، ص٢.

(٤٤) العشو: القصد، إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الثاني، ص٤٠٨، وابن بسام يريد أن يقول هنا - وهو من باب الكناية - إن أهل الأدب في الأندلس كانوا يقصدون ولادة ويتهافتون عليها لما لغرَّتها من ضوء. والغرة كما هو معلوم ذات معانٍ لغوية منها - وهو ما يوافق المعنى - الطلعة، كما جاء عند إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الثاني، ص٦٥٥.

(٤٥) أي أحمد بن زيدون، الشاعر الأندلسي الذي طارت له شهرة وذاع له صيت لا في الأندلس فحسب وإنما في المشرق، وما زال اسمه يتردد على أنه واحد من أبرز شعراء الأمة. وقد كتب عنه الكثير. راجع مثلاً ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص٦٣-٦٩، وانظر الحاشية التي عقدها المحقق إحسان عباس في هامش ص٦٣ حيث أورد المظان التي تناثرت فيها ترجمة ابن زيدون.

(٤٦) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص٩٩٦. ويوافق الضبي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٧٧٣ ابن بشكوال في قوله هذا تماماً.

(٤٧) مالطة ممالطةً، الشاعر الذي يجري المصراع الثاني من بيت الشعر بعدما قال صاحبه المصراع الأول، أو الشاعر الذي يقول نصف البيت ويتمه الآخر. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٨٩٢.

(٤٨) المصدر السابق، الجزء الأول، ص٤٣٧.

(٤٩) نفسه، الجزء الرابع، ص٢٠٨.

(٥٠) المقصود عُلَيّة بنت الخليفة العباسي المهدي بالله (راجع ما قلناه عنها قبل) ثم

راجع ما قاله أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، الحاشية (١) ص٤١١ حيث يستنكر الأقوال التي نسبت إلى الأميرتين عُلية وولادة، هذا مع أن الباحث ينكر أساساً وجود ولادة حسبما مر بنا في الفصل الأول.

(٥١) نفسه، الجزء الرابع، ص٢٧٢.

(٥٢) انظر أخبارها عند المقري: نفسه، الجزء الأول، ص٦٩، ٤٤٠ – الجزء الثاني، ص٢٨٥ – الجزء الرابع، ص٩٢٨، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٥، ٢٧٢، ٢٨٣، ٤٨٤.

(٥٣) أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، ص٤٠٤.

(٥٤) أحمد خليل جمعة، نفسه.

(٥٥) محمد المنتصر الريسوني: المرجع السابق، ص٣٩.

(٥٦) المصدر السابق، الجزء الرابع، ص٢٠٧.

(٥٧) المقري: نفسه مع ذات الجزء والصفحة.

(٥٨) نفس المرجع السابق، ص٨٠.

(٥٩) القرنانُ: نعت سوء للرجل الذي لا غيرة له على أهله. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، نفسه، الجزء الثاني، ص٧٣٨.

(٦٠) المقري: نفسه، الجزء الرابع، ص٢٠٥ وقد أعرضنا عن تضمين النعوت الفاحشة التي نعتت بها ولادة ابن زيدون عدا النعتين الأخيرين.

(٦١) المقري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص٢٠٦، وقد ضربنا صفحاً عن تكملة عجز البيت لفحشه. وأما عليٌّ المشار إليه في عجز البيت فهو غلام ابن زيدون كما جاء ذلك تنصيصاً عند المقري: نفسه، ص٢٠٧.

(٦٢) راجع المقري: نفسه مع ذات الجزء والصفحة أعلاه، حيث الإشارة إلى هذين البيتين.

(٦٣) راجع المقري: نفسه مع ذات الجزء والصفحة، حيث الإشارة إلى البيت الوارد في المتن وحيث الإشارة إلى البيت الآخر الذي ضربنا صفحاً – كذلك – عن تضمينه هنا لفحشه الشديد. أما الأصبحي ذلك فقد أعياني العثور على ترجمته.

(٦٤) نفسه، الجزء الرابع، ص٢٠٥.

(٦٥) الكوكب المعروف. انظر شفيق غربال وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ص١٧٠٤-١٧٠٥. ومن المؤكد أن ثمة كناية أرادتها ولادة هنا إذ شبهت جاريتها بكوكب المشتري المظلم.

(٦٦) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٣٠.

(٦٧) ابن القلاس أو ابن الفلاس: شاعر من شعراء الأندلس المعروفين آنذاك. انظر ابن سعيد: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٦٣.

(٦٨) نقلنا هذه القصة عن محمد المنتصر الريسوني: المرجع السابق، ص٨٣. ومن أسف أنني لم أعثر في المظان التي بين يدي على خبرها، ولا أدري المصدر الذي اعتمد عليه الريسوني؟

(٦٩) المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٣٢.

(٧٠) المصدر السابق، الجزء الرابع، ص٢٠٨.

(٧١) انظر ابن بسام: نفسه مع ذات القسم والمجلد، ص٣٩٥-٣٩٦، ٤٣٢، ٧٩٤ حيث تناثرت أخباره، وحيث الإشارة إلى أنه كان من أعيان الأندلس محباً لولادة ومواصلاً لا يغفل عن مراسلتها.

(٧٢) الخصيب المقصود هنا، هو الخصيب بن عبدالحميد والي مصر للخليفة هارون الرشيد، وقد أمَّه الشاعر الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس، فمدحه وقال فيه هذا البيت مع بيتين آخرين. انظر الجهشياري (ت ٣٣١هـ): كتاب الوزراء والكتاب، حقَّقه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، منشورات شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص٢٥٤-٢٥٦. والحق أن ابن بسام ثم المقري بعده ثم من جاراهما من الباحثين المحدثين قد وهموا في إسناد هذا البيت لولادة بينما هو في الحقيقة لأبي نواس، وقد تمثلت به ولادة فقط.

(٧٣) أول من أشار إلى البيتين هو ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٢٣٢ وعنه نقل الناقلون.

(٧٤) ابن بسام: نفسه مع ذات القسم والمجلد، ص٢٣٣.

(٧٥) انظر ترجمته عن ابن سعيد: المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٠٨ مع الحاشية رقم (١) التي عقدها المحقق في هامش الصفحة للإشارة إلى المظان الأخرى الواسعة لترجمته.

(٧٦) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٩٩٦.

(٧٧) المصدر السابق، الجزء الرابع، ص٢٠٥.

(٧٨) انظر: محمد الريسوني، ص٧٣-٧٧، جودت الركابي، الأدب الأندلسي، ص١٦٧-١٦٨.

(٧٩) الحاشية (١) ص٤١٤ من كتابه نساء من الأندلس، ثم انظر البحث الرائع الذي عقده أحمد خليل جمعة بعنوان: هل صحيح ما ينسب إلى ولادة؟ وهو المبحث الذي انتهى فيه إلى استبعاد موضوع التفلت الأخلاقي لولادة. هذا مع أنه ينكر ابتداء وجود ولادة في التاريخ ويراها شخصية وهمية كما ذكرنا ذلك في الفصل الأول ناقشناه بشأنه.

(٨٠) المرجع السابِق، ص١٧٩.

(٨١) المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٣٠.

(٨٢) المرجع السابق، ص٧٥.

(٨٣) المرجع السابق، ص٨٠.

(٨٤) عن الرسالة الهزلية راجع جودت الركابي: المرجع السابق- ولعلنا نكتفي به عن سواه – حيث أورد هذه الرسالة وأجرى عليها دراسة أدبية وتاريخية واسعتين (انظر ص٢٥٥-٢٥٦ من الكتاب).

(٨٥) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٣٠.

(٨٦) المصدر السابق، الجزء الرابع، ص٢٠٦.

(٨٧) راجع مثلاً مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص١٨٢ مع الحواشي – جودت الركابي: نفسه، ص١٦٩-١٧٠.

(٨٨) انظر ابن زيدون (ت ٤٦٣هـ): ديوان ابن زيدون، شرح يوسف فرحات، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص١٩٤-١٩٥.

(٨٩) المرجع السابِق، ص١٩٤ وقارن ما قاله أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، ص٤٤٦-٤٤٧ عن هذه القصيدة ومن عارضها من المحدثين.

(٩٠) اللبَّات: مفردها: لبّة، وهي موضع القلادة من العنق والقلادة نفسها، أما الأطواق، ومفردها: طوق كل ما أحاط بشيء خِلْقَة كطوق الحمام أو صنعةً كطوق الذهب والفضة يحيط بالعنق.
إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٥٧٧، ٨١٨.

(٩١) نفسه حيث نقلنا عنه الجمل التي وضعناها بين حاصرتين، ص٢٠٢ وقارن ما قاله أحمد خليل جمعة: نفسه، ص٤٥١ وما بعدها عن القصيدة ووصفه لها بالقلادة، ثم إشارته في الصفحات التالية للمعارضات التي عورضت بها هذه القصيدة.

(٩٢) الحيْنُ: الهلاكُ والمحنةُ: إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، الجزء الأول، ص٢١١.

(٩٣) ابن زيدون: ديوان ابن زيدون، ص٢٩٨-٣٠٣.

(٩٤) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص١٤٣ حيث ترجمة مهجة التياني.

(٩٥) راجع ابن سعيد: نفسه، الجزء نفسه والصفحة، حيث الإشارة إلى البيت الأول ثم البيت الثاني الذي ضربنا صفحاً عن تضمين بقية عجزه لفحشه المقذع.

(٩٦) انظر ابن حزم: طوق الحمامة، ص٥ - المقري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص١٢١.

(٩٧) انظر المقري: نفسه، الجزء الثالث، ص١٤١-١٤٢ وقارن هذا بحديث السيد عبدالعزيز سالم الواسع في كتابه: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الثاني، ص٨٦.

(٩٨) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢١.

(٩٩) نفسه، ص١٢١-١٢٢ وانظر ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٧٩.

(١٠٠) الجآذر: جمع جُؤذَرٍ، والجُؤذَرُ: ولد البقرة، وجاء في الصحاح: البقرة الوحشية. ابن منظور: المعجم السابق، المجلد الرابع، ص١٢٤. وواضح هنا

أن ثمة كناية أرادها الأمير الحكم بن هشام كنى فيها بالبقر الوحشي عن جواريه الخمس أولئك اللائي تمنَّعن عليه أو تفلَّتن منه تفلُّت البقر الوحشي.

(١٠١) المقري، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٣٥٠، وقارن هذا بما كتبه السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الثاني، ص٨٥-٨٦ - أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، ص٣٤٨-٣٥٣. حيث يميل - ظناً لا تحقيقاً - إلى أن قلمَ الجارية ربما تكون قد تتلمذت على يد المغني المشهور علي بن نافع الملقب بزرياب.

(١٠٢) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٤٠.

(١٠٣) عن ثقافة الأمير عبدالرحمن الأوسط العالية، راجع أحمد مختار العبادي: مقال الإسلام في أرض الأندلس وأثر البيئة الأوروبية، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد الأول، المجلد العاشر، ص٦٢.

(١٠٤) نفسه، الجزء الثالث، ص١٤٠. ولقد اختلط الأمر على عمر رضا كحالة: أعلام النساء، الجزء الثالث، ص٣٣١ فخلط بينها وبين الجارية قلم التي ترجم لها في الجزء الرابع، ص٢١٩ نقلاً عن المقري بترجمة مشابهة تماماً لترجمة الجارية علم التي نقل ترجمتها كذلك عن المقري.

(١٠٥) انظر ترجمة زرياب (علي بن نافع ت(٢٤٣هـ) لدى المقري نفسه، الجزء الثالث، ص١٢٢-١٣٣ حيث عقد له ترجمة واسعة، وقارن كذلك ما عقده له ولدوره المؤثر في الأندلس السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الثاني، ص٨٦-٩٣.

(١٠٦) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص١٣١.

(١٠٧) لم نكن نرغب في أن نثبت كلمة العذار الواردة هنا في عجز البيت، بيد أننا فعلنا ذلك لأننا لا نستبعد أن يكون قولها ذلك من قبيل قول الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، ثم هو صيانة للأمير الجليل عبدالرحمن الأوسط الذي حمد المؤرخون سيرته على وجه العموم. وعلى كل حال فعندما يقال: خلع فلان عذاره، فإنها تعني في اللغة: انهمك في الغيّ ولم يستحِ. انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم السابق، الجزء الثاني، ص٥٩٦.

(١٠٨) سلسلة محاضرات عامة في آداب الأندلس وتاريخها، ترجمها إلى العربية محمد عبدالهادي أبو شعيرة، مراجعة عبدالحميد العبادي، منشورات، الطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م، ص٧-٨.

(١٠٩) ص١٠.

(١١٠) قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الثاني، ص٨٧، وقد تركنا كثيراً من تقويم السيد عبدالعزيز سالم لعهد عبدالرحمن الأوسط الذي يعده العهد الذهبي لفنون الغناء والموسيقى، فليراجع هناك، ص٨٩٧ وما بعدها.

(١١١) نساء من الأندلس، ص٣٥٠-٣٥١.

(١١٢) انظر قرطبة عاصمة الخلافة، الجزء الثاني، ص٩٣-٩٤ حيث الإشارة لذلك اللَّبس.

(١١٣) دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي - وهي رسالتها للماجستير التي أشرنا إليها من قبل، ص١٢٦-١٢٧.

(١١٤) انظر المقري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٥٧٧. حيث أشار إلى هذه الجارية، وأنها جارية للأمير المنذر بن عبدالرحمن الأوسط حيث عقد ترجمة واسعة إلى حد ما للأمير هذا من ص٥٧٤-٥٧٨ من الجزء الثالث هذا.

(١١٥) انظر ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص١٥٧. حيث التنصيص على أن الجارية جيجان كانت جارية مغنية للأمير عبدالله بن عبدالرحمن الأوسط.

(١١٦) عن ثورة سعيد بن جودي على الإمارة الأموية، انظر ابن حيان: المقتبس في تاريخ الأندلس، القطعة التي حققها إسماعيل العربي، ص٥٠-٥١.

(١١٧) ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص١٥٨، وقد عقد ابن الأبار لسعيد ابن جودي ترجمة حسنة امتدت من ص١٥٨-١٧٤.

(١١٨) نفسه، الجزء الأول، ص١٥٦.

(١١٩) ابن الأبار: نفسه، ص١٤٣-١٤٤ حيث التنصيص على أنه كان وزيراً للمنذر بالإضافة لتولّيه الكتابة له.

(١٢٠) رسالة الماجستير السابقة غير المنشورة، ص٢٧٣.

(١٢١) الجزء الثالث، ص٤٨٥.

(١٢٢) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص٩٩٤.

(١٢٣) نفسه وذات الجزء والصفحة.

(١٢٤) لم يترجم له ابن بشكوال في صلته، وقد أعياني العثور على ترجمته في المظان التي بين يدي، لأن ابن بشكوال لم يوافنا باسمه كاملاً.

(١٢٥) المصدر السابق.

(١٢٦) نفسه، الجزء الثالث، ص٩٩٢ ويطلق عليها اسم مُزنة – الضبي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٧٣٢. وقارن هذا بما ذكره ابن عبدالملك المراكشي: المصدر السابق، القسم الثالث، ص٤٩٢ من أنها تعرف بـ: مُزن.

(١٢٧) القسم الثالث، ص٤٩١.

(١٢٨) ابن بشكوال: نفسه، الجزء الثالث، ص٩٩٤ – الضبي: نفسه، الجزء الثاني، ص٧٣٢ حيث يورد نفس ترجمة ابن بشكوال لـ: لبنى – ابن عبدالملك المراكشي: نفسه، القسم الثالث، ص٤٩٢ وإن كان قد جعل وفاتها سنة ست وسبعين وثلثمائة لا اثنتين وسبعين كما قال ابن بشكوال والضبي.

(١٢٩) القسم الثالث، ص٤٩٥.

(١٣٠) أحد رجالات دولة الخليفة الحكم المستنصر – انظر قطعة من المقتبس، تتضمن الحديث عن ٥ سنوات غير كاملة من عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله (من سنة ٣٦٠–٣٦٤هـ) تحقيق عبدالرحمن علي الحجي: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٥٣.

(١٣١) أعياني العثور على معنى هذا المصطلح.

(١٣٢) الإسطرلاب: آلة قديمة لقياس ارتفاعات الأجرام السماوية، تتألف من قرص خشبي أو معدني مدرج المحيط ومعلق في وضع رأسي بحلقة، وفي مركزه مؤشر متحرك يسمى العضادة.

شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، بعناية عدد من الباحثين برئاسة شفيق غربال، منشورات دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٤٨.

(١٣٣) القسم الثالث، ص٤٩٣.

(١٣٤) سالم بن عبدالله الخلف: رسالة نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأُندلس السابقة (١٣٨-٢٢٢هـ) ص١٦٠-١٦٦ (لم تنشر) حيث فصَّل القول عن هذه الخطة وعليه عوَّلنا.

(١٣٥) كاتب الرسائل، هو الذي يمثل صاحبه القسم الأول من خطة الكتابة، وفيه - أي القسم الأول - تنحصر مهام الكاتب في إعداد المكاتبات الرسمية وصياغتها من الأمير أو الخليفة وعنهما، ويندرج تحت وظيفة صاحب الرسائل مناصب كتابية أخرى تفصيلية أعلاها منزلة: الكاتب الخاص أو صاحب القلم الأعلى، ثم تلك التي يتولى فيها كاتب ما: ترتيب الكتب المعروضة على نظر الأمير أو الخليفة أو الملك، وأخيراً الوظيفة التي يضطلع صاحبها بمكاتبة رجالات الدولة وولاتها وكلهم يأتمرون بأمر صاحب ديوان الرسائل. أما كاتب الزمام (الجهبذ) فهو الكاتب المختص بالشؤون المالية والنقدية للدولة.
سالم بن عبدالله الخلف: الرسالة السابقة، ص١٦٣-١٦٥.

(١٣٦) انظر تقويم ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٦ وكذا ابن الأبار: الحلة السيراء: الجزء الثاني، ص٨ لشخصية الخليفة المستعين الأدبية وتقديرهما لها.

(١٣٧) انظر هذه القصيدة عند الحميدي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٥١-٥٢ - ابن بسام: نفسه القسم الأول المجلد الأول، ص٤٦-٤٨ - ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الثاني، ص٨-٩، وقد نبه محققو هذه المصادر الثلاثة على وجود اختلاف يسير في سوق المؤرخين الثلاثة للقصيدة وأبياتها.

(١٣٨) انظر على سبيل المثال ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤٧.

(١٣٩) نفسه.

الخاتمة

لعل من آكد الأمور وأوجبها ونحن نشرع في الانتهاء من الحديث عن الدور النسوي في بلاطات الأمويين بالأندلس في الإطارين الزمني والموضوعي اللذين تخيَّرناهما للدراسة أن نشير في عجالة مركزة إلى أهم النتائج التي استخلصناها من متابعتنا لسيرة نساء البلاط الأموي ومسيرتهن على الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية:

١ – أسفرت الدراسة عن تعرفنا من كثب نساء أمراء البلاط الأموي وخلفائه في الأندلس في عصري الإمارة والخلافة إبان انتصاب دولتهم هناك في المحدد الزمني المتفق عليه تاريخياً: ١٣٨–٤٢٢هـ/ ٧٥٥–١٠٣٠م؛ أسماءهن؛ جنسياتهن، أعدادهن، طبيعة علاقتهن بالأمراء والخلفاء الأمويين وفقاً للوضعية التي كانت عليها كل واحدة منهن: عقيلة حرة – أمة أم ولد – بنتاً وأختاً – جارية خدمة، وجارية متعة.

٢ – أبرزت الدراسة وجود ظاهرتين في البلاط الأموي، أولاهما أن كل أمراء بني أمية وخلفائهم في الأندلس أمهاتهم أم ولد، ويشترك في هذه الظاهرة معظم الأمراء الآخرين، والظاهرة الثانية أن أمراء بني أمية وخلفاءهم جميعاً فيما عدا الأمير المؤسس جدهم عبدالرحمن الداخل، أمهاتهم أسبانيات، وأنهم – أي الأمراء والخلفاء – حملوا كثيراً من الخصائص الجسمانية التي يتميز بها الجنس الآري.

٣ – إن أمراء بني أمية وخلفاءهم في الأندلس على الرغم من أنهم جميعاً أمهاتهم أمهات أسبانيات (فيما عدا الأمير عبدالرحمن الداخل) إلا أنهم كانوا شديدي التمسك بإسلامهم والاعتزاز بأرومتهم الأموية القرشية العربية، ولم نظفر البتة بدليل أو قرينة تؤكد تنكبهم هذا الانتماء في مواجهتهم للممالك الأسبانية النصرانية، وهذا شيء طبعي.

٤ – إن الدور الأكبر والأثقل لنساء البلاط الأموي على كافة الصعد اضطلعت به فئتان، هما: الإماء أمهات الأمراء والخلفاء وأولادهم، ثم جواري الأمراء

والخلفاء وقهرماناتهم ووصيفاتهم. وبالمقابل كان دور حرائر الأمراء والخلفاء، ثم بناتهم وأخواتهم دوراً متواضعاً على كافة الصعد ما عدا حالة واحدة، هي حالة الأميرة ولادة بنت الخليفة المستكفي بالله التي كان لها حضورها القوي على الساحة الأدبية والثقافية، ولقد وضحنا في ثنايا الدراسة أسباب ذلك تفصيلاً.

٥ - سايرت المرأة في البلاط الأموي رصيفتها المشرقية في ملامح حياتها الجادة واللاهية - أيضاً - فلقد رصدنا نفس حالات: النزق والتسلط والطيش السياسي من نحو، وبعض حالات التفلت الأخلاقي المحدود من نحو آخر. كما سايرت امرأة البلاط الأموي رصيفتها المشرقية في كونها مصدراً للإلهام ومحركةً لتيارات الأدب والثقافة الأندلسية. وقد جاء هذا جنباً إلى جنب مع مجاراتها لرصيفتها المشرقية في تلبية مظان البر والإحسان كلما واتتها الفرصة ومكَّنتها السانحة. غير أن تلك المجاراة من امرأة البلاط الأموي لأختها المشرقية لم تستطع أن تقفز بها إلى المقدمة فضلاً عن أن تتساوى معها. فلقد كان دور المرأة في القصور المشرقية أوسع وأحفل، ولذلك أسبابه التي شرحناها في ثنايا الدراسة.

٦ - إن الكم الذي تسرب لنا من التراث الأندلسي، لم يسعفنا من أن نتلمس دفء المشاعر الفياضة والعلاقات الحميمة لأمراء بني أمية وخلفائهم تجاه حرائرهم وبناتهم وأخواتهم يماثل ما كان عليه الحال لدى خلفاء بني العباس مثلاً. ولعله لا يعزب عن بالنا ذلك الفيض العاطفي المتدفق الذي كانت عليه علاقة الخليفة هارون الرشيد تحديداً بزوجته السيدة زبيدة وأختيه: عُلية والعباسة.

٧ - هيمنت الأَمَةُ أم الولد بصورة أوسع، وجارية المتعة بصورة أقل على أفئدة الكثير من أمراء بني أمية وخلفائهم، ووقفنا على درجاتٍ عالية من دفق المشاعر الفياضة لا يقل عما كانت ترفل به ومعه رصيفتها المشرقية في قصور العباسيين، فحيث ما نذكر طروب ومرجانة وصبح في الأندلس، تقفز إلى الذاكرة أسماء: الخيزران وقبيحة وشغب أم المقتدر وغريب المأمونية.

٨ - إن الممارسة السياسية لسيدات البلاط الأموي كانت في معظمها ممارسات سالبة أدت إلى زعزعة استقرار الدولة كالدور الذي مارسته كل من الجاريتين طروب وصبح، وكذا النسوة اللائي أحطن بالخليفتين محمد المهدي بالله، وهشام المعتد بالله من خلفاء الفتنة. ولعل ما حدث في الأندلس قد جاء في نسق الأخطاء التاريخية التي حدثت في مشرق الدولة الإسلامية وسياقها، وكانت المرأة وراء الكثير من تداعياتها. كما أن الدراسة أبرزت بالمقابل ممارسات سياسية نسوية موجبة كالدور الذي اضطلعت به الأميرة أم الأصبغ شقيقة الأمير المؤسس عبدالرحمن الداخل.

٩ - مارست المرأة في البلاط الأموي نشاطاً إيجابياً فاعلاً على الصعيد الاجتماعي تمثل في ما تعهدته من أعمال البر والخيرات، وأنفقت عليه بسخاء متمثلاً في بناء المساجد والمقابر والمباني الوقفية، علاوة على تفقد أحوال المحتاجين والفقراء للهبات والتبرعات المختلفة، وفي هذا المجال تأتي الجارية طروب أم الخليفة الحكم المستنصر في طليعة سيدات البلاط الأموي.

١٠ - أوضحت الدراسة أن المرأة في البلاط الأموي أسهمت بإسهامات ثقافية في مجال الأدب والشعر والكتابة الديوانية. وقد رفدت هذه الإسهامات الساحة الثقافية بالأندلس فأغنتها وأثرتها خلال تلك الفترة، وكان الدور الأبرز في ذلك للأميرة ولادة بنت المستكفي.

١١ - أكدت الدراسة أن الشاعرة والأديبة الأندلسية الشهيرة: ولادة هي سليلة البيت الأموي، وتعد درة من درر هذا البيت بانتسابها إلى أبيها الخليفة المستكفي بالله من جهة، ودورها الثقافي في الحياة الثقافية الأندلسية آنذاك من جهة أخرى.

قائمة المصادر والمراجع
والدوريات والموسوعات

المصادر

أولاً – القرآن الكريم.

ثانياً – المصادر المطبوعة:

ابن الأبار (ت ٦٥٨هـ):

١ – التكملة لكتاب الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري. منشورات دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ضمن المكتبة الأندلسية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٢ – الحُلَّة السِّيراء، حققه وعلّق حواشيه حسين مؤنس، منشورات الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، جزءان، ط١، ١٩٦٣م.

ابن بسام (ت ٥٤٢هـ):

٣ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، منشورات دار الثقافة، بيروت، ٨ أجزاء، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ):

٤ – الصِّلَة، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ضمن المكتبة الأندلسية، ٣ أجزاء، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

البكري (ت ٤٨٧هـ):

٥ – جغرافية الأندلس وأوربا – من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبدالرحمن علي الحجي، منشورات دار الإرشاد، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

الجهشياري (ت ٣٣١هـ):

٦ – كتاب الوزراء والكتاب، حقَّقه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحيفظ شلبي، منشورات مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ):

٧ – الإصابة في تمييز الصحابة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ٤ أجزاء (د.ت).

ابن حزم (ت ٤٥٦هـ):

٨ – جمهرة أنساب العرب، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٩ – طوق الحمامة في الألفة والألاف، حقّقه وصوّبه وفهرس له حسين كامل الصيرفي، قدَّم له إبراهيم الإبياري، منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د.ت).

١٠ – نقط العروس، فِصْلَةٌ حقّقها ونشرها شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول (القاهرة لاحقاً)، المجلد الثالث عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥١م.

الحُميدي (ت ٤٨٨ هـ):

١١ – جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ضمن المكتبة الأندلسية، جزءان، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

الحِميري (ت ٩٠٠ هـ):

١٢ – الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)، حقّقه إحسان عباس، منشورات مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

ابن حيان (ت ٤٦٩هـ):

١٣ – المقتبس من أنباء أهل الأندلس – قطعة تتناول بعض عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط وهي القطعة الثانية حقَّقها وقدَّمها وعلَّق عليها محمود علي مكي، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٤ – المقتبس في تاريخ الأندلس – قطعة تتناول عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط، وهي القطعة الثالثة، تحقيق وشرح وتعليق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

١٥ – المقتبس في أخبار بلد الأندلس – قطعة تتناول ٤ سنوات من عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، وهي القطعة الرابعة زمنياً، تحقيق عبدالرحمن علي الحجي، منشورات وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

١٦ – المقتبس، قطعة تتناول بعض عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، وهي القطعة الخامسة عثوراً عليها من كتاب المقتبس، نشر بدر وشماليثا وفردريكو كورنيطي ومحمود صبح، منشورات المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب – جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٧٩م.

ابن خاقان (ت ٥٢٨هـ ، أو ٥٢٩هـ):

١٧ – قلائد العقيان في محاسن الأعيان، نسخة مصورة عن طبعة باريس، قدَّم له ووضع فهارسه محمد العنَّابي بدار الكتب الوطنية بتونس، منشورات المكتبة العتيقة، تونس، سلسلة من تراثنا الإسلامي رقم (١) ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

الخشني (ت ٣٦١هـ):

١٨ – قضاة قرطبة، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن المكتبة الأندلسية، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ):

١٩ – أعمال الأعلام أو تاريخ المغرب في العصر الوسيط – القسم الثالث من المخطوطة، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، منشورات دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م.

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ):

٢٠ – العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، وراجعه سهيل زكار، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٨ مجلدات، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م.

ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ):

٢١ – المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبدالمجيد وأحمد أحمد بدوي، مراجعة طه حسين، منشورات دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٥٤م.

الذهبي (ت ٧٤٨هـ):

٢٢ – سير أعلام النبلاء، حقق الأجزاء من ١–٢٣ نفر من الباحثين. وأشرف على تحقيق الكتاب بأجزائه كلها وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٥ جزءاً منها جزءان للفهارس، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر) (ت بعد سنة ٦٦٠هـ):

٢٣ – ترتيب مختار الصحاح، تحقيق شهاب الدين أبي عمر، عُني بترتيبه محمود خاطر، منشورات دار الفكر للبطاعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

ابن زيدون (ت ٤٦٣هـ):

٢٤ – ديوان ابن زيدون، شرح يوسف فرحات، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ):

٢٥ – المغرب في حلي المغرب، حقق شوقي ضيف في جزأين منفصلين القسم الثاني منه تحت عنوان: وشي الطرس في حلى جزيرة الأندلس، منشورات دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.

السيوطي (ت ٩١١هـ):

٢٦ – تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، منشورات مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ط٤، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

الضبي (ت ٥٩٩هـ):

٢٧ – بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن المكتبة الأندلسية، جزءان، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

الطبري (ت ٣١٠هـ):

٢٨ – تاريخ الأمم والملوك، منشورات دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ٣ أجزاء، (د.ت).

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ):

٢٩ – العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، منشورات دار الفكر، بيروت، ٨ أجزاء، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.

ابن عبدالملك المراكشي (محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي) (ت٧٠٣هـ):

٣٠ – الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، قسمان، القسم الثاني، قدَّم له وحقَّقه وعلَّق عليه محمد بن شريفة، منشورات مطبعة أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٤م.

ابن عذاري (ت ٦٩٥هـ):

٣١ – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، حقَّق الأجزاء الثلاثة الأولى، ج.س. كولان وليفي بروفنسال، وحقَّق الجزء الرابع إحسان عباس، منشورات دار الثقافة، بيروت، (د.ت).

ابن الفرضي (٤٠٣هـ):

٣٢ – تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن المكتبة الأندلسية، ٣ أجزاء، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ):

٣٣ – المُغني، حقَّقه عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو، منشورات هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ٤ أجزاء، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ):

٣٤ – تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن المكتبة الأندلسية، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

ابن ماجة (ت ٢٧٥هـ):

٣٥ – سُنن ابن ماجة، حقَّق نصوصه ورقَّم كتبه وأبوابه، وأحاديثه، وعلَّق عليه محمد فؤاد عبدالباقي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، قسمان، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

المراكشي (عبدالواحد بن علي التميمي) (ت ٦٤٧هـ):

٣٦ – المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصحَّحه وعلَّق حواشيه وأنشأ مقدِّمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، تقديم ممدوح حقي، منشورات دار الكتاب، الدار البيضاء، (د.ت).

المقري (ت ١٠٤١هـ):

٣٧ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، منشورات دارصادر، بيروت، ٨ أجزاء، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ابن منظور (ت ٧١١هـ):

٣٨ – لسان العرب، منشورات دار الفكر، دار صادر، بيروت، ١٥ مجلداً، (د.ت).

مؤلف مجهول (من رجال القرن الرابع الهجري):

٣٩ – أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت ضمن المكتبة الأندلسية، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

مؤلف مجهول (ت؟):

٤٠ – ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا، الجزء الأول، مدريد، ١٩٨٣م.

النباهي المالقي (أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن) ت بعد سنة ٧٨٨هـ):

٤١ – تاريخ قضاة الأندلس من كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ضمن سلسلة ذخائر التراث العربي، (د.ت).

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ):

٤٢ – معجم البلدان، منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة، بيروت، ٥ مجلدات، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

ثالثاً – المراجع:

إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبدالقادر ومحمد علي النجار:

١ – المعجم الوسيط، أشرف على طبعه عبدالسلام هارون، منشورات مجمع اللغة العربية بعناية دار إحياء التراث العربي، المكتبة العلمية، طهران، جزءان، (د.ت).

إبراهيم ياس خضير الدوري:

٢ – عبدالرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، منشورات دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م.

إحسان عباس:

٣ – تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة، منشورات دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م.

٤ – تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين، منشورات دار الثقافة، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م.

أحمد إبراهيم الشعراوي:

٥ – الأمويون أمراء الأندلس الأول، منشورات دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٩م.

أحمد أمين:

٦ – ضحى الإسلام، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ٣ أجزاء، ط٥، (د.ت).

أحمد خليل جمعة:

٧ - نساء في قصور الأمراء، منشورات اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٨ - نساء من الأندلس، منشورات اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٩ - نساء من التاريخ، منشورات اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

أحمد فكري:

١٠ - قرطبة في العصر الإسلامي - تاريخ وحضارة، منشورات مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

أحمد مختار العبادي:

١١ - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات مكتبة محمد أحمد بسيوني الإسكندرية، ط١، ١٩١٨م.

١٢ - في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م.

أحمد هيكل:

١٣ - الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، منشورات دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٧٩م.

آدم متز:

١٤ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب محمد عبدالهادي أبو ريدة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، جزءان، ط٤، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

إميليو غرسية غومس:

١٥ - الشعر الأندلسي بحث في تطويره وخصائصه، ترجمة حسين مؤنس، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٩م.

آنخل جنثاليث بالنثيا:

١٦ – تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الأسبانية حسين مؤنس، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.

خالد بن عبدالكريم بن حمود البدر:

١٧ – النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة (١٣٨-٣١٦هـ/ ٧٥٥-٩٢٨م)، منشورات مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

راوية عبدالحميد حسانين شافع:

١٨ – دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي من الفتح العربي للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية (٩٢-٤٢٢هـ/ ٧١١-١٠٣١م) رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة الإسلامية – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ١٩٩٤م (لم تنشر بعد).

سالم بن عبدالله الخلف:

١٩ – نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس (١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٦-١٠٣١م) رسالة دكتوراه مقدمة لقسم التاريخ، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م (لم تنشر بعد).

سعيد عبدالفتاح عاشور:

٢٠ – أوربا العصور الوسطى، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

السيد عبدالعزيز سالم:

٢١ – تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، منشورات مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢م.

٢٢ – قرطبة حاضرة الخلافة (دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، جزءان، ١٩٧١م.

صلاح خالص:

٢٣ – إشبيلية في القرن الخامس الهجري – دراسة أدبية وتاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها (٤١٤-٤٦١هـ) منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

الطاهر أحمد مكي:

٢٤ – دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، منشورات دار المعارف، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

عبدالحليم عبدالعليم خضر:

٢٥ – أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم، منشورات شركة تهامة، الكتاب الجامعي، جدة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

عبدالحليم عويس:

٢٦ – ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، منشورات دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.

عبدالحميد العبادي:

٢٧ – المجمل في تاريخ الأندلس، جمع مادته أحمد إبراهيم الشريف وراجعه أحمد مختار العبادي، منشورات دار القلم، القاهرة، (د.ت).

عبدالرحمن البرقوقي:

٢٨ – دولة النساء، معجم ثقافي، اجتماعي، لغوي عن المرأة، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت).

عبدالرحمن علي الحجي:

٢٩ – التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م) منشورات دار القلم ودار المنارة، دمشق، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

عبدالمجيد نعنعي:

٣٠ – تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

عمر رضا كحالة:

٣١ – أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ٥ أجزاء، ط٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٣٢ – معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ٣ أجزاء، ط٧، ١٤١٤هـ/ ١٩٨٤م.

كرم ملحم كرم:

٣٢ – صقر قريش، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ١٩٦٠م.

ليفي بروفنسال:

٣٤ – تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ترجمه إلى الأسبانية إملوجارثيا جومثو، وترجمه إلى العربية علي عبدالرؤوف البمبي، وعلي إبراهيم المنوفي، والسيد عبدالظاهر عبدالله، مراجعة صلاح فضل، منشورات المجلس الأعلى المصري للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣٥ – سلسلة محاضرات عامة في آداب الأندلس وتاريخها، ترجمة عبدالهادي شعيرة، منشورات دار المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م.

محمد عبدالله عنان:

٣٦ – دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى بدايات عهد الناصر، العصر الأول، القسم الأول، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٣٧ – دولة الإسلام في الأندلس: الخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول، القسم الثاني، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٣٨ – دولة الإسلام في الأندلس: الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، منشورات مطبعة مصر، شركة مساهمة مصرية ، القاهرة، ط٤، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٣٩ – دولة الإسلام في الأندلس: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، العصر الثاني، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٤٠ – تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

محمد عبدالوهاب خلاف:

٤١ – تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، توزيع المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٤٢ – قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، منشورات الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

محمد المنتصر الريسوني:

٤٣ – الشعر النسوي في الأندلس، قدم له عبدالله كنون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م.

مصطفى الشكعة:

٤٤ – الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.

هنري بيرس:

٤٥ – الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، منشورات دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.

وفاء محمد علي:

٤٦ – نفوذ النساء في الدولة الإسلامية في العراق ومصر، منشورات دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

رابعاً – الدوريات والموسوعات:

أحمد مختار العبادي:

١ – الإسلام في أرض الأندلس، بحث نشر في مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد العاشر، العدد الأول، ١٩٧٩م.

٢ – الصقالبة، بحث نشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية المصري بمدريد، المجلد الثالث عشر، ١٩٥٣م.

شفيق غربال ومجموعة من الباحثين:

٣ – الموسوعة العربية الميسرة، منشورات دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.

عبدالواحد ذو النون:

٤ – قيام الممالك الأسبانية وعلاقتها مع العرب في الأندلس، بحث نشر في مجلة أوراقه الصادرة عن المعهد الأسباني العربي للثقافة، العددان الخامس والسادس، مدريد، ١٩٨٣م.

Women in Umayyad Courts in Andalusia (138H/755-422H/1030) An Investigation into their Biodata and their Political, Social and Cultural Role

Abstract

This paper attempts to study the influence exercised by women of the Umayyad Courts in the political, social and cultural lives of the State in Andalusia during the period between 138 AH and 422 AH. The study has pursued and examined the relations of these women with the governors and caliphs of the State in the light of the women's positions at the Court. A distinction has been made between their positions in relation to whether the woman was a free wife, a mother slave, a daughter, a sister, a concubine slave or a serving slave.

It became obvious that these slave women enjoyed spoiled treatment and held distinguished positions with their master governors or caliphs who often took them as proper wives. They bore for them children who later became great governors and caliphs and who stamped the Umayyad Courts with their own style of life.

The paper also examines the positive and negative influence that women in general exercised in the political, social and cultural affairs of the State, which emphasizes the distinguished presence they enjoyed in that period. To obtain reliable results, the researcher has followed a historical, descriptive approach based on a process of investigation, comparison, analysis and deduction and informed by historical criticism and reconstruction..